بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا — من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له — وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه باحسان الى يوم الدين .

أما بعد :

فقد أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)) كذا فى المشكاة . .

وقال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتابه ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) حين بين مراتب الناس فى الدار الآخرة وطبقاتهم وجعلهم ثمانية عشر طبقة فجعل فى الطبقة الأولى المصطفين من الرسل وفى الثانية من عداهم من رسل الله وفى الثالثة عامة الأنبياء عليهم السلام ثم قال ما نصه :

الطبقة الرابعة : ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهى مرتبة الصديقية ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء فقال تعالى ((ومن يطع الله والرسول فاؤلئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)) فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون فى العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وهم المضمون لهم انهم لا يزالون على الحق

لا يغيرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .. وهؤلاء هم العدول حقا بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم اذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضا ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)) وما أحسن ما قال فيهم الامام أحمد فى خطبة كتابه فى الرد على الجهمية : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الاذى ويبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ومن ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ..

وشيخنا العلامة الكبير والمحدث الجليل الامام العارف الجامع لعلوم الشريعة الغراء وحقائق الطريقة الشهباء الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ثم المدنى حفظه الله ونفعنا والمسلمين به احد هذه البقية الباقية من العلماء العاملين المتقين عندما رأى الفتن كقطع الليل المظلم على هذه الأمة التى ماترك الباطل شرقيه وغربيه ثانية الا وهو يكيد لها بالفساد والانحراف فى عقائدها وأصولها وفروعها بل وان تمعن المؤمن فى ذلك تبين له أن شياطين الباطل لم يدعوا شيئا الا وكادوا للمسلمين فيه كيدا . خفيا أو جليا ، ولكن الله الذى أراد لهذا الدين الحنيف البقاء والازدهار . والانتشار فى أنحاء المعمورة أوجد سبحانه وتعالى له رجالا تفانوا فى حفظ كل صغيرة وكبيرة فيه وضحوا بالغالى والنفيس من أجل أصغر شعيرة من شعائره .

فالفتن كثيرة وحملات الباطل متنوعة ولكن من أعظمها أثرا فى المتدينين خاصة اثنتان :

احداها : نزع الحب والولاء الفكرى عن السلف الصالح وذلك فى الدرجة الأولى عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى الدرجة الثانية عن أئمة الهدى الأئمة الفقهاء المجتهدين المتبوعين الذين بذلوا الجهود العظيمة لتنقيح الأحكام الشرعية وحفظها للأمة التى أجمعت دائما على مختلف عصورها سلفا وخلفا على ثقاهتهم واخلاصهم وعلو باعهم وكمالهم العلمى والتحقيقى فى هذا الشأن .

وثانيها : ايجاد البلبلة الفكرية عن الناحية الروحانية والسلوك فى الاسلام واتهام الكاملين العارفين المتقين فيه بأنهم طبقة لا علاقة لها بالاسلام وان كانت لها علاقة فالاسلام لا علاقة له بهذه الروحانيات والأخلاق والصفات الباطنة الشريفة .

وللحصول على مقاصدهم الخسيسة لجأوا الى شعارات ظاهر ألفاظها يدل على أنهم مخلصون للاسلام وأهله فانخدعت بهم أقوام لا رسوخ لهم فى العلم والايمان وعم المنكر حتى ابتلى به رجال لهم مكانات مرموقة فى المجتمعات الاسلامية وبعضهم له يد طولى فى الكتابة والتحرير فخدع بتحريره وكتاباته السذج أصحاب العقول الضيقة والمتأثرين بالثقافة الشرقية أو الغربية الكافرة – فتارة رفعوا شعار نزاهة الاسلام وعدله وكماله وهجموا على صحابة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وتراهم يطعنون فى هذا ويجرحون ذاك يتهمون هذا بالخيانة فى بيت مال المسلمين وذاك بأنه كان يتعصب لقومه وقبيلته دون أمر ربه ويتقولون على آخر أنه انغمس فى الشهوات وقلع الاسلام من أصله الى غير ذلك من الوقاحة والبجاحة التى لا يرتضيها رجل عامى على نفسه وتناسوا ((أخزاهم الله)) أن الشارع الكريم صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك أشد النهى وقد علم السلف رحمهم الله بخطر هذه الفتنة الدهماء التى تهدم الاسلام من أصوله فأنكروها بعبارات شديدة بسطت فى مواقعها . وقد قال الحافظ الذهبى رحمه الله فى الكبائر بعد نقل بعض ذلك ((فمن طعن فيهم [أى الصحابة] أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون الا عن اعتقاد مساويهم واضمار الحقد فيهم وانكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم وما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول والطعن فى الوسائط طعن فى الأصل والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول هذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والالحاد فى عقيدته وحسبك ما جاء فى الأخبار والآثار من ذلك)) انتهى .

فعافانا الله يا أخى وحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن بفضله وكرمه ثم تجد من هؤلاء المغترين أناس رفعوا شعار الولاء للرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية وادعوا محبتها ثم حملوا معول ((الشرك فى الرسالة)) وأخذوا يكسرون به رؤوس أئمة الاسلام الفقهاء المجتهدين الذين أطبقت الأمة على اكرامهم وحسن الظن بهم وعلى أنهم ما جاءوا أبدا بشىء فى الأحكام من عندهم وانما التزموا فى جميع أمورهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

وسلم ولم يختلف اثنان يوما فى نزاهة هؤلاء السادة الاتقياء ومازالت جماعات العلماء الأعلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمؤرخين والعارفين تعتز بالانتساب اليهم والاستفادة من اجتهاداتهم واستنباطاتهم البديعة من ذاك الحين الى يومنا هذا معتقدين أنهم انما جاءوا به هو ما هو الا توضيح وشرح وتبسيط وتنقيح لما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وانه لا يجوز الاجتهاد أبدا لمن لم تتوفر فيه الشروط التى حددها العلماء الراسخون له . وهكذا تجد هؤلاء السفهاء فى الميدان الآخر رموا الكاملين من العارفين بالله بما هم منه برآء فبحجة التمسك بالسنة أحيانا وبحجة تنقية الاسلام من الشوائب أحيانا وبحجج أخرى كثيرة هجموا على السلوك والاحسان بل وعلى كل جزء من أجزائه وعلى كل رجل من رجاله بل وحتى على مصطلحاتهم فطعنوا فى كل صغيرة وكبيرة مدعين أنه لا علاقة لها بالاسلام الخ ..

ويعجب المسلم من هذا وكيف أن هذه الدعاية انتشرت وراجت مع أننا لا نعلم عظيما من عظماء الاسلام من السلف الى يومنا الا ونرى انه كان يقر السلوك الاسلامى المعروف بالتصوف فى مصطلح القوم ولم نر عالما رفيعا أقرت له الرجال بالفضل الا وهو يعتز بالانتساب الى طريق من هذه الطرق ولاء أو محبة الا النادر والنادر كالمعدوم .

لقد لاحظ شيخنا كل هذا بعين العالم الفذ المتألم لحالى الأمة وما آلت اليه فاستخار ربه واستعان به وبدأ على ما يلهمه البارى العليم الخبير فى رد هذه الفتن الظلماء باللغة الأردوية فبين بالأدلة القاطعة عدالة الصحابة وثقاهتهم ووجوب محبتهم واكرامهم والاجتناب والحذر من الطعن فيهم أو اساءة الأدب معهم رضى الله عنهم أجمعين وان تقليد الأئمة الفقهاء المتبوعين حق ولا حرج فيه بل انه واجب فى حق من لم تتوفر فيه شروط الاجتهاد وهو ما كان عليه السلف والخلف وليس فيه أى دخل قطعا للشرك فى الرسالة وانما هو لتحقق الانقياد التام والولاء الكامل لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم وبدون التقليد لأئمة الهدى يصعب ذلك حتى على الخاصة وأما العامة الجهلة فمستحيل فى حقهم ذلك .

وبين بالحجج القطعية ان التصوف جزء لا يتجزأ من الدين المتين كبقية أجزائه من العقائد والعبادات والمعاملات وغيرها وان أصوله ومبادئه أيضا تستنبط من ((القرآن والسنة والاجماع والقياس)) كبقية شعب الدين وأنه ماهو الا ((الاحسان)) الثابت فى الأحاديث الشريفة ((والتزكية)) الواردة

فى كتاب الله عز وجل فى الآيات الكثيرة ـ وأن هنـاك تلازم لابدى وحتمى بين الشريعة والطريقة ولا منافاة أبدا بينهما وأنهما كغصنين لشجرة واحدة الا أن الطريقة خادمة للشريعة والشريعة حاكمة عليها فقد أمرنا بوضـع الأشياء مواضعها الى آخر ذلك من الابحاث البديعة النفيسة التى سيتمتع بها القارىء فى هذا المؤلف القيم ان شاء الله .

ونشرت هذه الرسالة فى بلاد الهند وباكستان وبنغلاديش باللغة الأردوية وهى لغة المسلمين الثقافية فيها ورزق الله القبول لمؤلفه هذا فى تلك الديار وطبعت لها طبعات عديدة فى زمن قصير حال غالب مؤلفاته حفظه الله .

ثم رأى هذا الفقير المذنب فى ليلة من الليالى المباركة وكأنه فى مجلس سيد السادات صلى الله عليه وسلم وقد عرضت عليه بعض مؤلفات شيخنا فأخذ يتصفحها وقد أعجبته كلها ثم توجه صلى الله عليه وسلم الى هذا الفقير وأشار الى هـذا الكتاب بالذات « الشريعة والطريقـة » وأمره بترجمته الى اللغـة العربية وبما أن أمره الكريم صلى الله عليه وسلم ما كان ولم يكن ليرد لذلك بدأت فى العمل فورا ولكن انشغال هذا المقصر دائما فى أمور كثيرة حال دون اتمام هذه الترجمة الى اليوم وبما أنه قد حان الآن وقت الفراغ منها ان شاء الله فى القريب العاجـل أردت أن أحرر هـذه المقدمة وقد يسر الله لى المولى الكريم جل شأنه أن يكون تحريرها بالروضة الشريفة فى المسجد النبوى المبارك ليلة الأربعاء الموافق ١٣٩٩/٦/٢٧ هـ

وقد أضفت بالهامش باختصار تراجم كبار علماء الهند حين ورود ذكرهم فى كلام المؤلف حفظه الله .. أرجو منه سبحانه وتعالى أن يجعل هذه الترجمة مفيدة ومباركة للمترجم والقارىء وأن ينفع بها جميع المسلمين كما نفـع بأصلها والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

وصلى الله تعالى على خير خلقه وصفوة رسله سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم تسليما والحمد لله أولا وآخرا ..

المترجم
عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق

٢٧ / ٦ / ١٣٩٩ هـ ..
المدينـة المنـورة ..

بسم الله الرحمن الرحيم

حامداً ومصليا ومسلما ..

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم فان ولادة هذا المقصر كانت فى الحادى عشر من رمضان عام خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف فى الساعة الحادية عشر ليلا بقرية كاندهلة فى بيت زوجة جد والدتى « منأمها » وكانت تدعى بـ (أما مريم) وكانت امرأة عابدة زاهدة كريمة .

فأتى اليها أكابر العائلة بعد صلاة التراويح قبل المراح الى منازلهم وهنؤوها ثم طالبوا بالحلوى ـ فأمرت باحضار حلوى كثيرة لسخائها وجودها وقسمتها بين المهنئين حسب مراتبهم وحدث بذلك فرح ومرح وصياح هادىء لطيف .

وكاندهلة هذه قرية كبيرة تقع فى مديرية « مظفرنكر » . وكانت فى تلك الأيام « دوآبه » مأوى الشريعة والطريقة كليهما ومخزنهما وكلمة « دوآبة » اصطلاح كان مشهورا فى السابق ومعروف اليوم أيضا ـ وقد وردت هذه الكلمة فى كلام أكابرنا كثيرا .

وهذه المنطقة تشمل مديريات «دلهى وميرت ومظفر نكر وسهارنبور» ويقال لها « دوآبه » أى « منطقة الماءين » لأن فى الغرب من هذه المنطقة يوجد نهر « جمنا » وفى الشرق منها نهر « الكنج » وهما نهران معروفان .

وقد اشتهرت هذه المنطقة بأنها مخزن ومرجع ومأوى للشريعة والطريقة كلتيهما بصورة خاصة . كان بداية ذلك بأسرة الامام الجليل

الشيخ أحمد بن عبد الرحيم[1] ولى الله الدهلوى المحدث المشهور — وأما الفيضان العام فكان بواسطة أصحاب وخلفاء الشيخ الكبير العارف الكامل

(١) قال عنه العلامة الشريف عبد الحى بن فخر الدين الحسنى (وهو والد الشيخ أبى الحسن الندوى الحسنى) فى نزهة الخواطر فى الجزء السادس منه ص ٣٩٨ « الشيخ الامام الهمام حجة الله بين الأنام امام الأئمة قدوة الأمة علامة العلماء وارث الأنبياء آخر المجتهدين أوحد علماء الدين زعيم المتضلعين بحمل أعباء الشرع المتين محيى السنة ومن عظمت به لله علينا المنة شيخ الاسلام قطب الدين أحمد ولى الله بن عبد الرحيم بن وجيه الدين العمرى الدهلوى .. ثم قال « ولد يوم الأربعاء لأربع عشرة تخلون من شوال سنة اربع عشرة ومائة وألف فى أيام عالمكير » ثم بسط فى أحوال طلبه العلم واجتهاده وذكر أساتذته ومشايخه ورحلته الى الحرمين الشريفين وتلمذه على الشيخ أبى طاهر محمد بن ابراهيم الكردى المدنى بالمدينة المنورة وتلقيه منه أمهات الكتب الحديثية بعضها قراءة وبعضها سماعا ووروده بمكة المكرمة واخذه الموطأ عن الشيخ وفد الله المالكى المكى وحضوره دروس الشيخ تاج الدين القلعى المكى وأخذه الاجازة عنه لسائر الكتب وأخذه عنه الحديث المسلسل بالأولية عن الشيخ ابراهيم بن الحسن المدنى وهو أول حديث سمع منه بعد عوده من زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وقال ثم عاد الى الهند سنة خمس وأربعين ومائة وألف .

ثم قال صاحب النزهة « ومن نعم الله عليه : انه خصه بعلوم لم يشرك معه فيها غيره والتى اشرك فيها معه غيره من سائر الأئمة كثيرة لا يحصيها البيان ونحن نذكر قليلا من ذلك الكثير حسبما ذكرها محسن بن يحيى الترهتى فى « اليانع الجنى » : —

منها ما أكرمه الله تعالى به من الفصاحة فى اللغة العربية والربط الخاص بالفنون الأدبية فى النظم والنثر كأنما الاعجاز أو السحر من رقة اللفظ ومعناه وصفاء المورد ومغناه .

ومنها علوم الفقه على المذاهب الأربعة واصحابهم والاطلاع على مأخذ المسائل ومنازع الحجج والدلائل .

ومنها علم الحديث والأثر مع حفظ المتون وضبط الأسانيد والنظر فى دواوين المجاميع والمسانيد ولم يتفق لأحد قبله ممن كان يعتنى بهذا العلم من أهل قطره ما اتفق له من رواية الأثر واشاعته فى الأكناف البعيدة .

ومنها علم تفسير القرآن وتأويل كتاب الله العزيز فمن نظر فى كتبه شهد بتوفر حظه منه .

ومنها أصول هذه العلوم ومبادئها التى هذبها تهذيبا بليغا وأكثر من التصرف فيها حتى يكاد يصح أن يقال : انه بانى اسها وبارئ قوسها ، فأما =

الحاج[1] امداد الله المهاجر المكى قدس الله روحه ومن أدنى آثار هذه المنطقة

= أصول التفسير فكتابه « الفوز الكبير » فيها شاهد صدق على براعته على كثير من أهلها والحق انه متفرد بتحقيق هذا الفن وتدقيقه ، وأما أصول الحديث فله فيها باع رحيب وقد أشار ابنه عبد العزيز أن له فيها تحقيقات مستظرفة لم يسبق اليها ؛ وأما أصول الفقه فانه شرح أصول المذاهب المختلفة وجمعها وبين الفرق بين الأمور الجدلية والأصول الفقهية ورد وجوه الاستنباط على كثرتها الى عشرة وأسس قواعد الجمع بين مختلف الأدلة وبين قوانين الترجيح .

ومنها علم العقائد وأصول الدين فانه أتى بأسرار غامضة فى تطبيق بالمأثور مما لا يهتدى اليها فى الأعصار الا واحد بعد واحد ممن يجتبيه الله سبحانه وذلك لأن المتكلم فى هذا العلم اما أن يكون صاحب حديث يتهافت على ظواهره أو صاحب كلام يتعمق فى الرأى أو صاحب فقه يتوسط الفريقين أو صاحب ذوق يطمئن الى ما يتجلى له ، وقد جمع الله تعالى فى صدره ما شتته بين هؤلاء .

ومنها آداب السلوك وعلم الحقائق فانه أفاض من ذوارف المعارف على أهلها سجالا لأنه كان جامعا بين الطرق الثلاثة من السمع والفكرة والذوق فلا يتجلى له شىء من السر الغامض فيقبله الا بعد ما شهد بصحته شاهدا صدق من المعقول والمنقول ـ ثم ذكر خصائص عديدة له وبعض مؤلفاته القيمة ، ثم قال : ومن نعم الله تعالى عليه : أن أولاه خلعة الفاتحية وألهمه الجمع بين الفقه والحديث وأسرار السنن ومصالح الاحكام وسائر ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من ربه عز وجل حتى أثبت عقائد أهل السنة بالأدلة والحجج وطهرها من قذى أهل المعقول وأعطى علم الابداع والخلق والتدبير والتدلى مع طول وعرض وعلم استعداد النفوس الانسانية بجميعها وأفيض عليه الحكمة العملية وتوفيق تشييدها بالكتاب والسنة وتمييز العلم المنقول من المحرف المدخول وفرق السنة السنية من البدعة غير المرضية ـ الخ .. وبسط فى مآثره قدس روحه بسطا يليق بعلو مقامه وعظيم مرتبته وزين بترجمته العطرة المباركة ثمانية عشر صحيفة من كتابه البديع .

(١) قال عنه صاحب نزهة الخواطر فى الجزء الثامن ص ٧٠ « الشيخ العارف الكبير الأجل امداد الله بن محمد أمين العمرى التهانوى المهاجر الى مكة المباركة كان من الأولياء السالكين العارفين ، اتفقت الألسن على الثناء عليه والتعظيم له ، ولد يوم الاثنين لثمان بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بعد الألف بنانوته قرية من أعمال سهارنبور وقرأ الرسائل الفارسية =

= على الوجه المرسوم وقرأ الحصن الحصين على مولانا قلندر بخش الجلال آبادى وقرأ المثنوى المعنوى عليه أيضا وهو ممن قرأ على المفتى الهى بخش الكاندهلوى ثم سافر الى دهلى ولازم الشيخ نصير الدين الشافعى المجاهد واخذ عنه الطريقة وبعد شهادته رجع الى «تهانة بهون» فأقام بها زمانا ثم دخل « لوهارى » ولازم الشيخ نور محمد الجهنجهانوى واخذ عنه الطريقة وفتح الله سبحانه عليه أبواب المعرفة وجعله من العلماء الراسخين فى العلم فتصدر للارشاد والتلقين بأمر شيخه ، وثار المسلمون واهل البلاد على الحكومة الانجليزية سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ١٢٧٤ وقامت جماعة من العلماء والصلحاء واهل الغيرة من المسلمين فى سهارنبور ومظفر نكر فأعلنوا الحرب على الانكليز واختاروا الشيخ امداد الله اميرا لهم ، واشتبك الفريقان فى ميدان « شاملى » قرية من اعمال مظفرنكر فقتل حافظ محمد ضامن شهيدا ، وانقلبت الدائرة على المسلمين ورسخت اقدام الانكليز واشتد بطشهم بكل من اتهم بالمشاركة فى هذه الثورة ، وضاقت على العلماء العاملين الفيارى الأرض وضاق مجال العمل فى الهند وقضى بعض الرفقة مدة فى الاختفاء والانزواء ولجأ بعضهم الى الهجرة ومغادرة البلاد ، وآثر الشيخ امداد الله الهجرة الى مكة المكرمة ودخل مكة سنة ست وسبعين ومائتين والف وألقى رحله بالبلد الأمين وكان أول اقامته على « الصفا » ثم انتقل الى حارة الباب حيث قضى حياته ولقى ربه وعاش اياما طويلة فى عسر شديد وفقر وفاقة شأن الأولياء المتقدمين وهو صابر محتسب راض بما قسم الله له من الحال حتى جاء الله بالفرج وأبدل العسر باليسر وجاءته الدنيا راغمة واشتغل بالمجاهدات والعبادات متوجها الى الله بقلبه وقالبه دائم الذكر والمراقبة فائض القلب والباطن بالعلوم والأنوار مع هضم للنفس واطراح على عتبة العبودية وتواضع للعباد وعلو همة وشهامة نفس واجلال للعلم والعلماء وتعظيم للشريعة والسنة السنية حتى غرس الله حبه فى قلوب عباده وعطف قلوب العلماء الكبار والمشايخ الأجلاء الى الرجوع اليه والاستفادة منه وامه طلاب المعرفة واليقين من بلاد بعيدة وبارك الله فى تربيته وطريقته فانتشرت أنوارهما فى الآفاق وجدد به الطريقة الجشتية الصابرية وانتمى اليها ودخل فى سلكها كبار العلماء والفضلاء ونفع الله به خلائق لا يحصون أجلهم الشيخ قاسم والشيخ رشيد احمد ومولانا يعقوب والمولوى احمد حسن والمولوى محمد حسين والمولوى أشرف على وكلهم صاروا شيوخا وانتفع بهم خلق كثير .

وكان الشيخ امداد الله مربوع القامة يميل الى الطول نحيف الجسم أسمر اللون كبير الهامة واسع الجبين ازج الحاجبين واسع العينين حلو المنطق ودودا بشوشا قليل المنام مقلا من الطعام قد اضناه الحب الالهى وانحفته المجاهدات والرياضات ، رحب الأناة ، واسع القلب جامعا =

أنك ترى مريدى قطب الارشاد الامام الربانى الشيخ رشيد [1] أحمد

= للأشتات يلتقى على حبه والاستفادة منه المختلفون فى الأذواق والمشارب ، متسامحا مع الناس ، متوسعا فى المسائل الجزئية والمذاهب الخلافية لا يتعصب فيها ولا يتشدد مولعا « بالمثنوى المعنوى » دائم الاشتغال به تأملا وتدريسا وتذوقا وتلقينا ينصح أصحابه بقراءته والتأمل فيه ، له مصنفات لطيفة كلها فى الحب الالهى والمعرفة والتصوف ... الخ ثم قال : توفى يوم الأربعاء ثانى عشر جمادى الآخرة سنة سبع عشرة وثلاث مائة وألف بمكة المكرمة فدفن بالمعلاة عند الشيخ رحمة الله الكيرانوى .

(١) قال عنه صاحب النزهة فى الجزء الثامن ص ١٤٨ « الشيخ الامام العلامة المحدث رشيد أحمد بن هداية أحمد بن بيربخش بن غلام حسن بن غلام على بن على أكبر بن القاضى محمد اسلم الأنصارى الحنفى الرامبورى ثم الكنكوهى أحد العلماء المحققين والفضلاء المدققين ، لم يكن مثله فى زمانه فى الصدق والعفاف والتوكل والتفقه والشهامة والاقدام فى المخاطر والصلابة فى الدين والشدة فى المذهب ولد لست خلون من ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائتين وألف ببلدة كنكوه فى بيت جده لأمه ونشأ بين خؤولته وكان أصله من رامبور قرية جامعة من أعمال سهارنبور : وقرأ الرسائل الفارسية على خاله محمد تقى والمختصرات فى النحو والصرف على المولوى محمد بخش الرامبورى ثم سافر الى دهلى وقرأ شيئا من العربية على القاضى أحمد الدين الجهلمى ثم لازم الشيخ مملوك على النانوتوى وقرأ عليه أكثر الكتب الدرسية وبعضها على المفتى صدر الدين الدهلوى وقرأ الحديث والتفسير أكثرهما على الشيخ عبد الغنى وبعضها على صنوه الكبير احمد سعيد بن أبى سعيد العمرى الدهلوى حتى برع وفاق أقرانه فى المعقول والمنقول ورجع الى كنكوه . وتزوج بخديجة بنت خاله محمد تقى ثم حفظ القرآن فى سنة واحدة ثم اخذ الطريقة عن الشيخ الأجل امداد الله بن محمد أمين العمرى التهانوى ولازمه مدة ثم تصدر للتدريس بكنكوه .. وبعد ذكر بعض احواله واسفاره الى الحجاز للحج والزيارة يقول : وكان قبل سفر الحجاز فى المرة الثالثة يقرىء فى علوم عديدة من الفقه والأصول والكلام والحديث والتفسير ، وبعد العود من الحجاز فى المرة الآخرة أفرغ أوقاته لدرس الصحاح الستة والتزم أن يدرسها فى سنة واحدة وكان يقرىء جامع الترمذى اولا ويبذل جهده فيه فى تحقيق المتن والاسناد ودفع التعارض وترجيح أحد الجانبين وتشييد المذهب الحنفى ، ثم يقرىء الكتب الأخر سنن أبى داود فصحيحى البخارى ومسلم فالنسائى فابن ماجة سردا مع بحث قليل فيما يتعلق بالكتاب ولم تكن له كثرة اشتغال بالتاليف . =

= وكانت اوقاته موزعة مضبوطة يحافظ عليها صيفا وشتاء فاذا صلى الفجر اشتغل بلذكر والفكر فى الخلوة حتى يتعالى النهار ثم يتطوع ويقبل على الطلبة وهم كبار العلماء والمحصلين يدرسهم فى الفقه والحديث والتفسير واقتصر فى آخر عمره على تدريس الصحاح الستة. فلما كف بصره ترك التدريس وتوسع فى الارشاد والتحقيق وبعد أن ينتهي من التدريس يشتغل بكتابة الرسائل والردود يجيب المستفتين ولما عجز عن الكتابة لنزول الماء فى عينيه وكل كتابة الرسائل وتحرير الفتاوى الى تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن اسماعيل الكاندهلوى وكان يحرص على أن ينتهى من كتابة الرسائل والفتاوى فى يومها ، فاذا انتهى من الكتابة تغدى وانصرف يقيل ويستريح فاذا صلى الظهر اشتغل بتلاوة القرآن من المصحف وبعد ما كف بصره كان يتلو حفظا ثم اشتغل بالدروس الى العصر وكان يجلس للعامة بين العصر والمغرب فاذا صلى المغرب قام يتطوع ثم ينصرف الى البيت ويكون مع عياله ويتعشى فاذا صلى العشاء وكان يؤخره غالبا انصرف الى فراشه ينام ويستريح وكان هذا دأبه على مر الأيام وكان آية باهرة ونعمة ظاهرة فى التقوى واتباع السنة النبوية والعمل بالعزيمة والاستقامة على الشريعة ، ورفض البدع ومحدثات الأمور ومحاربتها بكل طريق والحرص على نشر السنة واعلاء شعائر الاسلام والصدع بالحق وبيان الحكم الشرعى ثم لا يبالى بما يتقاول فيه الناس لا يقبل تحريفا ولا يتحمل منكرا ولا يعرف المحاباة والمداهنة فى الدين مع ما طبعه الله عليه من التواضع والرفق واللين دائرا مع الحق حيث ما دار يرجع عن قوله اذا تبين له الصواب انتهت اليه الامامة فى العلم والعمل ورئاسة تربية المريدين وتزكية النفوس والدعاء الى الله واحياء السنة واماتة البدع وقد رزقه الله من التلاميذ والخلفاء ما يندر وجود أمثالهم فى هذا العصر فى الاستقامة على الدين واتباع الشريعة الغراء ونشر العلم النافع واحياء السنن واصلاح المسلمين ونفع بهم خلائق لا تحصى بحد وعد ... الخ .

وقد بسط صاحب النزهة فى ترجمته ايضا وقال فى آخرها فى ذكر مصنفاته : وقد جمع تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى بن اسماعيل الكاندهلوى ما افاد به فى درسه لجامع الترمذى وطبع باسم « الكوكب الدرى » ودون ما أفاده فى درس الجامع الصحيح ونشره ابنه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى مع تعليقاته وسماه « لامع الدرارى » .

كانت وفاته يوم الجمعة بعد الأذان لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة والف .

وقال عنه العلامة المحدث الجليل والمجاهد الكبير الشيخ محمد يوسف البنورى فى مقدمته على « لامع الدرارى على جامع البخارى » بعد أن ذكر أحوال عدة من مشايخ الهند القدامى الذين انتشرت بهم العلوم الاسلامية فى =

= الهند وخصائصهم ، قال : وبالجملة ذلك الفهم الثاقب موهبة الهية يخص بها من يشاء من عباده تنجلى به جهات من العلم ما لم تنجل بغرور نقول القدماء وجهابذة الأمة وأعيان العلم ، لا تجد هناك طولا وعرضا ولكن تجد عمقا وربما يصدر من ذلك الفهم كلمة لطيفة لا توجد فى مطاوى الأوراق ومطاوى المكاتب تنبثق من هذا النور علوم فياضة غزيرة ما لم تنبثق من كتب وأسفار فكان المحدث فقيه هذه العصور الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى الأنصارى رحمه الله جمع مع العلوم الرائجة علوم أرباب القلوب ووهب نورا فى القلب يلمع به ما أظلم على الناس ، فكان يأتى بتوجيهاته من مشكلات الفقه ومعضلات الحديث ما خلت عنها الأسفار الضخمة والمجلدات الكبيرة وكان موفقا طيلة حياته المباركة لدرس الأمهات الست طوال النهار غير فترة قليلة فى البين وبقى نصف قرن يدرس الحديث وكتب السنة لا يلحقه ملل ولا ضجر ولا سآمة ولا تعب مع اشتغاله بتربية النفوس وتصفية القلوب بالأذكار والتوجه فكانت نفسه الزكية تتجلى كل حين وهذا ما عدا افتاء فى النوازل والمسائل حيث كان مرجعا فى معضلات النوازل كما كان مرجعا للارشاد وتربية النفوس وتدريس الصحاح الستة فى الأمهات ا هـ ، ص ز .

ويقول عنه الداعية والمفكر الاسلامى الكبير الشيخ أبو الحسن الندوى الحسنى فى مقدمته البديعة على رسالة الشيخ محمد الثانى الحسنى عن العلامة المحدث الكبير الشيخ خليل أحمد الأنصارى السهارنبوى ص ١٣ بعد ان ذكر أحوال علماء الهند العجيبة فى خدمة الاسلام قال : وما هى الا مدة قليلة اذ تولى زمام قيادة هذه الجماعة أحد العلماء الربانيين والشيوخ الكاملين وهو المحدث الجليل الشيخ رشيد أحد الكنكوهى الذى كان قد ورث من هذه الطوائف الأربع (وقد ذكرها بالتفصيل فيما قبله) حظا وافرا من العلم والدين واجتمع فى شخصه أذواقهم واتجاهاتهم فبينما كان يجمع بين الشريعة والطريقة والفقه والحديث ونشر السنة ومحو البدعة وتدريس الحديث وشرحه وكان يتبوأ النصب الأعلى فى الربانية ويفوز بمكانة الاجتهاد فيها ويحن الى الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله وكان يشرف على مدرستين كبيرتين هما دار العلوم ديوبند ، ومظاهر علوم سهارنبور وكان أستاذ الأساتذة وشيخ الشيوخ وبينما كان يتمتع بحظ وافر من التوجع للاسلام من الحب والذوق وكان يتناول الناس بالتربية الروحية الأمر الذى كان قد ورثه من مشايخ « الجشتية » الذين كان يتصل بهم بنسب روحى باطن اذ كان مثريا بثروة الوقار والجدية والاستقامة على الشريعة واتباع السنة التى كان قد نالها من مشايخ النقشبندية الذين كان يتصل بهم عن طريق الامام أحمد بن عرفان الشهيد — وبينما كان فقيها فذا معترفا به فى الأوساط العلمية كلها ويفتى على المذهب الحنفى بوجه عام ، اذا هو محدث جليل له مكانة عالية فى التحديث وشغف زائد به ، حتى أن قريته « كنكوه » كانت قد تحولت الى مركز عظيم لطلاب علم الحديث ومتخرجى المدارس =

الكنكوهى نور الله مرقده كان العامى الجاهل منهم أيضا يواظب على صلاة التهجد بصورة تفوق على حالة بعض أكابر المشايخ وذلك مع الاهتمام الشديد على أداء الصلوات المفروضة مع الجماعة ، وأما الطريقة فان الحوض الكبير الكائن بجوار زاوية الشيخ الكنكوهى نور الله مرقده كان يرده حوالى خمسين أو ستين من الغسالين لغسل الملابس عليه آخر الليل فكانوا بدلا من أن يتلفظوا بعبارات وجمل مهملة كعادة عامة أصحاب المهن عند التحمس كان هؤلاء يهتفون مع كل ضربة فى الغسيل باسم الله ويمتلىء الجو بصيحات الله .. الله ..

وان هذا الفقير لم يتشرف بزيارة أحد من الأسرة الولى اللهية وانما زرت الكثير من أكابر وأصاغر الطائفة الامدادية .

لم أتمكن من زيارة سيد الطائفة الشيخ امداد الله المهاجر المكى نور الله مرقده لأن وفاته كانت بعد ولادتى بسنتين تقريبا فى ١٢ أو ١٣ جمادى الآخرة عام ١٣١٧ هـ بمكة المكرمة ــ وكذلك حجة الاسلام الشيخ النانوتوى (١) نور الله مرقده فلم أتمكن أيضا من زيارته لأن وفاته كانت

= الاسلامية .. ثم قال : ان هذه الألوان المتعددة التى قد تبدو متعارضة اجتمعت فى حياته جنبا الى جنب ورغم انه كان يحب العزلة ولكنه كان شديد الاهتمام بالمسلمين وباسلامهم وكان شديد الاتصال بالمؤسسات والمدارس الدينية التى كان قد اسسها انصاره ومحبوه وتلاميذه للتعليم والتربية وللدعوة الاسلامية ... ثم قال : وقلما رزق عالم كبير ومرب جليل فى عصره من الأتباع والخلفاء المخلصين ذوى العلم والفضل مطيعين منقادين من المعجبين به مثل ما رزق العلامة رشيد أحمد الكنكوهى فأى تلميذ وخليفة من تلاميذه وخلفائه كان يتمتع بأحوال وفضائل بحيث يبدو انه متفرد بذلك فقد احيا الله تعالى بفضل جهودهم قلوب المسلمين وصقل عقولهم وزين أخلاقهم ممن لا يأتى عليهم الحصر وذلك فى عصر كان الالحاد والانحراف ينبعث فيه مثل السحاب والفتن تمطر مثل الأمطار اهـ .

(١) قال الشريف الحسنى فى النزهة فى ترجمته « الشيخ الامام العالم الكبير قاسم بن أسد على بن غلام شاه بن محمد بخش الصديقى النانوتوى أحد العلماء الربانيين ولد بنانوته سنة ثمان واربعين ومائتين والف ودخل سهارنبور فى صغر سنة وقرا المختصرات على الشيخ محمد =

قبل ولادتى بما يقرب من ثمانية عشر سنة وذلك فى ٤ جمادى الأولى عام ١٢٩٧ هـ فى ديوبند الحبيبة • وكذلك لم أتمكن من زيارة جدى الأمجد

= نواز السهارنبورى ثم سافر الى دلهى واشتغل على الشيخ مملوك العلى النانوتوى وقرأ عليه سائر الكتب الدرسية ثم أخذ الحديث على الشيخ عبد الغنى بن أبى سعيد الدهلوى ولازمه مدة وأخذ الطريقة على الشيخ امداد الله العمرى التهانوى وصحبه واستفاض منه فيوضا كثيرة واشتغل فى المطبعة الأحمدية بدهلى للشيخ أحمد على بن لطف الله السهارنبورى وكان الشيخ فى ذلك الزمان مجتهدا فى تصحيح « صحيح البخارى » وتحشيته ففوض اليه خمسة اجزاء من آخر ذلك الكتاب وكانت تلك الأجزاء عسيرة سيما فى مقامات أورد فيها البخارى على أبى حنيفة فبذل جهده فى تصحيح الكتاب وتحشيته وبالغ فى تأييد المذهب حتى استوفى حقه .

وكان أزهد الناس واعبدهم واكثرهم ذكرا ومراقبة وابعدهم عن زى العلماء ولبس المتفقهة من العمامة والطيلسان وغيرهما وكان فى ذلك الزمان لا يفتى ولا يذكر بل يشتغل فى ذكر الله ومراقبته حتى فتحت عليه أبواب الحقائق والمعارف فاستخلفه الشيخ امداد الله المذكور ومدحه بأن مثل القاسم لا يوجد الا فى العصر السالف ، ثم تزوج بأمره الشريف وصعد المنبر بتكليف الشيخ مظفر بن محمود الكاندهلوى فذكر أحسن تذكير . ثم قال : وله مشاهد عظيمة فى المباحثة بالنصارى والآرية أشهرها المباحث التى وقعت ببلدة « شاهجهانبور » سنة ثلاث وتسعين وأربع وتسعين فناظر أحبار النصارى وعلماء الهنادك غير مرة فغلبهم وأقام الحجة وظهر فضله فى المناظرة ، فصلها الشيخ فخر الحسن الكنكوهى فى كتابه « انتصار الاسلام » وفى « كفتكوى مذهبى » وفى « مباحثه شاهجهان بور » وغيرها من الرسائل . ثم ذكر مصنفاته . وقال الشيخ أبو الحسن الندوى فى حاشيته : فى بحثه عن تأسيس جامعة دار العلوم بديوبند : ويستفاد من كتاب « سوانح قاسمى » للشيخ مناظر أحسن الكيلانى رحمه الله : أن الحاج عابد حسين كان قد تفاهم مع مولانا محمد قاسم واتفق معه على تأسيس هذه المدرسة وأخبره بذلك فى ميرت وطلب منه أن يأتى الى « ديوبند » ويفتتح التعليم فاختار مولانا محمد قاسم الملا محمود الديوبندى مدرسا للمدرسة وعين له راتبا شهريا مقدار خمس عشرة روبية فجاء الى ديوبند وافتتح التعليم فى مسجد شتة وهكذا كانت بداية مدرسة ديوبند التى أصبحت بعد مدة كبرى المدارس الهندية وبعد مدة قليلة قدم مولانا محمد قاسم الى ديوبند وتولى أمر المدرسة ووضع اساس بنايتها المستقلة » ع .

رأس الأتقياء مولانا الشيخ محمد اسماعيل[1] الجهنجهانوى ثم الكاندهلوى ثم الدهلوى لأنه قدس الله روحه توفى فى دلهى بمسجد نواب والى فى الرابع من شوال عام ١٣١٥ هـ .. وذلك بعد ولادتى بما يقرب من عشرين عاما .

وقد سمعت من الأكابر أنه حينما بلغ جدى هذا خبر ولادتى قال : لقد جاء خلفنا فحان موعد ذهابنا .

هؤلاء لم أتمكن من رؤيتهم المباركة ولكنى سمعت من وقائعهم الكثير الذى لا يعد ولا يحصى .

وأما فخر المحدثين وشيخ مشايخ زمانه قطب الارشاد الكنكوهى قدس روحه فقد زرته كثيرا لأن وفاته كانت بعد ولادتى بما يقرب من ثمانى سنوات فى الثامن من جمادى الآخرة عام ١٣٢٣ هـ بكنكوه .

وأذكر أيضا صورته المباركة جيدا وأذكر أيضا أنه عندما كان

---

(١) هو جد شيخنا من أبيه ولد فى جهنجانة وهو موطن آبائه قال عنه الشيخ ابو الحسن الندوى : ـ الشيخ محمد اسماعيل من الذين اتفقت الألسنة على اخلاصه وصلاحه وزهده . وقال عنه الشيخ محمد الثانى الحسنى فى رسالته (العلامة المحدث الكبير خليل أحمد ص ١٠٣ : كان الشيخ اسماعيل رجلا صالحا تقيا وكان يدرس الأطفال فى مسجد « بستى نظام الدين » ويقوم فى حقل الدعوة والتبليغ بمسئولياته التى تعود اليه من قبل الدعوة وكان يمتاز بزهده وورعه وتقواه وقد رزقه الله ثلاثة أبناء أكبرهم محمد الذى كان حذو والده فى التقوى والأنابة الى الله واوسطهم الشيخ محمد يحيى وأصغرهم الشيخ محمد الياس الداعية الى الله ومؤسس حركة الدعوة والتبليغ ا هـ . وقد بسط فى ترجمته الشيخ محمد الثانى الحسنى فى كتابه بالأوردية فى ثمانى صفحات ذكر فيها علو مرتبه وشهرته بين الخلائق بالتقوى والورع واستجابة الدعاء ومواظبته خصوصا على الأدعية والأذكار المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم فى جميع الأحوال وقد شهد له الامام الكنكوهى قدس سرهما بالوصول الى درجة الاحسان وذكر اهتمامه الشديد وحرصه على اصلاح وتعليم أهل الميوات امور الدين المتين وذكر جهوده المختلفة لذلك وقد توفى بدلهى فى الرابع من شوال عام ١٣١٥ ـ ودفن بجوار مسجد بنكله والى نظام الدين بدلهى .

الشيخ قدس الله روحه يجلس فى فناء الزاوية متربعا فألف ذراعى حول عنقه واتعلق به ـ وقد أكلت بمعيته كثيرا ـ وأذكر جيدا ركوبى معه فى هودجه الذى كان يتشرف بحمله مشايخ العصر على أكتافهم عند الذهاب الى مصلى العيد ـ وهذه الفترة تعتبر رفيعة جدا من حيث الشريعة والطريقة ـ ثم بعده تشرفت بملازمة سيدى ومرشدى ومولاى الشيخ خليل أحمد (١) نور الله مرقده مسلسلا من رجب ١٣٢٨ هـ الى ذى العقدة

---

(١) قال الشريف الحسنى فى النزهة ج ٨ ص ١٣٣ (الشيخ العالم الفقيه خليل احمد بن مجيد على بن أحمد على بن قطب على بن غلام محمد الأنصارى الحنفى الانبهيتوى أحد العلماء الصالحين وكبار الفقهاء والمحدثين ولد فى أواخر صفر سنة تسع وستين ومائتين والف فى خئولته فى قرية « نانوته » من أعمال سهارنبور ونشأ ببلدة أنبيته من أعمال سهارنبور ، ثم ذكر مفصلا تعليمه على خاله الشيخ يعقوب النانوتوى وغيره بمدرسة ديوبند ومظاهر العلوم بسهارنبور . ثم تعيينه أستاذ مساعدا بعد الافراغ فى مظاهر العلوم ثم بعد مراحل استاذا بدار العلوم بديوبند ثم توليه رئاسة التدريس فى مظاهر العلوم واشتهار المدرسة به وقبولها وترقيها العظيم فى عهده . كما ذكر بيعته للشيخ الامام العلامة رشيد أحمد الكنكوهى ثم تشرفه بالحج والزيارة ولقياه بمكة المكرمة بالعارف الكبير الشيخ امداد الله المهاجر واجازته اياه فى الطرق ثم اجازة الشيخ الامام الكنكوهى ايضا وانه اختص به اختصاصا عظيما حتى اصبح من أخص أصحابه وأكبر خلفائه ومن كبار الحاملين لعلومه وبركاته والناشرين لطريقته ودعوته ..

ثم قال : وعنى بالحديث عناية عظيمة تدريسا وتأليفا ومطالعة وتحقيقا وكان من أعظم أمانيه أن يشرح سنن أبى داود فبدأ فى تأليفه سنة خمس وثلاثمائة والف يساعده فى ذلك تلميذه البار الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى وانصرف الى ذلك بكل همته وقواه وعكف على جمع المواد وتهذيبها واملائها لا لذة له ولا هم فى غيره .. ثم يقول : كان الشيخ خليل احمد له الملكة القوية والمشاركة الجيدة فى الفقه والحديث واليد الطولى فى الجدل والخلاف والرسوخ التام فى علوم الدين والمعرفة واليقين وكانت له قدم راسخة وباع طويل فى ارشاد الطالبين والدلالة على معالم الرشد ومنازل السلوك والتبصر فى غوامض الطريق وغوائل النفوس ، صاحب نسبة قوية وافاضات قدسية وجذبة الهية نفع الله به خلقا كثيرا ، وخرج على يده جمعا من العلماء والمشايخ ونبغت بتربيته جماعة من أهل التربية والارشاد وأجرى على يدهم الخير الكثير فى الهند وغيرها فى نشر العلوم =

١٣٤٥ هـ ماعدا السنة التى اقام فيها سيدى الشيخ وقد غادر هذا العاجز المدينة المنورة فى السادس عشر من ذى القعدة عام ١٣٤٥ هـ وتوفى بعدها سيدى ومرشدى بالمدينة المنورة فى السادس عشر من ربيع الثانى عام ١٣٤٦ هـ .

وأما بالنسبة لعصر حضرة العلامة شيخ الهند [1] نور الله مرقده

= الدينية وتصحيح العقائد وتربية النفوس والدعوة والاصلاح من أجلهم المصلح الكبير الشيخ محمد الياس بن اسماعيل الكاندهلوى صاحب الدعوة المشهورة المنتشرة فى العالم ، والمحدث الجليل الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى السهارنبورى صاحب « أوجز المسالك » و « لامع الدرارى » والمؤلفات المقبولة الكثيرة . والشيخ عاشق الهى الميرتهى وغيرهم ـ كان جميلا وسيما مربوع القامة مائلا الى الطول أبيض اللون يفلت منه الحمرة .. وكان رقيق الشعور ذكى الحس صادعا بالحق صريحا فى الكلام فى غير جفاء شديد الاتباع للسنة نفورا عن البدعة كثير الاكرام للضيوف عظيم الرفق بأصحابه يحب الترتيب والنظام فى كل شىء والمواظبة على الاوقات مشتغلا بخاصة نفسه وبما ينفع فى الدين متنحيا عن السياسة مع الاهتمام بأمور المسلمين ، والحمية والغيرة فى الدين ـ حج سبع مرات آخرها فى شوال سنة اربع واربعين من الهجرة (وبسط الشريف الحسنى فى ترجمته وافرد فى ترجمته الشيخ محمد الثانى الحسنى رسالة مستقلة تقع فى مائة وخمس وعشرين صفحة نشرتها دارعرفات) قلت : وشرحه لسنن أبىداود المذكور فى النزهة قد تم وطبع أولا بالهند بالحروف الحجرية ثم بالهند والقاهرة بالحروف الحديدية فى عشرين مجلد ثم نشرت منه طبعة ثالثة فى بيروت والطبعة الرابعة على وشك الصدور فقد حظى بقبول عظيم عند الدارسين للحديث الشريف .

(١) قال الشريف الحسنى فى النزهة جـ ٨ ص ٤٦٥ فى ترجمته (الشيخ العالم الكبير العلامة المحدث محمود حسن بن ذو الفقار على الحنفى الديوبندى ـ أعلم العلماء فى العلوم النافعة واحسن المتأخرين ملكة فى الفقه وأصوله واعرفهم بنصوصه وقواعده ولد سنة ثمان وستين ومائتين والف فى بريلى ونشأ بديوبند وقرأ العلم على مولانا السيد أحمد الدهلوى ومولانا يعقوب ابن مملوك العلى وعلى العلامة محمد قاسم وعلى غيرهم من العلماء . وصحب مولانا محمد قاسم المذكور مدة طويلة وانتفع به كثيرا حتى صار بارعا فى العلوم وولى التدريس فى المدرسة العربية بديوبند سنة اثنتين وتسعين ومائتين والف ثم أخذ الطريقة عن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى =

= وكان يتردد اليه غير مرة فى السنة وحصلت له الاجازة منه . حتى كبره موت الكبراء لقيته بديوبند غير مرة ووجدته ملازما للعبادة والورع وقيام الليل والسداد فى الرواية سريع الادراك شديد الرغبة فى المذاكرة بالعلم . ذا عناية تامة بالفقه وأصوله يحفظ متون الأحاديث ، وانتهت اليه رئاسة الفتيا والتدريس فى آخر عمره .

وكان قد وضع خطة لتحرير الهند من حكم الانجليز كان يريد ان يستعين فيها بالحكومة الافغانية والخلافة العثمانية وهيأ لها جماعة من تلاميذه وممن يثق بهم من أصحابه وكان فى مقدمتهم المولوى عبيد الله السندى وارسله الى أفغانستان وكان الاتصال بينه وبين تلاميذه وأصحابه فى الحدود الشمالية وفى أفغانستان ولما تم لهم بعض ذلك ومهدوا الأرض للثورة واشتدت عليه الرقابة فى الهند سافر الى الحجاز سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مائةوالف .. ثم ذكر مقابلته للولاة والوزراء الأتراك فى زيارته للمدينة وبعض أحوال اقامته بالحجاز واحكام خطته لتحرير الهند هناك — الى أن قال : واكتشفت الحكومة الانجليزية المؤامرة وعرفت قضية الرسائل الحريرية ، فصرفت عنايتها الى القبض على زعيم هذه الحركة وقلب رحاها وكان الشريف حسين أمير مكة قد خرج عن الدولة المتبوعة العثمانية وثار عليها بتحريض الدولة الانجليزية فأوعزت الى الشريف بالقاء القبض عليه وتسليمه الى الحكومة الانجليزية فألقى القبض عليه فى صفر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف ومعه المولوى حسين أحمد الفيض آبادى والحكيم نصرت حسين الكوروى والمولوى عزيركل والمولوى وحيد أحمد وسفر هؤلاء فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة والف الى مصر « ومنها الى مالطة » حيث وصلوا سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة والف .. وبسط الشريف الحسنى فى ترجمته أيضا وذكر رجوعه من مالطة مكرما مبجلا وكفاحه ونضاله ضد الانجليز وكيف لقب « بشيخ الهند » وفى آخره : كان مولانا محمود حسن آية باهرة فى علو الهمة وبعد النظر والأخذ بالعزيمة وحب الجهاد فى سبيل الله . قد انتهت اليه الامامة فى العصر الأخير فى البغض لاعداء الاسلام والشدة عليهم مع ورع وزهادة واقبال الى الله بالقلب والقالب والتواضع والايثار على النفس وترك التكلف وشدة التقشف والانتصار للدين والحق وقيام فى حق الله وكان دائم الابتهال قوى التوكل ثابت الجأش سليم الصدر جيد التفقه جيد المشاركة فى جميع العلوم العقلية والنقلية مطلعا على التاريخ كثير المحفوظ للشعر والأدب صاحب قريحة فى النظم واضح الصوت موجز الكلام فى أفصاح وبيان تمتاز دروسه بالوجازة والدقة والاقتصار على اللب كثير الأدب مع المحدثين والأئمة المجتهدين لطيفا فى الرد والمناقشة . تلوح على =

وأعلى مراتبه فقد لحقته – لأن وفاته كانت فى الثامن عشر من ربيع الأولى من عام ١٣٣٩ هـ ثم انه نور الله مرقده كان قد أقام عدة سنوات بجزيرة مالطا ولم أتشرف بالحضور لحضرته بديوبند قبل الأسر وبعده الا قليلا ولكن تشرفت بلقاء أحبابه وتلامذته وأكابر ديوبند كثيرا ٠

وأما عصر رأس الاتقياء والأصفياء العارف الكبير الشيخ عبد الرحيم[1] الرائى بورى فقد أدركت منه كثيرا لأن وفاته قدس سره كانت فى الرابع والعشرين من ربيع الثانى عام ١٣٣٨ هـ ٠

= محياه امارات التواضع والهم وتشرق انوار العبادة والمجاهدة فى وقار وهيبة مع بشر وانبساط مع التلاميذ والاخوان وكان قليل الاشتغال بالتأليف بالنسبة الى غزارة علمه وكثرة درسه) ا هـ ٠

(١) هو الامام الجليل والقطب الشهير العارف بالله الشيخ عبد الرحيم ابن اشرف على خان الرائى فورى – بايع على يد الامام الربانى الكنكوهى قدس سره وكان من أجل خلفائه الذين قاموا بعده بنشر السنة السنية وقمع البدع والمنكرات وتوجيه الناس الى ربهم والتمسك بدينه ٠

بسط الشيخ محمد عاشق الهى الميرتهى فى « تذكرة الخليل » بالاردوية فى ترجمته واكملها فى ثلاثين صفحة ذكر فيها « انه قدس سره كانت سيرته انموذجا لسير الأوائل من السلف الصالحين فكان صورة مجسمة لشأن التفويض وغواصا فى بحر التوحيد الالهى غارقا فى التسليم والرضا متفانيا فى التوكل والاعتماد على الله كان عالما متبحرا فى العلوم الشرعية ولكن غلبت عليه الطريقة بحب الخلوة والانزواء عن الخلق والاشتغال بالعبادة والاستئناس بالمحبوب الحقيقى – كان عاشقا للسنة النبوية فى جميع أحواله ويستأنس خصوصا بتعليم القرآن الكريم اذ هو الأصل لجميع العلوم الدينية فكان يحرص كثيرا على افتتاح المدارس القرآنية التى يهتم فيها بتدريس القرآن الكريم وحفظه ويتلألأ وجهه برؤية الصغار الذين يرتلون القرآن بالتجويد والتلفظ الصحيح كانت بجوار زاويته فى البستان ايضا مدرسة للقرآن الكريم ، وبسط الشيخ عن احوال هذه المدرسة واهتمام الشيخ بها وبالوافدين اليها من طلبة العلم – وذكر أنه كان يمتاز بالتواضع والانكسار فى جميع أحواله ذو خلق رفيع مع الجميع ولكن مع هذا كان شديد الكراهية للبدعة والأمور البدعية اذ كان من كبار خلفاء الامام الكبير الكنكوهى قدس روحه كان حريصا جدا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولكن برفق ولين وحكمة ، كان دائم الفكر طويل الصمت ولكن اذا =

وأما ملحق الأصاغر بالأكابر حكيم الأمة ومجـدد الملة التهانوى (١) نور الله مرقده فقد تشرفت بزيارته لمدة طويلة من الزمن لأن وفاته قدس سره كانت ليلة الثامن عشر من رجب ١٣٦٢ هـ .

= احتاج الى الأمر بالمعروف او الدعوة الى الله تكلم فبسط وأجاد ــ وكان لكلامه تأثير غريب تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب ــ وقد استفاد منه خلق كثير جدا من أهل البنجاب وغيرهم عم فيضه ونفع الله به وبخلفائه وأحيى بهم السنن وأمات بهم البدع وتوفى قدس روحه فى الرابع والعشرين من ربيع الثانى عام ١٣٣٨ هـ برای فور من قرى سهارنبور ودفن بها .

(١) قال عنه الشريف الحسنى فى النزهة ج ٨ ص ٥٦ : الشيخ العالم الفقيه اشرف على بن عبد الحق الحنفى التهانوى الواعظ المعروف بالفضل والأثر ولد بتهانة قرية من أعمال مظفر نكر لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ثمانين ومائتين بعد الألف وقرأ المختصرات على مولانا فتح محمد التهانوى والمولوى منفعت على الديوبندى وقرأ أكثر كتب المنطق والحكمة وبعض كتب الفقه والأصول على مولانا محمود حسن الديوبندى المحدث وأكثر كتب الفقه والأصول وبعض الحديث على مولانا محمود ، والفنون الرياضية والمواريث على شيخنا السيد أحمد الدهلوى ، والحديث والتفسير على مولانا يعقوب بن مملوك العلى النانوتوى كلها فى المدرسة العالية بديوبند ثم سافر الى الحجاز فحج وزار وأخذ الطريقة عن الشيخ الكبير امداد الله التهانوى المهاجر الى مكة المكرمة وصحبه زمانا ثم رجع الى الهند ودرس مدة طويلة فى مدرسة جامع العلوم بكانبور مع اشتغاله بالاذكار والأشغال حتى غلبت عليه الحالة فترك التدريس وسافر الى أقطار الهند وراح الى الحجاز مرة ثانية وصحب شيخه مدة ثم عاد الى الهند واقام بموطنه فى آخر صفر سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف فلم يغادره الا نادرا للتداوى أو الاضطرار وصار مرجعا فى التربية والارشاد واصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق يشد اليه الرحال ويقصده الراغبون فى ذلك من اقاصى البلاد وادانيها وانتهت اليه الرئاسة فى تربية المريدين وارشاد الطالبين والاطلاع على غوائل النفوس ومداخل الشيطان ومعالجة الادواء الباطنة والاسقام النفسية وهو ملتزم لمكانه يقصد ولا يقصد ويؤتى ولا يأتى وللاقامة فى زاويته والاستفادة من مجالسه قيود والتزامات يحققها الطالبون لا يلتزم ضيافة القاصدين شأن الزوايا بل يقومون بذلك بأنفسهم ويخص بعض الفضلاء وخاصة الزائرين بالضيافة ومع ذلك يؤمه الطالبون من انحاء بعيدة ويتحملون نفقاتهم ــ وكانت أوقاته مضبوطة منظمة لا يخل بها ولا يستثنى فيها الا فى حالات اضطرارية وكان اذا انصرف =

وقد ذكرت مع اسمه لقب « ملحق الأصاغر بالأكابر » لأنه قد حصلت لسيدى حكيم الأمة نور الله مرقده البيعة والاجازة فى السلوك من سيد الطائفة حضرة الشيخ الحاج امداد الله العمرى مباشرة — لذلك فجميع مريدى ومجازى حكيم الأمة يرتبطون بسيد الطائفة بواسطة واحدة فقط هذا من ناحية الطريقة وأما من ناحية الشريعة فان لحكيم الأمة اجازة فى الحديث الشريف من حضرة مولانا الشيخ فضل الرحمن

= من صلاة الصبح اشتغل بذات نفسه عاكفا على الكتابة والتأليف منفردا عن الناس لا يطمع فيه طامع الى ان يتغدى ويقيل فاذا صلى الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل ويقرأ بعضها للناس ويتحدث اليهم ويؤنسهم بنكته ولطائفه وكان حديثه نزهة للاذهان وفاكهة للجلساء بحيث لا يملون ولا يضيقون ويكتب بعض الحجب والتعويذات فاذا صلى العصر انفرد عن الناس واشتغل بشئون بيته الى أن يصلى العشاء فلا يطمع فيه طامع — وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم وقد بلغ عدد مجالس وعظه التى دونت فى الرسائل وجمعت فى المجاميع الى اربعمائة مجلس .. وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيما فى اصلاح العقيدة والعمل . واستفاد منها الوف من المسلمين ورفض عدد لا يحصيه الا الله العادات والتقاليد الجاهلية والرسوم والبدع التى دخلت فى حياة المسلمين وفى بيوتهم وافراحهم وأحزانهم لسبب الاختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء وقد كان له فضل كبير فى تيسير الطريقة وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد .. وله مصنفات كثيرة ممتعة ما بين صغير وكبير وجزء لطيف ومجلدات ضخمة احصاها بعض أصحابه فبلغت الى نحو ثمانمائة منها نحو اثنى عشر كتابا بالعربية .. وقد كان لكتابه « بهشتى زيور » الذى الفه أصلا لتعليم البنات وضمنه المسائل الفقهية التى تشتد اليها الحاجة رواج وذيوع قلما بلغها كتاب آخر من الكتب الدينية فى هذا العصر وطبع مرارا كثيرة يصعب احصاؤها . وكان مشكلا منور الشبيه أبيض مشرب الحمرة ربعة من الرجال حسن الثياب فى غير اسراف وتجمل ، حلو المنطق ، لطيف العشرة ، فيه دعابة مع مهابة ووقار وسكينة ورزانة كثير المحفوظ ، حسن الاستشهاد بالأبيات ، كثير الانشاد لأشعار المثنوى لمولانا جلال الدين الرومى فى المواعظ والمجالس فى مجالها ، شديد العناية ، كثير الحسبة على أداء الحقوق الى أصحابها واصلاح المعاملات مع الناس ، لا يحتمل فى ذلك تساهلا وتغافلا — توفى الى رحمة الله تعالى لست عشرة خلون من رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة والف وقد بلغ من العمر اثنتين وثمانين سنة ودفن فى « تهانه بهون » اهـ =

الكنج مراد آبادى أيضا والشيخ الكنج مراد آبادى قد درس على سيدنا الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوى اذ ذكر فى رسالة الأرواح الثلاثة « بالاردية » أن الحكيم نعمت الله سأل الشيخ الكنج مراد آبادى نور الله مرقده : هل درس حضرتكم على يدى مولانا الشاه عبد العزيز ؟ فقال : نعم . فطلبت منه أن يسمع منى الحديث ويجيزنى فأتبرك به فسمع منى بعض أحاديث المشكاة وقال : أجيزك وأكد عليه فى العمل . انتهى .

وقد كان هذا العاجز يتمنى كثيرا أن يتشرف بالحصول على الاجازة من حكيم الأمة التهانوى نور الله مرقده لكى أسعد بالسند العالى حتى أنى ذهبت مرة لهذا الغرض بالذات الى قرية تهانة بهون أيضا ولكن فى كل مرة كان يمنعنى الحياء بأنى بأى وجه أطلب منه اجازة الحديث الشريف وأنا ليس لدى من العلم شيء — مع أن كثيرا ممن درسوا على يدى قد تشرفوا بالحصول على هذه الاجازة المباركة منه قدس سره ومن هذه الناحية يعتبر هؤلاء التلامذة النجباء أرفع سندا منى — ثم انى قد

= وقال الشيخ محمد تقى عثمانى فى مقدمته على اعلاء السنن المبسوطة وقد حرر فى ثمانية عشر صفحة فى ترجمته : كان رحمه الله من العلماء العباقرة الأفذاذ والدعاة البررة المخلصين الذين أناروا فى الهند مصابيح التجديد باهرة الشعلة ساطعة النور وأخلصوا حياتهم لاعلاء كلمة الله واحياء علوم الدين .. وكان حكيم الأمة الشيخ التهانوى رحمه الله أكثر الناس تأليفا فى عصره ولا يوجد فى هذا القرن من يجاريه أو يدانيه فى كثرة المؤلفات فانه قد ترك خلفه نحو الف كتاب مطبوع ما بين صغير وكبير ، وليس موضوع دينى يحتاج اليه المسلمون فى هذا العصر الاوله فيه كتاب أو رسالة او موعظة مطبوعة .. ثم بسط الشيخ العثمانى فى تعداد كتبه ومؤلفاته المتنوعة فى علوم التفسير والحديث والفقه والعقائد والتصوف والدعوة والارشاد .

وقال العلامة المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى مقالاته التى تحدث فيها عن تناوب الأقطار فى الاضطلاع بأعباء علوم السنة فبعد أن أشار الى جهود علماء الهند وباكستان ومآثرهم فى خدمة السنة المطهرة فى القرون الأخيرة ما ملخصه « وكذلك عنى بهذا الأمر العلامة الأوحد والحبر الفرد شيخ المشايخ فى البلاد الهندية المحدث الكبير والجهبذ الناقد مولانا حكيم =

ادركت عصر شيخ الاسلام رأس المجاهدين سيدى الشيخ المدنى [(١)]

= الأمة محمد اشرف على التهانوى صاحب المؤلفات البالغ عددها نحو خمسمائة مؤلف ما بين صغير وكبير — بل قد زادت مؤلفاته على ألف عند وفاته — فألف كتاب « جامع الآثار » فى هذا الباب ويغنى عن وصف هذا الكتاب ذكر اسم مؤلفه العظيم .. ثم ذكر العلامة الكوثرى أمر الشيخ لابن اخته المحدث الناقد الشيخ ظفر احمد التهانوى بتكملته بعد استيفاء أدلة ابواب الفقه مع الكلام على كل حديث وقال بعدها : والحق يقال : انى دهشت من هذا الجمع وهذا الاستقصاء ومن هذا الاستيفاء البالغ فى الكلام على كل حديث بما تقضى به الصناعة متنا وسندا من غير أن يبدو عليه آثار التكلف فى تأييد مذهبه ، بل الانصاف رائده عند الكلام على آراء أهل المذاهب .. » أ هـ .

(١) قال عنه الشريف الحسنى فى النزهة جـ ٨ ص ١١٥ : (الشيخ العالم الصالح المحدث حسين احمد بن حبيب الله الحنفى الفيض آبادى ولد فى التاسع عشر من شوال سنة ست وتسعين ومائتين والف بقرية (بانكرمئو) من أعمال (أناؤ) وتلقى مبادىء العلوم فى « تانده » وسافر سنة تسع وثلاثمائة وألف وهو فى الثالثة عشرة من عمره الى المدرسة العربية « بديوبند » ومكث سبع سنين وقرأ فاتحة الفراغ وأخذ الحديث عن العلامة محمود حسن الديوبندى وتفقه عليه ولازمه مدة طويلة وقصد « كنكوه » وبايع الامام العلامة المحدث رشيد أحمد الكنكوهى وهاجر والده الى المدينة المنورة مع عياله سنة ست عشرة وثلاثمائه وألف فرافقه ، ولقى بمكة الشيخ الأجل امداد الله التهانوى المهاجر الى مكة المكرمة وهو شيخ شيخه واستفاد منه واحتظ بصحبته ودخل المدينة وأقام هناك على قدم صدق واخلاص وتوكل وتقشف وطلبه شيخه العلامة رشيد أحمد الى « كنكوه » سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وألف ومكث سنتين وأجازه الشيخ ، ثم رجع الى الحجاز سنة عشرين وثلاثمائة وألف وتصدر للتدريس فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم محتسبا متطوعا ، يدرس فى الحديث والتفسير والفقه يشتغل به من بعد قيام الليل الى ما بعد العشاء ومكث الى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف يزور فى خلالها الهند ويحضر دروس شيخه العلامة محمود حسن ويعود الى المدينة المنورة الى أن سافر شيخه محمود حسن سنة ثلاث وثلاثين للحج والزيارة ودخل المدينة سنة أربع وثلاثين : فلازمه الشيخ حسين احمد وقدم مكة معه وكان ذلك فى أثناء الحرب العالمية وخروج الشريف حسين وبغيه على الدولة المتبوعة العثمانية ومعه المولوى حسين أحمد والمولوى عزيز كل والحكيم نصرة حسين الكوروى وغيرهم من أصحابه ، وأسرهم ولاة الأمر فى الحجاز وأسلموهم الى الحكومة الانجليز فنقلتهم الى « مصر » ثم الى « مالطة » حيث وصلوا سلخ ربيع =

= الآخر سنة خمس وثلاثين ولبثوا فيها ثلاث سنين وشهرين ومات الحكيم نصرة حسين « بمالطة » وجد الشيخ حسين أحمد فى خدمة استاذه وفى العبادة والمطالعة وحفظ القرآن الكريم وصدر الأمر باطلاق سراحهم لثمان بقين من جمادى الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف وعادو الى الهند مكرمين ومرض الشيخ محمود حسن مرضه الأخير فكان بجانبة يخدمه ويسهر عليه وأمره الشيخ بالتوجه الى كلكته يشتغل استاذا فى المدرسة التى اسسها مولانا أبو الكلام وقد سأله أن يرسل احد خاصته فآثر الشيخ حسين أحمد رضا شيخه على هوى نفسه فلم يسافر الا وفوجى بنبأ وفاته فعاد الى « ديوبند » وقد دفن الشيخ وتوجه الى « كلكته » واشتغل مدة فى هذه المدرسة ثم انتقل الى « سلهت » عاصمة ولاية « آسام » ومكث ست سنين يدرس الحديث الشريف ، ويربى النفوس وينفخ فى الناس روح الأنفة والاباء وحب الحرية وانتفع به خلائق لا تحصى وحميت حركة التحرير والثورة السياسية فى الهند فخاض فيها وافتى بحرمة العمل فى الجيش الانجليزى وسجن فى منتصف المحرم سنة أربعين وثلاثمائة والف وحوكم فى « كراتشى » محاكمة مشهورة وحكم عليه بسجن سنتين مع الأشتغال بالأعمال الشاقة وأطلق سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة وألف .

ولما اعتزل الشيخ العلامة أنور شاه الكشميرى شياخة الحديث فى « ديوبند » وانتقل الى « دابهيل » وقع الاختيار على الشيخ حسين أحمد رئيسا للمعلمين وشيخا للحديث فى دار العلوم فانتقل الى ديوبند سنة ست وأربعين وثلاثمائة وألف واستقل بتدريس الحديث ورئاسة المدرسة فحافظت على شهرتها ومركزها وثقة الناس بها وشمر عن ساق الجد والاجتهاد فى تدريس الحديث الشريف وفى بث روح النخوة والاباء فى المسلمين وجمع بين التدريس والعمل فى الحقل السياسى بهمة نادرة وقوة وارادة وجال فى الهند طولا وعرضا يحضر الحفلات ويلقى الخطب والمحاضرات ويتحمل مشاق السفر ويسهر الليالى وهو محافظ على أوقاته وأوراده يجهد نفسه ويحيى ليله فى المطالبة والتدريس مع بشاشة دائمة وتواضع مفرط واكرام للوافدين وقضاء لحق الزائرين والسائلين .. وبسط فى ذكر جهاده وثوراته ضد الانجليز حتى تحررت البلاد ، ثم قال : واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد وعكف على الدرس والافادة والدعوة الى الله وتربية النفوس لا يتصل بالحكومة ورجالها حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية فى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف برتبة فخرية فرفض ذلك قائلا : انه لا ينسجم مع طريقة أسلافه . وبقى فى « ديوبند » يدرس الحديث الشريف ويتجول فى الهند يدعو المسلمين الى التمسك بالدين واتباع الشريعة الغراء واقتفاء السنن النبوية واصلاح الحال والاكثار من ذكر الله وقد عطف الله عليه القلوب والنفوس وغرس حبه فى =

نور الله مرقده وأعلى الله مراتبه كثيرا لأن وفاته كانت فى الثانى عشر من جمادى الأولى عام ١٣٧٧ هـ بديوبند ، وأما محسنى امام التواضع والانكسار سيدى الشيخ مولانا الحاج الشاه [1] عبد القادر الرائى فورى

= اهل الخير فأقبلوا عليه زرافات ووحدانا ، وتقاطر عليه الناس من كل صوب وانهالت عليه الدعوات وهو يتقبلها بقلب طيب ويتحمل فى سبيلها المشاق .. حتى وافاه الأجل فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة والف وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى فى جمع حاشد لا يحصى ودفن بجوار استاذه الشيخ محمود حسن الديوبندى والامام محمد قاسم النانوتوى .

كان الشيخ حسين احمد من نوادر العصر وافراد الرجال صدقا واخلاصا وعلو همة وقوة ارادة وشهامة نفس وصبر على المكاره ومسامحة للأعداء يشفع لهم ويسعى فى قضاء حوائجهم وثبات على المبدأ ورحابة ذرع وسعة صدر ، وجمع للاشتات من الفضائل والمتناقضات من الأعمال له نزاهة لا ترتقى اليها شبهة وهمة لا تعرف الفتور والكسل ، واشتغال دائم لا يتطرق اليه الملل ـ كانت له أوقات مشغولة منظمة ـ وكان فى آخر عمره غلبت عليه الحمية الدينية والغيرة للشرع والسنة النبوية فكان لا يتحمل تفريطا فيها ، وقد تعتريه الحدة فى ذلك ويعلو صوته ، ويشدد الانكار على من خالف السنة او استخف بشعائر الاسلام ، وكان شديد الحب لاساتذته ومشايخه شديد الغيرة فيهم وكان ينتقد شيخ الاسلام ابن تيمية وينكر عليه فيما تفرد به من المسائل والآراء شديد الانتصار للشيخ محيى الدين ابن عربى .. وكان شديد البغض للانجليز كشيخه محمود حسن شديد الحب والبغض فى الله .. الخ ما ذكره مفصلا فى النزهة .

(١) هو الامام الكبير والعارف الشهير الشيخ عبد القادر ابن الحافظ أحمد السركودوى ثم الرائى فورى حفظ القرآن الكريم فى صباه وقرأ الكتب من مبادىء العلوم فى وطنه ثم سافر وارتحل لطلب العلم فأقام لذلك بمدارس شتى منها جامعة مظاهر العلوم بسهارنبور ودرس الفقه والتفسير وبقية العلوم ثم بايع الشيخ الكبير عبد الرحيم الرائى فورى ولازمه أربعة عشر سنة حتى توفاه الله سنة ١٣٣٧ هـ وفى هذه المدة خدم شيخه سفرا وحضرا ليلا ونهارا حتى كان من خلص خدامه وخلفائه وقد ناب منابه بعد وفاته فى زاويته برائى فور ووقف نفسه لاصلاح العباد وتزكية النفوس وكثرت رغبة الناس اليه ولم يزل يزداد اهل ارادته من العلماء والعامة حتى طار صيته واشتهر اسمه فى القرى والامصار وارتحل اليه الصغار والكبار وكان لمجلسه وصحبته تأثير عجيب فلايزال يجالسه شخص مدة يسيرة الا ويجد=

نور الله مرقده فقد عاصرته كثيرا جدا اذا أن وفاته كانت فى الرابع من ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ بلاهور وقد تشرفت بالحضور فى رحابه الكريمة كثيرا ــ وقد أدركت من عصر العم المحترم امام الدعوة والتبليغ سيدى الشيخ مولانا محمد الياس (١) كثيرا كذلك لأن وفاة العم الكريم كانت فى الحادى والعشرين من رجب عام ١٣٦٣ هـ .

= نفسه تواقة لذكرالله ومناجاته ترغب الى الآخرة وتزهد عن الدنيا ــ وكان نور الله مرقده يمتاز بالتواضع وفناء الذات فى ذكر الله ومناجاته ومحبته وورث عن شيخه حبه لنشر القرآن الكريم والترغيب فى تأسيس المدارس لذلك وكان شديد المحبة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشديد الكراهية والانكار على من يبغضهم وبتقسيم البلاد الى الهند وباكستان انقسم مريدوه فاتخذ من رائى فور مركزا وكان يسافر بين الحين والحين الى باكستان باصرار من مريديه ومحبيه حتى توفاه الله تعالى فى أثناء سفرة من هذه فى لاهور بباكستان فى وسط ربيع الأول سنة ١٣٨٢ هـ ودفن فى موطنه دهوديان من أعمال سر كودها .

(١) هو الامام الجليل والداعية الشهير العارف بالله مؤسس جماعة التبليغ المنتشرة فى آفاق العالم كلها ولد قدس سره سنة ١٣٠٣ هـ وسمى بالياس أختر « وهو اسمه التاريخى » ولكنه اشتهر بمحمد الياس ودرس على أخيه الشيخ المحدث الجليل محمد يحيى الكاندهلوى فأخذ عنه التفسير والحديث والفقه وبقية العلوم باتقان تام وامعان كامل وسمع صحيح البخارى وسنن الترمذى من العلامة المجاهد شيخ الهند محمود حسن الديوبندى عدو الانجليز اللدود ومحاربهم وقد بايعه الشيخ محمد الياس على القتال .

وأقام لدى الامام رشيد أحمد الكنكوهى عشرين سنة بعد مبايعته فى السلوك فى صباه يرتشف العلم من أخيه الشيخ محمد يحيى ويعمر باطنه بأنفاس الامام الكنكوهى وتربيته .

وبعد ارتحال الامام الربانى الكنكوهى الى جوار رحمة ربه العلى سنة ١٣٢٣ جدد البيعة على يد أكبر خلفائه العلامة العارف الشيخ خليل أحمد المحدث السهارنبورى ولم يزل يستفيض من نفسه الكريمة وأنفاسه الشريفة حتى اناره الله ظاهرا وباطنا فتزين ظاهره بالشرع المتين وباطنه بالطريق القويم وقد قام بالتدريس فى جامعة مظاهر العلوم سنين عديدة وبعد وفاة أخيه الشيخ مولانا محمد الكاندهلوى انتقل الى كورة حضرت نظام الدين بدلهى ليقوم بأعباء المدرسة التى كان قد أسسها والده مولانا الشيخ محمد اسماعيل ثم رقاها أخوه الشيخ محمد ، ثم القى الله فى روعه أن يقوم =

باصلاح عباد الله ودعوتهم الى الدين وان يبذلوا جهودهم وأموالهم ويتركوا أوطانهم لاصلاح انفسهم ودعوة العباد الى الله فاجتهد لذلك اجتهادا مريرا .

يجول فى الصحارى والبرارى والقرى والمدن راكبا وماشيا بكل اخلاص وفراغ قلب يريد أن يصل الى عامة المسلمين ويحرضهم ويوقظهم من غفلتهم يتملق الى كل واحد منهم حتى وان كان من كان ، يدعوه ليقوم معه لدين الله ويتحمل ايذاء الناس وسخريتهم وغير ذلك من المصائب والآلام التى مازالت تأتى على الصديقين من أولياء الله الصالحين فلا هم له ولا مطلب من أى حركة أو عمل الا ايقاظ الناس من غفلتهم وتحريضهم على التضحية والعمل لدين الله هذا مع كونه نحيف الجثة ضعيف البنية قصير القامة لو رأيته وجدته أن ليس فيه الا عدة عظام فى جلد لا لحم فيه أقر الله عينه فى آخر حياته فشاركه فى عمله هذا تلاميذه واصحابه ومريدوه وخاصة نجله العظيم الفريد فى الخصال الحميدة العلامة الجليل الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى فانتشروا كلهم فى الآفاق وزادت الجماعة ولازالت فى زيادة مستمرة تنشر الخير وتضىء فى الظلمات لخلق الله حتى يرجعوا الى ربهم وكان الشيخ قدس سره أبيض اللون يشعشع نور الولاية من جبينه الأزهر تمتلىء القلوب لرؤيته محبة لجمال باطنه ورعبا لكماله وتقواه من ربه وكان عابدا زاهدا قانتا خاشعا جوادا كريما حليما وقورا صبورا مجتهدا فى الأعمال الصالحة يقوم الليل بمواظبة مجدا فى الدعوة والتبليغ تظهر الهمة العليا ء من هامته وتطفح العزيمة من جبينه شديد الاتباع لهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حريصا عليه فى جميع الأحوال والأحيان قوى الرابطة به وشديد المحبة لأصحابه رضى الله عنهم كثير الحكاية عنهم وقد امر ابن أخيه شيخنا الشيخ محمد زكريا أن يكتب رسالة خاصة فى حكاياتهم رضى الله عنهم ليتداولها المسلمون عامة حتى يتعرفوا عليهم رضى الله عنهم كان كلامه حكمة ومعرفة كلها نور وبرهان وقد جمع الشيخ أبو الحسن الندوى بعضها فى رسالة مستقلة بالأردوية

توفى رحمه الله فى سنة ١٣٦٣ هـ وخلف بعده ابنا هو العلامة الجليل الشيخ محمد يوسف صاحب حياة الصحابة وأمانى الأخبار . وابنة تزوجها العلامة الكبير شيخ المشايخ الشيخ محمد زكريا الكاندلوى وصدقة جارية لا مثيل لها هى جماعة منتشرة فى أنحاء العالم اجمع تعمل ليلا ونهارا لاحياء دين الله على نهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم

اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقال شعراً بالأوردية ترجمته بالعربية :

١ ـ ان أصحاب هذه الأجساد النورانية هم الذين اذا رؤوا ذكر الله وهؤلاء هم ورثة النبوة وهؤلاء هم ظل الرحمن جل شأنه •

٢ ـ هؤلاء الذين لنومهم فضيلة على العبادات وهم الذين يباهى بتقواهم المسلمون •

٣ ـ هؤلاء هم الذين تليق بشأنهم وراثة النبوة ، وهؤلاء هم الذين حملهم الاعتناء بالشعائر الدينية •

٤ ـ يعيشون فى الدنيا ليست لهم بها أية علاقة يمشون فى النهر ولا يمس أبدا الماء ثيابهم •

٥ ـ ان جلسوا فى الخلوة تلذذوا بطعم الخلوة وان جاءوا الى خلوتهم خرص لهم المتكلمون •

وقد وضحت عصور هؤلاء الأكابر كلهم قدس الله أرواحهم لأن ببركة شموس الهداية هؤلاء كانت كل ذرة من منطقة « دوآبة » مركزا لكل من الشريعة والطريقة •

وكان مستحكما فى بال كل شخص ببركتهم أن كلا من الشريعة والطريقة متلازمة للأخرى • وكان كل واحد من هؤلاء الأكابر نور الله مراقدهم مصداقا حقا لقول الشاعر الفارسى :

بركفى جام شريعت بركفى سندان عشق
هر هوسنت كى نداند جام وسندان باختن

لذلك فقد كان راسخا فى القلب منذ الطفولة وجود العلاقة الوثيقة والتلازم الأبدى للشريعة والطريقة لدرجة أنه كان لا يلتفت الى أى شىء بخلاف ذلك • وهذه قاعدة مسلمة : أن الشىء الذى يرسخ فى القلب من الصغر فانه يكون « كالنقش فى الحجر » فان وجود لدوغ الحية وافتراس الأسد يتيقن به كل شخص بحيث أنه يصعب جدا اخراج هذا اليقين من القلب • مع أن أكثر الناس لم يشاهدوا الحية وهى تلدغ ولا الأسد وهو يفترس •

وبعد ذلك فى زمن طلبى للعلم عند دراستى لمشكاة المصابيح • (وهو عامة أول كتاب يدرس فى مادة الحديث الشريف بمدارس الهند وباكستان وبنغلاديش) وفى بدايته قرأت فى حديث جبريل المعروف « وكان لتعليم الأمة أمر دينها » بعد الايمان والاسلام مباشرة قوله « وما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن •• الخ » هذه هى « الطريقة » وهذا هو « التصوف » وهو « السلوك » بعينه •

ومهما سمى هذا « الفن الشريف » فان كل ذلك داخل فيه كما سأذكر ذلك مفصلا فى ذيل (الطريقة) ان شاء الله •

وبعدها كلما درست ودرست فى كتب الحديث الشريف أخذ يزداد

رسوخا وثبوتا فى القلب الربط الوثيق والتلازم اللازم بين الشريعة والطريقة بحيث لو بلغنى عن أحد شىء فى خلاف أحد منهما ظننته جهلا منه أو تجاهلا فان الشريعة المطهرة التى مأخذها : (القرآن الكريم ـ وتفسيره : أفعال النبى الكريم صلى الله عليه وسلم وأقواله ـ ولب لبابه : الفقه) ـ ما بلغنى شىء بخلافه الا ورأيته مما لا يلتفت اليه ولا يعبأ به البتة .

وعندما كان يبلغنى قول بعض الجهلة عن العلوم الدينية أن « ماتفهمه من القرآن الكريم مباشرة بفهمك هو الأصل ولا حاجة فى ذلك الى كتب التفسير وغيرها ، كنت اراه هراء ونوعا من الجنون ـ لأنه لو كان الأخذ من القرآن مباشرة أمرا سهلا ميسورا لما كانت هناك حاجة الى بعثة النبى صلى الله عليه وسلم « وكذلك بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » وانما كان علقت نسخة من المصحف الشريف فى وسط الكعبة المشرفة فأخذ الناس منه . وان من أعظم أسرار بعثة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام أنهم يعرضون للخلق الأوامر الالهية بالصورة العملية .

ومن فضل الله الكريم وله الحمد والشكر سبحانه وتعالى أنه لم يشتبه على فى هذا الشأن قط ـ بل ان كثيرا من المسائل والفروع قد رسخت فى الذهن بناء على ذلك بحيث لم يبق فيها أى اشكال أو غموض .

فان النبى صلى الله عليه وسلم جاءت ذاته الشريفة لعرض الشريعة بالصورة العملية ، لذلك فان كل تلك الأشياء التى لم تكن منافية لشأن النبوة صدرت منه صلى الله عليه وسلم شخصيا : كعدم استيقاظه صلى الله عليه وسلم مع جماعة من الصحابة لصلاة الصبح ليلة التعريس مع أن بعض عبيد عبيد عبيدهم يقول : انه من بعد أخذ البيعة على شيخه تبدأ معه من الساعة الثانية بعد نصف الليل حكحكة فى جسمه بحيث لا يستطيع بسببها النوم بعدها (فلم يفته التهجد من بعد البيعة الى الموت) .

وقد اختلف المحدثون فى أن قصة نومه صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر كانت مرة واحدة فقط أم عدة مرات ؟ وقد بسطت ذلك فى الأوجز [1] وفى رأيى أن ذلك وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات .

وفى القصة شىء يتعلق بالتصوف أيضا — فانه لم تكن عادته الشريفة صلى الله عليه وسلم أن يسأل قبل المنام أنه من يوقظنا ؟ وقد ذكر فى هذه القصة كما فى البخارى « عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال سرنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة فقال بعض القوم لو عرست بنا يا رسول الله قال : أخاف أن تناموا عن الصلاة ، قال بلال : أنا أوقظكم » الحديث وفى القصة مسألتان فى السلوك : أولاهما : قوله صلى الله عليه وسلم : « أخاف أن .. الخ » مع أن عامة العرب كانت تسافر أول الليل ويستريحون آخره . فلم قال فى هذه الليلة بالذات : « أخاف أن .. الخ » — علمنا من ذلك أنه بعض الأحيان تنكشف لقلوب المشايخ بعض الحقائق المتعلقة بالمستقبل أو يظهر لهم شيئا منه .

وثانيهما : قول بلال رضى الله عنه « أنا أوقظكم » فذكر فى الأوجز : قال المشايخ « هذا كان تنبيها لبلال اذ لم يفوض الأمر الى الله اذا أظهر خوف فوت الصلاة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أوقظكم » .

ولكن فيه اشكال : أنه عند أكثر العلماء وقعت القصة عدة مرات وهذا القول من سيدنا بلال رضى الله عنه لم يثبت الا مرة واحدة . والجواب ظاهر : وهو أن هذه المرة حصل بسبب قول بلال — وأما فى المرات الأخرى فبأسباب أخرى .

وكذلك لم تشكل على الأحاديث التى فيها أنه صلى الله عليه وسلم

---

(١) « أوجز المسالك الى موطأ مالك » شرح نفيس لكتاب السنة الأول (موطأ مالك) طبع فى خمس عشرة مجلد كبار يعد موسوعة حديثية كبرى من نوادر المصنفات تظهر منه مكانة شيخنا الرفيعة وباعه الطويل فى هذا الفن الشريف . نشرته المكتبة الامدادية بمكة المكرمة .

حصل له النسيان فى الصلاة لأنه صلى الله عليه وسلم قد قال بنفسه : انى لا أنسى ولكن أنسى لأسن » وقد بسطت على هذا الحديث فى الأوجز فى « باب العمل فى السهو » .

وكذلك ما صدر من المعاصى الكبيرة من بعض الصحابة رضى الله عنهم لم يختلج فى قلبى منها أى شىء أبدا مع أن المشايخ الكبار بعيد جدا أن تصدر منهم أمثال هذه المعاصى ــ هذا وان أكبر شيخ وأعظم ولى لا يمكن أن يبلغ الى درجة أدنى واحد من الصحابة رضى الله عنهم ولكن بفضل الله وكرمه لم تشكل على هذه الروايات أبدا وببركة نعال الأكابر وببركة الأحاديث الشريفة دائما كان فى فكرى أن هذه الأفعال صدرت منهم رضى الله عنهم تكوينيا لتكميل تعليم الدين .

قال الشاعر الفارسى « تومشق نازكر خون دوعالم ميرى كردن بر » أى « تعالى ياحبيبى واقتل العالم كلها واجعلها على رقبتى » فان هذه الأنفاس القدسية والذوات الكريمة قدمت أنفسها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قائلة بلسان حالها : هاكم كملوا شريعتكم المطهرة فاننا مستعدون بأن ترجم أجسادنا وتقطع أيدينا وتجلد أبداننا وتقام علينا حدود الله حتى يكتمل عرض الشريعة الغراء بالصورة العملية .

وعندى أن هؤلاء السادة هم مصداق الآية الكريمة فى القرآن (فأولئك يبدل الله سيئآتهم حسنات) وهؤلاء هم مصداق تلك الأحاديث الشريفة التى ورد فيها أن بعضهم يقال له : اعطوه بدل كل سيئة حسنة .. الخ .

فقد روى عن أبى ذر رضى الله عنه كما فى صحيح مسلم أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة (ولا يكون المراد فى مثل هذا المقام شخصا معينا وانما يكون المراد طبقة ــ كل فرد منها يجازى بمثله كما يدل على ذلك أن الرواية الأخرى فيها لفظ « الناس » يدل لفظ « رجل » وهو صريح فيما ذكرناه) فيقال اعرضوا

عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا كذا وكذا وعملت يوم كذا كذا وكذا — فيقول : نعم — لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له فان لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا — فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه .

وفى رواية أخرى أخرجها ابن كثير عن ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا (أى تمنوا فى نفوسهم) أنهم قد استكثروا من السيئات » وكذا اخرج عن سلمان رضى الله عنه قال « يعطى الرجل يوم القيامة صحيفة فيقرأ أعلاها فاذا سيئاته فاذا كاد يسوء ظنه نظر فى أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر فى أعلاها فاذا هى قد بدلت حسنات » اهـ .

وهنا أمر مهم جدا وهو أن هذا من قبل المنحات الملكية كأن يعفى القاتل من الشنق أحيانا بالمنحة الملكية (فى الدساتير الوضعية) ولكن لا يجرؤ أحد على القتل على أمل أن ينجو من الشنق بالمنحة الملكية .

ولكن بالنسبة للصحابة رضى الله عنهم فانى أوقن بأن جميعهم ان شاء الله داخلون فى هذا — لأن تفصيل قصص معاصيهم الواردة فى الأحاديث يدلك على أنهم يستحقون هذه المنح الملكية .

انظر سيدنا ماعزا رضى الله عنه يصدر منه الزنى فيأتى الى الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول يارسول الله : طهرنى وأقم على كتاب الله والرسول صلى الله عليه وسلم يرده ويعرض عنه ويقول له : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب عليه فيذهب عنه قليلا ثم يضطرب ويرجع ويعيد ما قاله فيعرض عنه صلى الله عليه وسلم كما أعرض فى الأولى ويأمره بالرجوع والاستغفار والتوبة الى الله وهكذا .. أربع مرات .. الرسول صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويأمره بالاستغفار ويعيده ، وهو يرجع فى كل مرة

ويقول له طهرني يارسول الله ــ وبعد المرة الرابعة يأمر برجمه وعلى القواعد الشرعية •

وبعدها يأتى رجلان من الصحابة ويقول أحدهما لصاحبه : انظر الى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب فسكت عنهما (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن ذان يارسول الله ، قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يا نبى الله من يأكل من هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفا أشد من أكل منه ، والذى نفسى بيده انه الآن لفى أنهار الجنة ينقمس فيها ، وفى بعض الروايات كما فى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال عنه : « لقد تاب توبة لو قسمت بين مائة لوسعتهم » •

وهكذا انظر قصة المرأة الغامدية رضى الله عنها ــ تأتى الى الرسول صلى الله عليه وسلم وتقول له يارسول الله طهرنى فيقول لها ويحك ارجعى فاستغفرى الله وتوبى اليه فتقول رضى الله عنها أراك تريد أن ترددنى كما رددت ماعز به مالك ، قال : وماذاك ؟ قالت : انها حبلى من الزنا فقال لها : حتى تضعى ما فى بطنك • فرجعت حينئذ وأتت بعد ولادته فردها صلى الله عليه وسلم حتى ترضعه وتفطمه فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ــ ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم برجمها وحسب القواعد الشرعية ــ وعند الرجم يأتى خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، رواه مسلم وغيره • قال النووى فى شرح مسلم : فيه ان المكس من أقبح المعاصى والذنوب الموبقات وذلك لكثرة مطالبات الناس وظلاماتهم وغير ذلك •

وفى بعض هذه الروايات لمسلم أن سيدنا عمر رضى الله عنه قال للرسول صلى الله عليه وسلم : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ فقال صلى الله

عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ .

وقد وردت فى كتاب الحدود فى كتب الحديث روايات عديدة لهذه القصص . هل فينا أحد مهما عظم مقامه من يضطرب هذا الاضطراب على ارتكاب المعاصى .

يقول سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا أى بيده فذبه عنه . « رواه البخارى ــ كذا فى المشكاة » .

ان الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة يعلم معاصى الجميع وأحوالهم التى يكونون عليها بعد ارتكاب المعاصى ــ وترى أن الله سبحانه وتعالى مع صدور بعض المعاصى منهم يصدر فى شأن الصحابة رضى الله عنهم قرارات فى أماكن شتى من كتابه العزيز بالرضا عنهم منها : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) .

ونقل فى الدر المنثور عن ابن زيد فى تفسير قوله « والذين اتبعوهم باحسان » أنه قال هم : من بقى من أهل الاسلام الى أن تقوم الساعة .

لذلك فان الطعن فى الصحابة رضى الله عنهم أو المشايخ العظام أو اساءة الأدب معهم اذا صدرت منهم معصية ما يسبب الحرمان والعياذ بالله . لأن الله تعالى راض عن هؤلاء وأنت ساخط عليهم .

وقد وردت فى القرآن العزيز آيات عديدة فيها بشارات الرضوان والمغفرة للصحابة رضى الله عنهم ــ وهذه المعاصى يعلمها أيضا علام الغيوب ــ ولكن الله أعلم بأحوالهم سبحانه فبشرهم مع وجود هذه المعاصى ووعدهم بالمغفرة ودخول الجنة والرضوان عليهم ــ فالطعن فى

الصحابة أو اساءة الأدب معهم والحال هذا يعتبر جرأة عظيمة وحماقة مهلكة .

وأشد منه أن يتجرأ أحد بحجة ابتلاء هؤلاء السادة بهذه الهفوات على ارتكاب المعاصى ـ لأن العفو عنهم رضى الله عنهم قد ثبت بالآيات القطعية الصريحة فالوقوع فى المعصية بحجة وقوعهم فيها مهلكة عظيمة وطامة كبرى يقول البارى جل شأنه عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » .

وقد فسر الفسوق : بالمعصية الكبيرة ـ والعصيان بالصغيرة فالصحابة رضى الله عنهم قد عفى عنهم الكبائر والصغائر ان شاء الله فالطعن فيهم لمعاصيهم خطر عظيم والجرأة على المعصية بحجة ابتلائهم بها أخطر وأهلك .

قبيل فتح مكة اطلع حاطب بن بلتعة أهل مكة بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رسالة أرسلها ـ وعثر على هذه الرسالة فغضب عمر رضى الله عنه (وكان له ذلك) فقال ايذن لى يا رسول الله فأضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم انه شهد بدرا وما يدريك لعل الله نظر الى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية الحنبلى الحرانى رحمه الله فى العقيدة الواسطية ص ١٤٢ ما لفظه : (ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به فى قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) وطاعة للنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والاجماع من فضائلهم ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو

صلح الحديبية وقاتل على من أنفق من بعد وقاتل • ويقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بل لقد رضى الله عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة •• ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون ان هذه الآثار المروية فى مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه والصحيح منه هم فيه معذورون اما مجتهدون مصيبون واما مجتهدون مخطئون وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الاثم وصغائره بل يجوز عليهم الذنوب فى الجملة لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم ان صدر حتى أنهم يغفر لهم السيئات مالا يغفر لمن بعدهم لأن لهم من الحسنات التى تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم •• ثم اذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه أو غفر له سابقته أو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم الذى هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء فى الدنيا كفر به عنه — فاذا كان هذا فى الذنوب المحققة فكيف الأمور التى كانوا فيها مجتهدين ان أصابوا فلهم أجران وان أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور — ثم ان القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الايمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح — ومن نظر فى سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينا انهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم • وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التى هى خير الأمم وأكرمها على الله •

وما ذكره شيخ الاسلام حق وعدل — فالآيات القرآنية قد وردت بكثرة فى بيان مناقب وفضائل هؤلاء السادة النجباء وفى بيان المغفرة لهم وتكفير السيئات عنهم رضى الله عنهم اجمعين — يقول عز وجل (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوأوا

الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) •

ويقول أيضا (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب) ومثل هذه الآيات التى فيها ذكر المغفرة لهؤلاء الكرام والتكفير عن سيئآتهم حتما بصيغة التأكيد كثيرة ولكن مع الأسف تجد أن بعض الحمقى يتبجحون فى حقهم وعلى المثل الهندى (المدعى كسلان والشاهد نشيط) ويتقولون عليهم أنهم •• وأنهم ••

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، ومن أحق من الصحابة بولاية الله عز وجل ، ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا (أى للطعن فيهم) من بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، من آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » •

يقول الامام الحافظ أبو عبد الله الذهبى الشافعى رحمه الله تعالى فى كتابه الكبائر « وانما يعرف فضائل الصحابة رضى الله عنهم من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته من المسابقة الى الايمان والمجاهدة للكفار ونشر الدين واظهار شعائر الاسلام واعلاء كلمة الله ورسوله وتعليم فرائضه وسننه ولولاهم ما وصل الينا من الدين أصل ولا فرع ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضا ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئا •

فمن طعن فيهم أو سبهم فقد خرج من الدين ومرق من ملة المسلمين لأن الطعن لا يكون الا عن اعتقاد مساويهم واضمار الحقد فيهم وانكار ما ذكره الله تعالى فى كتابه من ثنائه عليهم ومالرسول الله صلى الله عليه

وسلم من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم ، ولأنهم أرضى الوسائل من المأثور والوسائط من المنقول ، والطعن فى الوسائط طعن فى الأصل ، والازدراء بالناقل ازدراء بالمنقول ، وهذا ظاهر لمن تدبره وسلم من النفاق ومن الزندقة والالحاد فى عقيدته — وحسبك ما جاء فى الأخبار والآثار من ذلك كقول النبى صلى الله عليه وسلم « أن الله اختارنى واختار لى أصحابا فجعل لى منهم وزراء وأنصاراً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال اناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : انا نسب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله اختارنى واختار لى أصحابى وجعل لى أصحابا واخوانا وأصهاراً وسيجىء قوم بعدهم يعيبونهم وينقصونهم فلا تواكلوهم ولا تشاربوهم ولا تناكحوهم ولا تصلوا عليهم ولا تصلوا معهم » انتهى .

وقد ذكر الحافظ الذهبى رحمه الله روايات أخرى أيضا فى كتابه الكبائر ونقل عن العلماء قولهم : من ذم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وتتبع عثراتهم وذكر عيبا وأضافه اليهم كان منافقا .

وهذه الرسالة المختصرة لا يمكن أن تحصى كل الآثار التى وردت فيمن طعن فى الصحابة رضى الله عنهم أو أظهر معايبهم أو نشرها أو انتقصهم .

وكذلك والحمد لله لم يختلج فى قلبى شىء من ناحية الروايات المتعلقة بقصة « فدك » وكم بلغ سمعى من الاشكالات والاعتراضات المتعلقة بها ولكنى كنت دائما أفكر أن بضعة الرسول صلى الله عليه وسلم التى قضت أيامها فى حياة والدها زاهدة قانتة متنزهة عن زخارف الدنيا وشهواتها تتحمل الشدائد بنفسها حتى تأثر جسمها الشريف من حملها قرب الماء هل يعقل ويتصور من مثلها رضى الله عنها أنها تنكب على حطام

الدنيا بعد والدها حتى أنها تترك لأجله مكالمة الخليفة الصديق رضى الله عنه ؟ .. حاشا لله ..

ان هذه المخاصمة بين الزهراء والصديق رضى الله عنهما وكذا بقية مشاجرات الصحابة رضى الله عنهم أجمعين بقى صدرى منشرحا بالنسبة لها جميعا أنها كلها كانت مظهرا للقوة الايمانية الكامنة فى أصحابها .

فالسيدة فاطمة والسادة على والعباس رضى الله عنهم ما كان يقربهم حب الدنيا الزائفة . وكيف يتصور مع أننا نجد أن عبيد عبيدهم تكون قلوبهم خالية منه بل ومبغضة اياها .

وانما هذه المشاجرات كلها كانت ايمانية اعتقادية علمية ـــ فالمسألة هى : أنه هل يورث الأنبياء أم لا ؟

الشيخان : الصديق والفاروق رضى الله عنهما كانا يريان العموم فى قوله « ما تركنا صدقة » ـــ وهؤلاء السادة كانوا يرون فيه الخصوص .
فكانت هذه أبحاثا علمية اجتهادية بحتة ..

أما أن السيدة فاطمة رضى الله عنها لم تكلم الصديق رضى الله عنه كما ورد فى بعض الروايات ـــ قالت الشراح : ان المراد به أى لم تكلمه فى أمر فدك بمعنى أنها حزنت على سؤالها ثم لم تكلمه بعد فى هذا الأمر ـــ وقد أيده الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بعدة روايات .

هذا رأى شراح الحديث المكرمين ـــ أما هذا الفقير فكان فى رأيه دائما أن مطالبتها رضى الله عنها المال « فدك » لم يكن قطعا « وحاشاها » لحب فى المال وانما كانت المطالبة أصلا فقط لتنفيذ الأمر الشرعى فى هذه المسألة ـــ انها كانت ترى شرعا أنها مستحقة لهذا المال اذن فيجب أن ينفذ أمر الشرع المتين ـــ فلذا نرى أنه عندما رفض الصديق رضى الله عنه تنفيذ هذا الحق الشرعى « على رأيها » امتنعت أن تكلمه وغضبت لله تعالى فى ذلك ـــ وهذا عندى القمة فى التصلب فى دين الله عز وجل وهم جميعا رضى الله عنهم أهل ذلك ولذا تجد أن السادة : العباس وعلى رضى

الله عنهما عرضا هذه المسألة على سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته أيضا لأنه كان من الممكن أن يكون رأى عمر واجتهاده موافقا لرأيهما فى هذه المسألة — ولكن حدث أن رأى عمر أيضا كان نفس رأى الصديق رضى الله عنه •

وهكذا مشاجرات الصحابة رضى الله عنهم بعد ذلك — فلم يكن عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضى الله عنهم مناسبا لها لأن عصور الخلفاء الثلاثة تعرضت لأمور أخرى هامة (وليس هذا موضع بيان تفصيلها) وعندما كملت كل هذه الأمور بقى من الخلفاء الراشدين عصر سيدنا على رضى الله عنه حيث كان من الضرورى أن تنحل فيه مشكلة « مخالفة الخليفة » أيضا ولتكميل هذه الناحية بالصورة العملية « تتمة لما ذكرنا » فى عصر الخلفاء الراشدين المهديين أيضا كان لابد أن توجد هذه الأمور فى هذا العصر المبارك — لذا لم يشكل على قط أبدا أن هذه المشاجرات التى حدثت بين الصحابة رضى الله عنهم كانت حبا فى الجاه أو السلطة أو الدنيا والمال أو العصبية القبلية •

بل الحق الذى لا مرية فيه أن هذه المشاجرات والمقاتلات كانت فى الحقيقة علامات باهرة للقوة الايمانية والحمية الدينية الكامنة فى صدورهم رضى الله عنهم أجمعين •

فالشيء الذى رأوه أنه الحق والصواب من الناحية الشرعية لم يبالوا فى التمسك به وحفظه على صورته والثبات عليه حتى وان أدى ذلك الى الحروب الدامية والتضحية بالروح والنفائس العظيمة وكل ذلك فى حب الله واحقاقا للحق •

وأما الأحمق الذى يظن أن هذه الأمور صدرت منهم بسبب الضعف الطبعى أو تعصبا لقبيلته أو حبا فى سلطة نعوذ بالله فانى لم ألتفت اليه ولا يعبأ بمثل هذا القول كل من تعمق نظره فى تراث الحديث الشريف •

وقد بسط هذا العاجز فى رسالته « الاعتدال فى مراتب [1] الرجال » فى موضوع مشاجرات الصحابة هذا .

أنظر وقعة الجمل « وكانت فيها السيدة عائشة رضى الله عنها فى جهة وفى الأخرى سيدنا على كرم الله وجهه » كانت حربا ضروسا استشهد فيها ما يقرب من عشرين ألف شخص . ولكن عندما بدأت المعركة وكانت الحرب على وشك الاشتعال الرهيب تقدم سيدنا على رضى الله عنه على الجمع ونادى على الزبير رضى الله عنه فجاءه وتقدم اليه ، فتعانقا وتباكيا ثم قال على : ما الذى أتى بك لقتالنا ؟ فقال الزبير : دم عثمان . إلى آخر ما تحدثا .. هذا اللقاء العجيب تراه بين ندين وخصمين متواجهين للقتال بالسيوف فى ميدان الحرب ؟.. ثم كانت المعركة . وانتصرت جماعة سيدنا على رضى الله عنه . وقبض على كثير من الجماعة الأخرى فأصر رجال من طائفة على رضى الله عنه على قتل هؤلاء المقبوض عليهم — ولكن سيدنا عليا رضى الله عنه لم يوافق بل قبل منهم البيعة وعفى عنهم .

جعل أموالهم غنيمة ولكن لم يرض بأسرهم — فأصر الناس بأنك ما دمت جعلت أموالهم غنيمة فأسرهم ، ولكنه امتنع ، وعندما أصروا عليه وألحوا فى ذلك . قال لهم : اذن من منكم يأسر أمه عائشة ؟ ويجعلها أمة مملوكة لديه . فقالوا : نستغفر الله — هذا لا يمكن . فقال كرم الله وجهه : وأنا أستغفر الله .

هل نحن أيضا نكرم خصومنا بشىء من مثل هذا — الخصم الذى نقاتله بالسيوف بعيد ولكن هل الخصم الذى نتخاصم معه فى بعض الأمور البسيطة جدا هل نستطيع أن نكرمه بمثل هذا ؟

فى نفس هذه المعركة عند نهايتها عندما جرح وسقط جمل السيدة

---

(١) الرسالة طبعت بالاردوية وتحت الترجمة بالعربية وستظهر عن قريب ان شاء الله .

عائشة الصديقة رضى الله عنها « وهى زعيمة الفريق الآخر فى المعركة » . يضطرب سيدنا على رضى الله عنه ويقول : انظروا هل أصيبت أم المؤمنين ؟ ثم يتقرب من جملها وتقدم اليها وسألها : هل أصابك شىء يا أماه سامحك الله ؟ فتقول له رضى الله عنها : وأنت غفر الله لك .

هكذا كانت معاملة الخصوم عندهم ـ وهكذا كان اكرام المتقاتلين لبعضهم ونحن اذا تيسر لنا التمكن من أحد خصومنا فما يكون حالنا ؟ هل تجد منا نفسه أو أمواله أو أعراضه أو أى شىء آخر ينتسب اليه آية رحمة أو شفقة ؟

وقعة صفين الشهيرة التى وقعت بين سيدنا على وسيدنا معاوية رضى الله عنهما ـ ذكر عدة من المؤرخين أنه كان الفريقان يتقاتلان فى النهار ـ وبالليل يشترك أهل الفريقين فى تجهيز وتكفين الموتى من الفريقين . وكان اذا احتاج شخص من أحد الفريقين الى تبيين بعض الأحكام والمسائل أرسل رسولا الى بعض من فى الفريق الآخر فيستفهم منه المسألة ـ فلم يؤثر الخلاف على اعتمادهم الدينى على الآخر ـ فى أثناء هذه الوقائع أراد قيصر الروم أن يهجم على المسلمين فكتب سيدنا معاوية رضى الله عنه اليه فى رسالة بأنك ان فعلت ذلك فانى سأتصالح مع صاحبى ثم سأكون فى مقدمة جيشه الذى سيخرج لقتالك وتترك القسطنطينية كالفحمة سوداء .

وتفصيل هذه القصة أن قيصر الروم أرسل رسالة الى سيدنا معاوية رضى الله عنه يذكر له فيها أن عليا (كرم الله وجهه) قد نكد عليه فان ترى أرسل لمددك جيشا لقتال على ـ فانظروا بماذا رد عليه معاوية كتب له : أيها الكلب النصرانى أتريد أن تستغل الخلاف بينى وبين على ـ والله لو تقدمت نحو على لقتاله لتجدن معاوية أول المقاتلين فى جيشه » أو كما قال ـ هكذا كانوا رضى الله عنهم لأن أمورهم كلها كانت لله جل شأنه ونقل أيضا عن سيدنا معاوية كما فى البداية والنهاية جـ ٨ ص ١٢٩ أنه رضى الله عنه قال : والله انى لأعلم أنه (أى على كرم الله وجهه) خير منى وأفضل وأحق بالأمر منى ـ ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما

وأنا ابن عمه وأنا أطلب بدمه وأمره الى فقولوا له (أى لعلى رضى الله عنه) فليسلم الى قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره .. » انتهى

وقد حدثت قضية فى عهد معاوية رضى الله عنه فى ولايته أن رجلا رأى أحدا يزنى بامرأته فلم يستطع الصبر وقتله ـ وجاءت القضية الى سيدنا معاوية فلم يستطع الفصل فيها وأشكلت عليه اذ القاتل جزاؤه القصاص ولا شك ـ ولكن هذه الحال التى حصل فيها القتل يصعب غض النظر عنها ـ فكتب معاوية الى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما أن يتحقق فى هذه المسألة من على رضى الله عنه .. الخ .

هل نحن أيضا نعترف بالجهل والتقصير أمام مخالفينا وخصومنا السياسيين أو غيرهم هل نرجع اليهم فى تحقيق مسألة ليست من المسائل المتنازع فيها ؟

اننا مع الأسف نرى أن خصمنا قوله لا يعتبر به ورأيه لا يعتمد عليه وهو شخصيا لا يستحق أبدا أن يرجع اليه أحد أو يستفتيه فى شىء ما .

ولسيدنا معاوية رضى الله عنه قصص كثيرة وشهيرة ذكر بعضها عزيزى الكريم الشيخ محمد يوسف نور الله مرقده فى « حياة الصحابة » منها ما أخرج أبو نعيم عن أبى صالح قال دخل ضرار بن ضمرة الكنانى على معاوية رضى الله عنه فقال له صف لى عليا ، فقال : أو تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك ، قال : أما اذ لابد فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، ينفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يدنينا اذا أتيناه ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ يسيل

فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : يا ربنا — يا ربنا — يتضرع اليه ، ثم يقول للدنيا : الى تغررت ؟ الى تشوفت ؟ هيهات هيهات غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا ، فعمرك قصير ومجلسك حقير وخطرك يسير — آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق . فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه — وقد اختنق القوم بالبكاء — فقال : كذا كان أبو الحسن رحمه الله — كيف وجدك عليه يا ضرار ؟ قال : وجد من ذبح واحدها فى حجرها لا ترقأ دمعتها ولا يسكن حزنها ، ثم قام فخرج اهـ .

وبما أن الاحسان الذى ذكرناه بأعلاه كان جزءا لا يتجزأ من الدين . فكان لابد وأن يتكمل بيانه أيضا فى هذا العصر المبارك « عصر الخلفاء الراشدين » وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا دار الحكمة وعلى بابها » فان أكثر سلاسل وطرق التصوف والسلوك والحكمة جاءت بواسطة سيدنا على كرم الله وجهه .

ان هؤلاء الذين يظنون أن التصوف كله مأخوذ عن الرهبان وأشباههم هم فى الحقيقة جهلة تماما عن الدين الحنيف وتعاليمه الشاملة الكاملة . فان بداية التصوف وأصوله وقواعده انما هو منه صلى الله عليه وسلم ومن عهده الكريم وأما تسلسله بصورة خاصة ومميزة بدأ من عصر سيدنا على رضى الله عنه كما سنذكره فى محله ان شاء الله . وهذا الموضوع يحتاج الى بسط وتوضيح — وليت صحتى ساعدتنى لكتبت عنه بوضوح وتفصيل .

ولا يفهم مما ذكرت أن هذا المقصر لم يشكل عليه أى شىء فى أى حديث وفى أى مقام أبدا — لا . انما الذى حصل هو أنه عندما كان يشكل على شىء فى الحديث ولا أستطيع فهمه أو حل غامضه حملت ذلك بيقين على قصور فهمى وقلة علمى .

لقد ذكرت قصة ابنتى الصغيرة فى رسالة « آب بيتى » بالاردوية — أنها عندما كانت تدرس فى بداية أمرها القاعدة البغدادية — ودرست فى

احدى الجداول بها : ألف فتحة آ ونون فتحة ن = آن ، وباء ألف فتحة با ونون فتحة ن = بان ، وهكذا تان ثان جان ، وفى آخر الجدول عندما أقرأتها والدتها همزة ألف فتحة آ نون فتحة ن = آن ، ثارت الطفلة واعترضت لم هذا ؟ كيف نقول « آن » ولا نقول « همزان » ـ لأنه حسب القاعدة المستمرة من أول حرف الى هنا يجب أن يكون : همزة ألف فتحة همزا ونون فتحة ن = همزان ، فقالت لها والدتها : اذا جاء أبوك فاسأليها ، وهكذا أفلتت الأم نفسها منها ـ وبعد مجيئى عجزت أنا أيضا عن افهامها .

فقلت لها : « ان عقلك الآن صغير وعندما تكبرين فستفهمين بنفسك ان شاء الله » فهكذا ان ورد لى أى اشكال فى حديث ما أو حال أتذكر جوابى لبنيتى الصغيرة هذه « بأن عقلك الآن صغير » .

العمـــل بالقرآن

ان هـذا الفقير قد ذكر فى رسالته « الاعتـدال فى مراتب الرجال » و « فضائل القرآن » موضوعا مهما وهو أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « من أراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه علم الأولين والآخرين » .

ولكن التمعن فى القـرآن واستنباط الأحكام والعلوم منه له شروطه وآدابه يجب التقيد والاهتمام بها ـ وليس كحال زماننا أن كل من تعلم عدة كلمات من العربية وأتقن كتابة موضوع أو مقالة وأكثر مـن هـذا بعضهم لا يعرف اللغة العربية حتى وانما يتفهم القرآن بواسـطة التراجم فى لغته تجده يدخل رأيه فى شرح معانى القرآن الكريم واستنباط الأحكام والعلوم منه مع أن الرسـول صلى الله عليه وسلم حذر عن ذلك أشـد تحذير وقال : من قال فى القرآن برأيه فقـد أخطأ وان أصاب » ولكن مدعى التقدم اليـوم يأتون لكل آية من القـرآن الكريم بمعنى جديد ضاربين أقوال السلف الصالحين بالحـائط ـ فى عصرنا هـذا يريد كل شخص أن يصبح جامعا للفضائل والكمالات بحيث أنه لو اسـتطاع أن يحرر عدة عبارات باللغة العربية بل ولو استطاع أن يسـطر مقالة بلغته الأردوية أو غيرها فى المجلات والجرائد تجده كأنه فى التصـوف أصبح أستاذا للجنيد وفى الفقه صار مجتهـدا مستقلا ويأتي فى تفسـير القرآن ما شاء من آراء غريبة وشاذة لا يبالى هل قال به أحد من السلف الصـالح أم لا ؟ أو أن رأيه هذا هل يخالف شيئا من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ انه متنور ومفكر عظيم له الحق أن يقول ما يريد ويتبجح فى شرح القرآن بما شاء ويتقول على الله بما يشتهى فمن ذا الذى يرد عليه ومن ينكر على ضلالاته ومن يتجرأ على بيان هفواته وسقطاته وسفاهاته .. من ؟ وان تجرأ أحد بتوفيق الله وقال يا ناس ان هذا يعارض ما جاءنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ويخالف ما بلغنا عن سلفنا الصالح الخ . تجدهم

يحكسون عليه أنه ضيق الفكر ، ليس بمحقق ، رجعى ، لا يفهم من الدين الا القشور قاصر عن التحقيقات البديعة ــ ولا يقدر الظروف وتقدم الزمان .. الخ .

وأما من يتجرأ على دين الله فيمسخه ويهذى بأن ما قاله السلف الصالحون الى يومنا هذا كله خطأ ويأتى فى الدين بكل جديد وحديث فانه المحقق والمفكر الاسلامى وهو فيلسوف الاسلام و ... و ..

مع أن العلماء أهل هذا الفن اشترطوا للتفسير الاتقان لخمس عشرة من العلوم سأذكرها باختصار حتى يعلم أنه لا يمكن الوصول الى بطن القرآن الكريم والاستنباط منه لكل من هب ودب ــ وهذه العلوم :

أولها : « اللغة » حيث يفهم بها مفردات القرآن ــ يقول مجاهد رحمه الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقول فى القرآن بدون أن يعلم كلام العرب » ولا يكفى أن يعلم بعض اللغات فقط لأنه أحيانا تكون للفظ معانى كثيرة فاذا كان المرء لا يعلم منها الا معنى أو معنيين فقط ويكون المعنى المراد سواهما فحينئذ الطامة .

ثانيا : يجب أن يكون عالما بالنحو لأنه بتغيير الاعراب تتغير المعانى ومعرفة الاعراب موقوفة على علم النحو وقد بلغنا أن أحدهم فسر قوله تعالى « وكفى الله المؤمنين القتال » بأن « يكفى الله تعالى من المؤمنين عمل واحد فقط وهو القتال » .

ثالثا : يجب أن يكون عالما بالصرف لأنه باختلاف الصيغ وبناءات الأفعال تختلف المعانى يقول ابن فارس : من فاته علم الصرف فقد فاته شيء كثير .

وقد ذكر العلامة الزمخشرى المعتزلى فى عجائب التفسير أنه فسر أحدهم قوله تعالى « يوم ندعوا كل أناس بامامهم » لعدم معرفته بعلم الصرف ــ أن المراد هو : « يوم ندعو الناس كلهم بأمهاتهم » فظن أن لفظ « امام » جمع « الأم » مع أنه لا يأتى جمع الأم « امام » .

رابعا : يجب أن يكون عالما بالاشتقاق ، لأن اللفظ حينما يكون مشتقا من مادتين مختلفتين يكون معناهما مختلفين ، مثل كلمة « مسيح » فان اشتقاقها يكون من « المسح » أيضا وهو لمس الشيء ومسح اليد المبلولة على الشيء ــ وأيضا من « المساحة » فيكون معناه مسح الأرض •

وخامسا : يجب أن يكون عالما بعلم المعانى •

سادسا : يجب أن يكون عالما بعلم البيــان فبــه يعرف ظهور الكلام وخفائه وتشبيهه وكنايته •

سابعا : علم البديع فبه يعلم امتياز الكلام من حيث التعبير ، وهــذه الثلاثة الأخيرة يقال لها البلاغة وهى من العلوم المهمة فى حق المفسر للقرآن الكريم اذ بها يعرف اعجاز القرآن الذى هو كله معجز •

ثامنا : يجب أن يكون عالما بعلم القراءات • اذ يعلم بالقراءات المختلفة المعانى المختلفة ويعلم ترجيح بعض المعانى على غيرها •

تاسعا : يجب أن يكون عالما بعلم العقائد أيضــا اذ توجد فى القرآن الكريم بعض الآيات لا يجوز اطلاق معناها الظاهر على البارى عز اسمه فيحتاج فيها الى التأويل حسب العقيدة الصحيحة كقوله تعــالى « يد الله فوق أيديهم » •

عاشرا : يجب أن يكون عالما بأصــول الفقه أيضا فبــه يعلم وجوه الاستدلال والاستنباط •

حادى عشر : ويجب أن يكون عالما بأسباب النزول أيضا اذ به يتضح معنى الآيات ، وأحيانا لا يمكن فهم المعنى الحقيقى للآية الا بمعرفة سبب نزولها •

ثانى عشر : يجب أن يكون عالما بناسخ القرآن ومنسوخه حتى تتميز الأحكام المنسوخة عن المعمول بها •

ثالث عشر : يجب أن يكون عالما بعلم الفقه اذ باحاطة الجزئيات تعرف الكليات .

رابع عشر : يجب أن يكون عالما بالأحاديث التى وردت كتفسير للآيات القرآنية المجملة .

وبعد هذه كلها الخامس عشر : هو ذاك العلم الوهبى الذى هو عطية ربانية كريمة يكرم الله بها خواص عباده واليه أشار الحديث الشريف « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وقد ذكر الأصوليون أنه للعمل على الشريعة الغراء يجب تعلم أصولها وهى : القرآن والحديث والاجماع والرابع القياس وهو مستنبط من الأصول الثلاثة الأولى .

ثم للعمل على القرآن الكريم يجب تعلم أربعة أمور : —

أولها : النظم القرآنى من حيث الصيغة واللغة وهى أربعة أقسام : — الخاص والعام والمشترك والمؤول .

ثانيا : وجوه البيان . وهى أربعة : الظاهر والنص والمفسر والمحكم ومقابلها أربعة أيضا وهى : الخفى والمشكل والمجمل والمتشابه .

ثالثا : أن يعلم استعمال نظم القرآن — وهى أربعة أيضا : الحقيقة والمجاز والصريح والكناية .

رابعا : أن يطلع على طرق معرفة مراد القرآن — وهى أربعة أيضا : عبارة النص واشارة النص ودلالة النص واقتضاء النص .

وبعد هذا كله هناك أمر مستقل يشتمل الجميع وفيه أربعة أمور أيضا : —

١ — أن يعلم مآخذ الاشتقاق .

٢ — أن يعلم المفاهيم الاصطلاحية .

٣ ـ أن يعلم ترتيبها •

٤ ـ أن يعلم الأحكام المرتبة عليها •

فيجب أن يعلم من الأمر مثلا أين هو للوجوب وأين للجواز وأين للاستحباب وأين للتكرار فقط ، وفى القرآن الكريم يأتى لفظ الأداء أحيانا بمعنى القضاء وأحيانا يأتى لفظ القضاء بمعنى الأداء ، والأمر أحيانا يكون مطلقا وأحيانا يكون مقيدا ـ والأمر المقيد له أربعة أقسام ••• الخ هذه الأمور مذكورة مفصلة منقحة فى كتب أصول الفقه نقلناها هنا مختصرا من « نور الأنوار » •

وورد فى سنن أبى داود عن سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : « ان من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق والرجل والمرأة والكبير والصغير والعبد والحر فيوشك قائل أن يقول ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ما هم بمتبعى حتى ابتدع لهم غيره فاياكم وما ابتدع فان ما ابتدع ضلالة » •

ان أولئك الذين يفتخرون أنهم نشروا القرآن ومعانيه فى العالم بالنظر الى هذه الرواية فى خطر شديد ـ ان ترجمة القرآن الكريم لفهم معناه والاتعاظ بالمواعظ منه والتذكر لاشك فى أنه كله خير وبركة •

ولكن استنباط الأحكام منه بدون الحصول على علوم القرآن لايجوز قطعا الا بعد الحصول على هذه العلوم المذكورة بأعلاه •

ذكر الحافظ السيوطى فى الدر المنثور عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء » أن المراد به معرفة القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه •

الحـــــديث

لقد صرح الأصوليون أنه يجب لفهم الحديث والعمل به أن يكون المرأ عالما بجميع تلك العلوم التي ذكر وجوب تعلمها فيما سبق مفصلا للعمـل بالقرآن ــ وعلاوة عليها بما أن القرآن الكريم قطعي ــ والأحاديث فيها أمور قطعية مثل الصلوات الخمس وركعات الصلوات وغير ذلك وفيهـا أيضا ما هو ظني ــ هذه يجب للعمل عليها تعلم عدة أمور ــ ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في نخبة الفكر وشرحه نزهة النظر « وهي رسالة في أصول الحديث » بذيل أقسام الحديث « فالخبر اما أن يكون له طرق بلا عدد معين أو مع حصر بما فوق الاثنين أو بهما أو بواحد فالأول المتواتر المفيد للعلم اليقيني بشروطه والثاني المشهور وهو المستفيض على رأي والثالث : العزيز ــ وهو أن لا يرويه أقل من اثنين عن اثنين ــ والرابع : الغريب ، وهو ما ينفرد بروايته شخص واحد ، وكلها سوى الأول آحاد ــ وفيها المقبول والمردود لتوقف الاستدلال بها على البحث عن أحوال رواتها دون الأول ، ثم الغرابة اما أن تكون في أصل السند أو لا ، فالأول الفرد المطلق والثاني الفرد النسبي ، وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط متصل السند غير معلل ولا شاذ هو الصحيح لذاته ، والمعلل : ما فيه علة خفية قادحة ، والشاذ : ما يخالف فيه الراوي من هو أرجح منه ، وتتفاوت رتبه أي الخبر بتفاوت هذه الأوصاف ، ثم الصـحيح اما أن يكون صـحيحا لذاته ــ أو صحيحا لغيره ان وجد فيه قصورا ووجد ما يجبر ذلك القصور، فان خف الضبط فالحسن لذاته وبكثرة طرقه يصحح فان جمعا فللتردد في الناقل حيث التفرد والا فباعتبار اسنادين ــ وزيادة راويهما مقبولة مالم تقع منافية لمن هو أوثق ، فان خولف بأرجح فالراجح المحفوظ ومقابله الشاذ ومع الضعف فالراجح المعروف ومقابله المنكر ، والفرد النسـبي ان وافقه غيره فهو المتابع وان وجد متن يشبهه فهو الشاهد وتتبع الطرق لذلك هو الاعتبار » اهـ . والمقصود أقسام الحديث هذه يجب العـلم

بها حتى يعرف درجة الحديث ثم قال الحافظ « ثم المقبول ان سلم من المعارضة فهو المحكم وان عورض بمثله فان أمكن الجمع فمختلف الحديث أولا وثبت المتأخر فهو الناسخ والآخر المنسوخ » ا هـ ثم ذكر بالتفصيل الأمور التى يعرف فيها النسخ وأن أصرحها ما ورد فى النص ومنها ما يعرف بالتاريخ وهكذا ، ثم قال : والا فالترجيح » ا هـ .

وقد ذكر الحازمى فى كتاب الاعتبار أن وجوه الترجيح : خمسون وقال العلامة السيوطى فى تدريب الراوى : ان بعض العلماء جعلها مائة فان الحافظ العراقى ذكر فى كتابه « النكت » مائة وجه .

والعلامة السيوطى عددها فى تدريب الراوى الى مائة ، ثم قال : وهى أكثر من ذلك .

وسيأتى كلام شيخ الاسلام ابن تيمية مفصلا ــ الذى ذكر فيه عشرة أسبابا لترك العمل بالحديث وعدم الاحتجاج به وقال بعدها :

فهذه الأسباب العشرة ظاهرة ، وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما فى بواطن العلماء .

والعالم قد يبدى حجته ، وقد لا يبديها ، واذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا ، واذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه ا هـ .

وسيأتى كلامه مفصلا بكامله ان شاء الله .

ثم يذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أنه فى حالة عدم وجود أى وجه من وجوه الترجيح : التوقف عن العمل بأخذ الحديثين ــ ثم المردود اما أن يكون لسقط أو طعن ، والسقط اما أن يكون من مبادىء السند من مصنف أو من آخره بعد التابعى أو غير ذلك ــ فالأول : المعلق ، والثانى : المرسل ، والثالث : ان كان باثنين فصاعدا مع التوالى فهو المعضل والا فالمنقطع ثم قد يكون واضحا أو خفيا فالأول : يدرك بعدم التلاقى : ومن

ثم احتيج الى التاريخ ، والثانى : المدلس .. ثم الطعن : ويكون بعشرة أشياء بعضها أشد فى القدح من بعض .. الخ ما ذكره .

وللعمل بالأحاديث يجب الحصول على أصول الحديث باهتمام وما ذكرته من كلام الحافظ انما هو أنموذج بسيط لبعض الأنواع ـ وقد ذكر الحافظ رحمه الله بعدها أبحاثا فى الحديث المقلوب والمضطرب والمصحف والمحرف والمرفوع والمقطوع والمسند والعلو المطلق والعلو النسبى والموافقة ثم فيه بدل المساواة والمصافحة والنزول والاقران والمديح ورواية الاكابر عن الأصاغر والسابق واللاحق والمسلسل والمتفق والمفرق والمؤتلف والمختلف والمتشابه وغيرها من الابحاث التى يجب تعلمها على طالب علم الحديث الشريف .

ولا يكفى أن يطالع كتابا أو كتابين من كتب الحديث أو يقرأ عدة مقالات فى الحديث أو أصوله أو تاريخ تدوينه ثم يظن بذلك أنه أصبح محدثا فيستنبط من الأحاديث الشريفة ما شاء من الأحكام وما راق له من المسائل والعلوم ـ وقد ذكر الحافظ فى رسالته هذه أنه لا يمكن احصاء جميع الأبحاث فيها ويجب الرجوع للتفصيل الى المطولات ـ فلا يكفى مطالعة كتيبات عن الحديث أو منشورات ورسائل مبسطة عن أصوله حتى يصبح محدثا فان الأمر صعب وعظيم وليس بالسهل الميسور ـ كما انه لا يمكن لمن طالع القرآن المترجم أو التفسير الميسر وتعلم شيئا من اللغة وقرأ عدة كتيبات ومقالات مختصرة مجملة عن التفسير وعلومه أن يدعى أنه أصبح مفسرا للقرآن بل يجب أن يكون قد تحصل على العلوم التى ذكرناها سابقا بالتفصيل ويخشى على من مارس هذا الفن الشريف بدون الحصول على العلوم اللازمة أن يقع فى أخطاء مهلكة خطيرة .

وقد ذكر عن رجل من مدعى العمل بالحديث أنه كان دائما اذا بال واستجمر قام فصلى الوتر فسأله بعضهم عن سبب ذلك فقال لقد ورد فى الحديث : من استجمر فليوتر ، مع أن المراد أن من استجمر فليجعل عدد

الحجارة المستجمر بها وترا ــ ففهم هذا أن المراد من الوتر هو « صلاة الوتر » •

وكذلك كان بعضهم يمنع جاره من أن يسقى مزرعته من بئره ويمنعه عن ذلك بشدة ويحتج بقوله صلى الله عليه وسلم « ولا يسقى أحدكم ماءه زرع غيره » ففهم من الحديث هذا المعنى •

مع أن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم هذا أنه لو كانت امرأة مثلا أمة مملوكة حاملا من شخص فتملكها آخر فعلى هذا الأخير أن لا يجامعها • فالمراد بالماء هنا : المنى ــ ويعنى بالزرع فرجها •

وغيرها أمثلة كثيرة ذكر بعضها ابن الجوزي فى كتابه تلبيس ابليس وفى سنن أبى داود أن شخصا قال لعمران بن الحصين رضى الله عنه : يا أبا نجيد انكم لتحدثوننا بأحاديث ما نجد لها أصلا فى القرآن فغضب عمران ، وقال للرجل : أوجدتم فى كل أربعين درهما درهما ومن كل كذا وكذا شاة شاة ومن كذا وكذا بعيرا كذا وكذا وجدتم هذا فى القرآن ؟ قال : لا • قال : فعمن أخذتم هذا أخذتموه عنا وأخذناه عن نبى الله صلى الله عليه وسلم وذكر أشياء نحو هذا •

فعلمنا من هذا أنه لابد من الحصول على علم الحديث للعمل بالقرآن وللحديث لابد من تعلم الأمور المذكورة بالتفصيل فيما سبق وفى خاتمة هذا الموضوع أحب أن أورد رباعيات الامام محمد بن اسماعيل البخارى المعروفة التى بينها للمحدث وقد ذكرتها فى مقدمة الاوجز ومنها سأنقل هنا أيضا ان شاء الله •

فان المحدثين وضعوا قواعد شديدة للتوغل فى علم الحديث ولحصول البصيرة فى هذا الفن المبارك والكتابة والكلام فيه ، كما وضعوا قواعد وشروطا لطالب الحديث أيضا وذكروا للمحدث والمعلم شروطا وحدوداً أشد

وأصعب منها ــ أرى أن الموضوع يطول وبدون قصد منى الا أنى أذكر هنا هذه الحكاية العجيبة للامام البخارى رحمه الله للضرورة الوقتية

حيث سيظهر منها أن السلف رحمهم الله تعالى كم كانوا يشـددون على طالب هذا العلم الشريف « الحديث » وكيف كانوا يوجبون عليه المجاهدة والتضحية فاذا كان هذا حال طالب العلم فما بالك بالمحدثين والمشيخة فقد ذكر جمع من المشايخ بأسانيدهم عن أبى المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخارى يقول : لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن زيـد الهمدانى عن قضاء الرى ، ورد بخارى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة لتجديد مودة كانت بينه وبين أبى الفضل البلعمى ، فنزل فى جوارنا ، فحملنى معلمى أبو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الختلى اليه فقال له : أسألك أن تحـدث هذا الصبى عن مشايخك ، فقال : مالى سماع ، قال : فكيف وأنت فقيه : فما هذا ؟ قال : لأنى لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسى الى معرفة الحديث ورواية الأخبار وسماعها ، فقصدت محمد بن اسماعيل البخارى ببخارى صاحب التاريخ والمنظور اليه فى علم الحديث ، وأعلمته مرادى وسألته الاقبال على ذلك ، فقال لى : يابنى لا تدخل فى أمر الا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره ، فقلت : عرفنى رحمك الله حدود ما قصدتك له ، ومقادير ما سألتك عنه ، فقال لى : اعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا فى حديثه الا بعد أن يكتب أربعا مع أربع ، كأربع مع أربع ، مثل أربع فى أربع ، عند أربع بأربع ، على أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم الا بأربع مع أربع فاذا تمت له كلها هان عليه أربع ، وابتلى بأربع ، فاذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى فى الدنيـا بأربع واثابه فى الآخـرة بأربع قلت له : فسر لى ــ رحمك الله ــ ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات عن قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف طلبا للأجر الوافى .

فقال : نعم ، الأربعة التى يحتاج الى كتبها هى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه ، والصحابة رضى الله عنهم ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتهم وأزمنتهم ، كالتحميد مع الخطب والدعاء مع التوسل والبسملة مع السورة والتكبير مع الصلوات ، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات ، فى صغره وفى ادراكه وفى شبابه وفى كهولته ، عند فراغه وعند شـغله وعند فقره وعند غناه ، بالجبال والبحار والبلدان والبرارى ، على الأحجار

والأخزاف والجلود والأكتاف الى الوقت الذى يمكنه نقله الى الأراق ، عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره ، لوجه الله تعالى طالبا لمرضاته والعمل بما وافق كتاب الله عز وجل منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتأليف فى احياء ذكره بعده .

ثم لا تتم له هذه الأشياء الا بأربع هى من كسب العبد ، أعنى معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو ، مع أربع هى اعطاء الله تعالى ، أعنى . القدرة والصحة والحرص والحفظ ، فاذا تمت له هذه الأشياء كلها هان عليه أربع : الأهل والمال والولد والوطن ، وابتلى بأربع : بشماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء .

فاذا صبر على هذه المحن أكرمه الله عز وجل فى الدنيا بأربع : بعز القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الأبد ، وأثابه فى الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من اخوانه وبظل العرش يوم لا ظل الا ظله ويسقى من أراد من حوض نبيه صلى الله عليه وسلم بمجاورة النبيين فى أعلى عليين فى الجنة فقد أعلمتك يابنى مجملا لجميع ماسمعت من مشايخى متفرقا فى هذا الباب فاقبل الآن الى ما قصدت اليه أودع» ا هـ .

الفقـــه

وتعريف الفقه الذى ذكره الفقهاء الكرام عامة هو :

« العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المكتسب من أدلتها التفصيلية »
وقد روى عن الامام أبى حنيفة رحمه الله فى تعريف الفقه بأنه :

« معرفة النفس مالها وما عليها » .

ولكن تعريف الامام هذا شامل للعقائد والأخلاق والأعمال الظاهرة كلها . ولكن المتأخرين أطلقوا على متعلقات الاعتقـاديات اسـم « علم الكلام أو التوحيد ، وعلى متعلقات الأخلاقيـات اسم علم الأخلاق » أو « التصوف » ، وجعلوا الفقه خاصا بمتعلقات الأعمال الظاهرة .

وقد نقل مولانا الشيخ اعزاز على رحمه الله فى مقدمته على « كنـز الدقائق » عن الحاوى القدسى أنه قال : اعلم أن معنى الفقـه فى اللغـة الوقوف والاطلاع ، وفى الشريعة : الوقوف الخاص ، وهو الوقوف على معنى النصوص واشاراتها ودلالاتها ومضمراتها ومقتضياتها ا هـ . وقال فى موضع آخر : الفقه قوة لتصحيح المنقول وترجيح المعقول ، وأما مأخذ الفقه : فالكتاب والسنة والاجماع والقياس « كما نقلنا فى البداية عن نور الأنوار » .

لذلك يجب للفقه أيضا تعلم كل ما ذكرناه بالتفصيل بذيل « القرآن » و « الحديث » وقال حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوى فى التكشف ما ترجمتـه : « ان الشريعـة اسم لمجموعة الأحـكام التكليفية فشملت الأعمال الظاهرة والباطنة جميعها وفى اصطلاح المتقدمين كانوا يرون لفظه « الفقه » مرادفة لها ــ كما نقل عن الامام أبى حنيفة فى تعريف الفقـه أنه قال : هو « معرفة النفس ما لها وما عليها » ثم فى اصطلاح المتأخرين

صار الفقه يطلق على العلم المتعلق بالأعمال الظاهرة فقط وأما العلم المتعلق بالأعمال الباطنة فيطلق عليه اسم « التصوف » أو « الطريقة » وقد ذكر مثل هذا الكلام فى « امداد الفتاوى » أيضا وللعلامة العارف الشيخ عبد الوهاب الشعرانى كتاب أعجبت به كثيرا وهو « الميزان الكبرى » كنت أطالعه فى أواخر أيام طلب العلم وأوائل أيام تدريسى باستمرار — وموضوع الكتاب أن الأئمة المجتهدين رحمهم الله فى الحقيقة ليس بينهم أي اختلاف — أما الاختلاف المشاهد فى الظاهر فهو باعتبار أحوال الناس فمثلا الامام أبو حنيفة ترك رفع اليدين باعتبار زمنه والامام الشافعى قال بالرفع بحسب زمانه — فالامام أبو حنيفة كان زمنه من القرون المشهود لها بالخير — وبما أن حقيقة رفع اليدين ، هو : طرح الدنيا وراء الظهر — ففى زمنه رحمه الله كان المرء اذا طرح الدنيا مرة واحدة فى البداية برفع اليدين كانت الدنيا ومشاغلها لا ترجع اليه بعدها الى تمام الصلاة ، وأما فى زمن الامام الشافعى وولادته كانت فى عام وفاة الامام أبى حنيفة — كانوا اذا طرحوا الدنيا فى البداية رجعت اليهم ثانيا فيطرحوها مرة بعد مرة برفع اليدين ، ففى رأيه أن الشخص الذى يكون حاله كما كانت عليه عامة الأحوال فى زمن الامام أبى حنيفة بحيث اذا رفع يديه فى البداية لم تعد اليه الدنيا حتى نهاية الصلاة فهذا له أن يعمل بقول أبى حنيفة والذى يكون حاله كحال زمن الامام الشافعى فعليه أن يعمل بقوله وهكذا يرى أن نقض الوضوء بمس الذكر انما هو للخاصة والأكابر وأما عدم نقضه فهو للعامة — مع أن الاحتياط عند الحنفية أيضا هو الوضوء منه وذلك للخروج عن الخلاف (الميزان ص ١٣٠ ، ١٦٠) وله أبحاث طريفة وعجيبة فى كتابه هذا وقد رسم فى كتابه هذا أيضا فى موضع أشكالا لقباب — وأشكالا مختلفة متعددة تتعلق باختلاف الأئمة بناء على مراقباته ومكاشفاته وضرب بهذه الأشكال أمثلة لما رآه فى مكاشفاته نذكر منها هنا مثالين فقط :

وهذا مثال طرق مذاهب الائمة المجتهدين الى ابواب الجنة وان كل من عمل بمذهب منها خالصا وصل الى باب الجنة

طريق اتباع الامام عبد الرحمن الاوزاعي الى باب الجنة	طريق اتباع الامام اسحاق الى باب الجنة	طريق اتباع الامام ابو الليث الى باب الجنة	طريق اتباع الامام داود الى باب الجنة	طريق الامام احمد الى باب الجنة	طريق الامام الشافعي الى باب الجنة	طريق الامام مالك الى باب الجنة	طريق ابي حنيفة الى باب الجنة

وهذا مثال قباب الائمة المجتهدين على نهر الحياة فى الجنة الذى هو مظهر بحر الشريعة المطهرة فى الدنيا وانما ذكرنا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قباب الائمة الاربعة لانهم ما نالوا هذا المقام الا باتباع شريعته فكان من كمال نعيمهم فى الجنة شهود ذاته صلى الله عليه وسلم فتامله تهتد ان شاء الله تعالى :

قبة النبي صلى الله عليه وسلم	قبة ابي حنيفة رضي الله عنه	قبة مالك رضي الله عنه	قبة الشافعي رضي الله عنه	قبة احمد رضي الله عنه

وذكر فى ذيل المثال الثانى ما ملخصه : انى أتيت بالأئمة الأربعة فقط من الأئمة المجتهدين لأن لهم ميزة خاصة وهى أن مذاهب هؤلاء الأربعة فقط دونت وحفظت ورتبت وعمل بها من أول أيامهم الى يومنا هـذا باستمرار دون بقية الأئمة المجتهدين ــ فحصلت لهم نيابة خاصة لرسـول الله صلى الله عليه وسلم فى هداية الأمة المحمدية وقيادتها الى شرعه صلى الله عليه وسلم ولهم نسبة خاصة به صلى الله عليه وسلم بحيث يقال عنهم بأنهم لم يفارقوه صلى الله عليه وسلم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ــ وهذا الشكل الذى رسمت عليه القباب ليس قياسا من رأيى انما هو بالضبط على الشكل الذى رأيتها عليه فى الجنة فى بعض أحوالى • فالحمد لله رب العالمين •

لقد ذكر الامام الشعرانى رحمه الله اسم الامام أبى حنيفة فى الجدول

الأعلى وفى القبة الأولى وقال : ان ذلك على أساس الكشف الذى حصل له لأنه رحمه الله كان من أصحاب الكشوف .

وفى رأيى أنه من وجوه ذلك أن أزمنة الأئمة الأربعة أيضا على هذا الترتيب الذى انكشفت له القباب عليه فولادة الامام أبى حنيفة رحمه الله كانت فى سنة ثمانين من الهجرة ووفاته سنة خمسين ومائة وعاش سبعين سنة .

والامام مالك رحمه الله كانت ولادته فى سنة خمس وتسعين ووفاته سنة تسع وسبعين ومائة ، وعاش أربعا وثمانين سنة .

والامام الشافعى رحمه الله كانت ولادته سنة خمسين ومائة وتوفى سنة أربع ومائتين وعاش أربعا وخمسين سنة .

والامام أحمد رحمه الله كانت ولادته سنة أربع وستين ومائة وتوفى سنة واحد وأربعين ومائتين وعاش سبعا وسبعين سنة .

ثم ان الامام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله من المعلوم أنه يقال له « الأعظم » بسبب فضائله . وفى رأيى أنه من ناحية عمره أيضا يعتبر الأعظم بالنسبة لغيره .

وتكملة للفائدة أذكر أزمنة أئمة الحديث الستة المشهورين أيضا :

الامام البخارى ولد عام ١٩٤ هـ وتوفى عام ٢٥٦ هـ وعاش ٦٢ سنة
الامام مسلم ولد عام ٢٠٤ هـ وتوفى عام ٢٦١ هـ وعاش ٥٧ سنة
الامام أبو داود ولد عام ٢٠٢ هـ وتوفى عام ٢٧٥ هـ وعاش ٧٣ سنة
الامام الترمذى ولد عام ٢٩٠ هـ وتوفى عام ٢٧٩ هـ وعاش ٧٠ سنة
الامام النسائى ولد عام ٢١٥ هـ وتوفى عام ٣٠٣ هـ وعاش ٨٨ سنة
الامام ابن ماجه ولد عام ٢٠٩ هـ وتوفى عام ٢٧٣ هـ وعاش ٦٤ سنة

واغلب هذه التواريخ والسنين مأخوذة من كتاب الاكمال لصاحب المشكاة .

الاجتهـــاد

وعن الاجتهاد حرر الفاضل الجليل الشيخ المفتى محمد شفيع العثمانى فى جواهر الفقه ص ١٢٢ : ان علماء السلف حددوا للعـالم الذى ينبغى تقليده (أى المجتهد) معيارا ، يقول الامام الكبير الشاه ولى الله المحدث الدهلوى قدس سره فى كتابه « عقد الجيد » : حقيقة الاجتهاد على ما يفهم من كلام العلماء : استفراغ الجهد فى ادراك الأحكام الشرعية الفرعيـة من أدلتها التفصيلية الراجعة كلياتها الى أربعة أقسام : الكتاب والسـنة والاجماع والقياس ، ويفهم من هذا أنه أعم من أن يكون استفراغا فى ادراك حكم ما سبق التكلم فيه من العلماء السابقين أولا ، وافقهم فى ذلك أو خالف ، ومن أن يـكون ذلك باعانة البعض فى التنبيـه على صـور المسائل والتنبيه على مآخذ الأحكام من الأدلة التفصيلية أو بغير اعانة منه — فما يظن فيمن كان موافقا لشيخه فى أكثر المسائل — لكنه يعرف لكل حكم دليلا ويطمئن قلبه بذلك الدليل وهو على بصيرة من أمره — أنه ليس بمجتهد ظن فاسد ، وكذلك ما يظن من أن المجتهد لا يوجد فى هذه الأزمنة اعتمادا على الظن الأول بناء على فاسد .

وشرطه : أنه لابد له أن يعرف من الكتاب والسنة ما يتعلق بالأحكام . ومواقع الاجماع وشرائط القياس وكيفية النظر وعلم العربية والناسـخ والمنسوخ وحال الرواة ولا حاجة الى الكلام والفقه « أى الاصطلاحى » .... وهذا الذى ذكرناه من شرط الاجتهاد مبسوط فى كتب الأصـول ولا بأس أن نورد كلام البغوى فى هذا الموضع ، قال البغوى : والمجتهد من جمع خمسة أنواع من العلم : علم كتاب الله عز وجل ، وعلم سـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاويل علمـاء السـلف من اجماعهـم واختلافهم ، وعلم اللغة ، وعلم القياس وهو طريق استنباط الحكم مـن الكتاب والسنة اذا لم يجده صريحا فى نص كتاب أو سـنة أو اجماع ،

فيجب أن يعلم من علم الكتاب الناسخ والمنسوخ و .. (ثم ذكر ما سبق ذكره فى ذيل « العمل بالقرآن ») ثم قال : ويعرف من السنة هذه الأشياء — ويعرف منها الصحيح والسقيم و .. (ثم ذكر ما سبق ذكره فى ذيل « العمل بالحديث ») ثم قال : وكذلك يجب أن يعرف من علم اللغة ما أتى فى كتاب أو سنة فى أمور الأحكام دون الاحاطة بجميع لغات العرب ، وينبغى أن يتحرج فيها بحيث يقف على مرامى كلام العرب فيما يدل على المراد من اختلاف المحال والأحوال ، لأن الخطاب ورد بلسان العرب فمن لم يعرفه لا يقف على مراد الشارع . ويعرف أقاويل الصحابة والتابعين فى الأحكام ومعظم فتاوى فقهاء الأمة حتى لا يقع حكمه مخالفا لأقوالهم فيكون فيه خرق الاجماع — واذا عرف من كل من هذه الأنواع معظمه فهو حينئذ مجتهد — ولا يشترط معرفة جميعها بحيث لا يشذ عنه شئ منها — واذا لم يعرف نوعا من هذه الأنواع فسبيله التقليد اهـ .

وذكر العلامة ابن قدامة الحنبلى رحمه الله فى كتاب المغنى جـ ١١ ص ٣٨٣ .

(فمن شرط الاجتهاد معرفة ستة أشياء : الكتاب والسنة والاجماع والاختلاف والقياس ولسان العرب أما الكتاب فيحتاج أن يعرف منه عشرة أشياء : الخاص والعام والمطلق والمقيد والمحكم والمتشابه والمجمل والمفسر والناسخ والمنسوخ فى الآيات المتعلقة بالأحكام وذلك نحو خمسمائة ولا يلزمه معرفة سائر القرآن فأما السنة فيحتاج الى معرفة ما يتعلق منها بالأحكام دون سائر الأخبار من ذكر الجنة والنار والرقائق ويحتاج أن يعرف منها ما يعرف من الكتاب ويزيد معرفة التواتر والآحاد والمرسل والمتصل والمسند والمنقطع والصحيح والضعيف ، ويحتاج الى معرفة ما أجمع عليه وما اختلف فيه ، ومعرفة القياس وشروطه وأنواعه وكيفية استنباطه الأحكام ومعرفة لسان العرب فيما يتعلق بما ذكرنا ليتعرف به استنباط الأحكام من أصناف علوم الكتاب والسنة وقد نص أحمد على اشتراط ذلك للفتيا) اهـ .

وقال الحافظ ابن القيم فى اعلام الموقعين جـ ١ ص ٤٦ :

قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه له : لا يحل لأحد أن يفتى فى دين الله الا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، وتأويله وتنزيله ، ومكية ومدنيـة ، وما أريد به ويكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ويكون بصـيرا باللغة ، بصيرا بالشعر وما يحتاج اليه للسنة والقرآن . ويستعمل هـذا مع الانصاف ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحة بعد هذا .

فاذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتى فى الحلال والحرام واذا لم يكن هكذا فليس له أن يفتى .

وقال صالح به أحمد : قلت لأبى : ما تقـول فى الرجل يسـأل عن الشىء فيجيب بما فى الحديث وليس بعالم فى الفقه ؟ فقال : ينبغى للرجل اذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالما بالسنن عالما بوجوه القـرآن ، عالما بالاسانيد الصحيحة ــ وذكر الكلام المتقدم .

وقال على بن شقيق : قيل لابن المبارك : متى يفتى الرجل ؟

قال : اذا كان عالما بالأثر بصيرا بالرأى .

وقيل ليحى بن أكثم : متى يجب للرجل أن يفتى ؟ فقـال : اذا كان بصيرا بالرأى بصيرا بالأثر .

قلت : يريدان بالرأى القيـاس الصحيح والمعـانى والعلل الصحيحة التي علق الشارع بها الأحكام ، وجعلها مؤثرة فيها طردا وعكسا . اهـ

ويقول الامام الجليل ولى الله الدهلوى فى عقد الجيد أيضا ص ٥ : واذا عرف من كل من هـذه الأنواع معظمه فهـو حينئذ مجتهد .. وقد

صرح الرافعي والنووي وغيرهما ممن لا يحصى كثرة أن المجتهد المطلق الذي الذي مر تفسيره على قسمين : مستقل ومنتسب ، ويظهر من كلامهم أن المستقل يمتاز عن غيره بثلاث خصال : احداها التصرف فى الأصول التى عليها بناء مجتهداته ، وثانيتها : تتبع الآيات والأحاديث والآثار لمعرفة الأحكام التى سبق بالجواب فيها واختيار بعض الأدلة المتعارضة على بعض ، وبيان الراجح من محتملاته والتنبيه لمآخذ الأحكام من تلك الأدلة .

والثالثة : الكلام فى المسائل التى لم يسبق بالجواب فيها أخذا من تلك الأدلة .

والمنتسب : من سلم أصول شيخه واستعان بكلامه كثيرا فى تتبع الأدلة والتنبيه للمأخذ ــ وهو مع ذلك مستيقن بالأحكام من قبل أدلتها ، قادر على استنباط المسائل منها قل ذلك منه أو أكثر ــ وانما تشترط الأمور المذكورة فى المجتهد المطلق .

وأما الذى هو دونه فى المرتبة فهو مجتهد فى المذهب وهو مقلد لامامه فيما ظهر فيه نصه لكنه يعرف قواعد امامه وما بنى عليه مذهبه ، فاذا وقعت حادثة لم يعرف لامامه نصا فيها اجتهد على مذهبه ، وخرجها من أقواله وعلى منواله ودونه فى المرتبة مجتهد الفتيا ، وهو المتبحر فى مذهب امامه المتمكن من ترجيح قول على آخر ووجه من وجوه الأصحاب على آخر ، والله أعلم . اهـ .

وقد ذكر العلامة الجليل ابن عابدين الشامى فى رسالة « شرح عقود رسم المفتى » أن الفقهاء سبع طبقات : ــ

الأولى : طبقة المجتهدين فى الشرع كالأئمة الأربعة ومن سلك مسلكهم فى تأسيس قواعد الأصول واستنباط أحكام الفروع عن الأدلة الأربعة من غير تقليد لأحد لا فى الفروع ولا فى الأصول .

الثانية : طبقة المجتهدين فى المذهب كأبى يوسف ومحمد وسائر أصحاب أبى حنيفة القادرين على استخراج الأحكام عن الأدلة المذكورة على حسب القواعد التى قررها أستاذهم فانهم وان خالفوه فى بعض أحكام الفروع لكنهم يقلدونه فى قواعد الأصول .

الثالثة : طبقة المجتهدين فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب كالخصاف وأبى جعفر الطحاوى وأبى الحسن الكرخى وشمس الأئمة الحلوانى وشمس الأئمة السرخسى وفخر الاسلام البزدوى وفخر الدين قاضى خان وغيرهم فانهم لا يقدرون على مخالفة الامام لا فى الأصول ولا فى الفروع لكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التى لا نص فيها عنه على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها .

الرابعة : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين كالرازى وأضرابه فانهم لا يقدرون على الاجتهاد أصلا لكنهم لاحاطتهم بالأصول وضبطهم للمأخذ يقدرون على تفصيل قول مجمل ذى وجهين وحكم محتمل لأمرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجتهدين برأيهم ونظرهم فى الأصول والمقايسة على أمثاله ونظائره من الفروع .

الخامسة : طبقة أصحاب التخريج من المقلدين كالقدوذى وصاحب الهداية وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم هذا أولى وهنا أصح رواية وهذا أوضح وهذا أوفق للقياس وهذا أرفق للناس .

السادسة : طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى والقوى والضعيف ــ وظاهر الرواية وظاهر المذهب والرواية النادرة كأصحاب المتون المعتبرة كصاحب الكنز وصاحب المختار وغيرهم .

السابعة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ولا يفرقون بين الغث والسمين ولا يميزون الشمال من اليمين اهـ .

وقال شيخ الأدب مولانا اعزاز على رحمه الله فى بحثه عن الاجتهاد : ــ

ان الاجتهاد معناه اصطلاحا « استفراغ الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعى » •

ثم ذكر شرائط الاجتهاد التى ذكرناها سابقا ــ ثم قال : هذه الشروط هى آلة المجتهد ومن ادعى الاجتهاد وهو خال عنها فمثله كمثل من يدعى أن فى قوته صعود السماء بلا معراج لما علمت من الأدلة المقدمة ، ولابد بعد ذلك أن يحصل عنده ملكة بسبب ممارسته هذه العلوم والتأمل فى الأدلة يتمكن بها من استنباط الأحكام من أدلتها • ولابد بعد هذه الملكة من تأسيسه قواعد يخرج عليها استنباطاته وتفريعاته كقواعد الشافعى وباقى الأئمة ــ وهذه القواعد هى التى أعجزت الناس عن بلوغ حقيقة مرتبة الاجتهاد • اذ لا يكفى فى الاجتهاد معرفة ما تقدم بدون حصول الملكة المذكورة تأسيس القواعد المذكورة ، فمن جهل شيئا مما تقدم أو علم جميعه ولم تحصل له هذه الملكة المتقدمة أو حصلت ولم يؤسس بها قواعد وادعى الاجتهاد فقد أخطأ وعليه البيان والاثبات •

اذ السيوطى مع احاطته لما ادعى الاجتهاد قام عليه أهل عصره فقد قال المناوى وقد قامت عليه أى السيوطى بذلك القيامة ولم تسلم له فى عصره، وطلبوا أن يناظروه فامتنع ، ثم قال المناوى بعد ذلك : وكتبوا له حيث تدعى الاجتهاد فعليك بالاثبات ليكون الجواب على قدر الدعوى فتكون صاحب مذهب خامس •

قال العلامة الشهاب ابن حجر المكى : لما ادعى الجلال ذلك قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحد ، وكتبوا له سؤالا فيه مسائل أطلق الأصحاب فيها وجهين وطلبوا منه انه ان كان عنده أدنى مراتب الاجتهاد وهو اجتهاد الفتوى فليتكلم على الراجح من تلك الأوجه بدليل على قواعد المجتهدين ــ فرد السؤال من غير كتابة واعتذر بأن له أشغالا تمنعه عن النظر فى ذلك •

قال الشهاب : فتأمل صعوبة هذه المرتبة أعنى اجتهاد الفتوى الذى هو أدنى مراتب الاجتهاد يظهر لك أن مدعيها فضلا عن مدعى الاجتهاد المطلق

فى حيرة من أمره وفساد فى فكره وانه ممن ركب متن عمياء وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة بل قال ابن الصلاح ومن تبعه : انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة — ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة فتكون انقطعت من نحو ستمائة أى الى زمن السيوطى — بل نقل ابن الصلاح عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد بعد عصر الشافعى مجتهد مستقل الى هنا اهـ .

ثم قال : واذا كان بين الأئمة تراء طويل فى أن امام الحرمين وحجة الاسلام الغزالى وناهيك بهما — هل هما من أصحاب الوجوه الذين هم أقل من المجتهدين أولا ؟ فما ظنك بغيرهما — بل قال الأئمة عن البحر انه لم يكن من أصحاب الوجوه — هذا مع قوله :

لو ضاعت نصوص الشافعى لأمليتها من صدرى .

فاذا لم يتأهل هؤلاء الأكابر لرتبة الاجتهاد المذهبى فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعى ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق سبحانك هذا بهتان عظيم — وفى الأنوار عن الامام الرافعى : القوم كالمجمعين على أن لا مجتهد اليوم . انتهى مختصرا وله كلام طويل نفيس جدير بالمطالعة .

وقد نشرت مجلة « الداعى » الصادرة من ديوبند للمحدث المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى نفع الله بعلومه المسلمين كلمة جليلة جامعة ومختصرة يقول فيها ما ملخصه : ان الاجتهاد الذى يقول عنه العلماء أنه قد أغلق بابه منذ سنة كذا وكذا — المراد به : الاجتهاد المطلق . وقد صرح به ابن الصلاح وابن حجر المكى . بل ان ابن الصلاح رحمه الله نقل عن بعض الأصوليين أنه لم يوجد أى مجتهد بعد الامام الشافعى رحمه الله — ويقول الامام عبد الوهاب الشعرانى أنه لم يدعى الاجتهاد المطلق أحد بعد الأئمة الأربعة سوى الامام ابن جرير الطبرى ولكنه لم تقبل منه هذه الدعوى — هذا من الناحية التاريخية — وأما انه هل من الممكن أن يوجد مجتهد مطلق مستقل بعد الأئمة الأربعة أم لا ؟ فيقول الامام الشعرانى

رحمه الله : نعم يمكن ذلك ـ لأن الله قادر على كل شيء ـ ولا دليل على عدم امكان هذا .

ويقول العلامة الشيخ عبد الحى اللكنوى رحمه الله : ان من يدعى أنه لا يمكن وجود مجتهد بعد الأئمة الأربعة فهذا خطأ وغير صحيح ـ وانما لو ادعى أنه لم يوجد الى الآن من بعد الأئمة الأربعة من ادعى الاجتهاد وسلم له الجمهور ذلك ، فهذا مسلم ولا شك فيه » اهـ .

حصر الأئمة المجتهدين المتبوعين فى أربعة

يقول الامام الجليل الشاه ولى الله المحدث الدهلوى فى « عقد الجيد » ص ١٤ : اعلم أن فى الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفى الاعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ونحن نبين ذلك بوجوه : —

أحدها : أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة فالتابعون اعتمدوا فى ذلك على الصحابة — وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا فى كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، والعقل يدل على حسن ذلك • لأن الشريعة لا تعرف الا بالنقل والاستنباط ، والنقل لا يستقيم الا بأن تأخذ كل طبقة عمن قبلها بالاتصال ، ولابد فى الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج عن أقوالهم فيخرق الاجماع ويبنى عليها ، ويستعين فى ذلك كل بمن سبقه لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر والحدادة والنجارة والصياغة لم تتيسر لأحد الا بملازمة أهلها — وغير ذلك نادر بعيد لم يقع وان كان جائزا فى العقل ، واذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف فلابد من أن تكون أقوالهم التى يعتمد عليها مروية بالاسناد الصحيح أو مدونة فى كتب مشهورة وأن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها — ويخصص عمومها فى بعض المواضع ، ويقيد مطلقها فى بعض المواضع ، ويجمع المختلف منها ويبين علل أحكامها ، والا لم يصح الاعتماد عليها وليس مذهب فى هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة الا هذه المذاهب الأربعة • اللهم الا مذهب الامامية والزيدية وهم أهل البدعة لا يجوز الاعتماد على أقاويلهم •

وثانيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتبعوا السواد الأعظم ولما اندرست المذاهب الحقة الا هذه الأربعة كان اتباعها اتباعا للسواد الأعظم — والخروج عنها خروجا عن السواد الأعظم •

وثالثها : أن الزمان لما طال وبعد العهد ، وضيعت الأمانات لم يجز أن

يعتمد على أقوال علماء السوء من القضاة الجورة والمفتين التابعين لأهوائهم حتى ينسبوا ما يقولون الى بعض من اشتهر من السلف بالصدق والديانة والأمانة اما صريحا أو دلالة وحفظ قوله ذلك . ولا على قول من لا ندرى هل جمع شروط الاجتهاد أولا ـ فاذا رأينا العلماء المحققين فى مذاهب السلف عسى أن يصدقوا فى تخريجاتهم على أقوالهم واستنباطهم من الكتاب والسنة ، وأما اذا لم نر منهم ذلك فهيهات ا هـ .

ويقول العلامة الشيخ المفتى محمد شفيع الديوبندى فى جواهر الفقه ص ١٣١ فى رده على سؤال أنه لماذا يقلد الأئمة الأربعة فقط ؟ وألم يوجد فى السلف امام على درجتهم ليقلد ؟ وهل ورد حكم تقليد الأئمة الأربعة فى أى نص ؟

فأجاب نور الله مرقده : ـ ان انتهاء سلسلة التقليد على الأئمة الأربعة ليس بأمر عقلى ولا شرعى بل انه اتفاقى محض حيث أنه بمشيئة الله عز وجل اندرست جميع المذاهب سوى هذه المذاهب الأربعة وأصبحت وكأنها لم تكن ـ ووجود خمسين أو مائة مسألة منقولة عن أحدهم لا يمكن أن يقال عليها انها مذهب فلان يقلده الناس لأنهم لو قلدوهم فى هذه الخمسين أو المائة مسألة فماذا يفعلون فى الآلاف وعشرات الآلاف من المسائل والأحكام الأخرى ، وعندما رأينا أن جميع المذاهب سوى هذه الأربعة قد اندرست . لم يبق لدينا سبيل سوى حصر التقليد فى هذه الأربعة اضطرارا لذا تجد ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عندالكلام علىمذهب الظاهرية يقول: ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته وانكار الجمهور على منتحليه ولم يبق الا فى الكتب المجلدة .

وفيها أيضا صرح بقوله « ووقف التقليد فى الأمصار عند هؤلاء الأربعة ودرس المقلدون عن سواهم ... الخ » ا هـ .

واتفق الجميع على هذا ، ولم يبق فيه أى خلاف بينهم ـ وعندما كثرت الاصطلاحات المختلفة فى العلوم وصعب الوصول الى مرتبة الاجتهاد « لعدم وجود الشروط اللازمة له » وعندما خيف أن ينسب الاجتهاد الى غير أهله والى الذين لا يعتمد على دينهم ولا على رأيهم ـ فحينئذ صرح

العلماء بالعجز عن الاجتهاد وقيدوا الناس على أن يخصصوا لهم واحدا من هؤلاء الأئمة الأربعة للتقليد ـ ومنعوهم من تقليد امامين منهم أيضا فى وقت واحد فانه تلاعب وتلفيق ـ وأما غير هؤلاء المتبوعين من الأئمة فلم يبق الا نقول أقوالهم فى الكتب ـ وليست لهم كتب فقهية مستقلة دونت فيها أقوالهم وآراؤهم ، وبدأ كل مقلد بعد تصحيح الأصول واتصال السند بالعمل بمذهب امامه ، وانحصر حصول الفقه فى هذا الزمان على تقليد مذهب هذا الامام فقط •

والآن فى هذا الزمان دعوى أى مدع للاجتهاد مردودة غير مسلمة وتقليده مهجور ومتروك • وقد اتفق أهل الاسلام فى هذا الزمان على تقليد الأئمة الأربعة •

يقول الامام ابن الهمام فى « فتح القدير » : انعقد الاجماع على عدم العمل بالمذاهب المخالفة للأئمة الأربعة •

ويقول العلامة ابن حجر المكى رحمه الله فى « فتح المبين شرح الأربعين » : أما فى زماننا فقال أئمتنا : لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة : الشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد « اهـ •

فأصبحت مطالبة أحدهم الدليل على أنه لم انحصر التقليد فى الأئمة الأربعة فقط فى غير محله ـ ومثال ذلك مثال شخص كان له أولاد كثيرون ومات بعضهم حتى أنه عندما مات الأب لم يبق من أولاده هؤلاء أحياء الا أربعة فقط ـ فحتما سينحصر ارث الأب فى هؤلاء الأولاد الأربعة الأحياء فقط • مع أنه كان للأب المتوفى أولاد غيرهم أيضا ـ ولكنك لا تجد أحدا يعترض على أنه لم انحصر ارث الأب فى الأولاد الأربعة فقط ، ولو اعترض أحد فرضا فلا يكون الجواب الا أن هذه هى مشيئة الله وقضاؤه سبحانه المحيى والمميت •

وقال العلامة الفاضل الملاجيون رحمه الله فى « التفسير الأحمدى » : والانصاف أن انحصار المذاهب فى الأربعة انما هو فضل الهى وقبولية من عند الله تعالى لا مجال فيها للتوجيهات والأدلة » (جواهر الفقه) •

التقليد

مادام قد انغلق باب الاجتهاد وانحصرت المذاهب فى مذاهب الأئمة الأربعة فوجب اذن تقليدهم ـ والذين يقولون عن التقليد أنه شرك يجهلون حقيقة التقليد ـ فان التقليد « نعوذ بالله وحاشا » ليس بشىء مستقل فى مقابل سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بل ان التقليد هو استسلام للأحكام التى استنبطها الأئمة الكرام من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار الصحابة رضى الله عنهم ـ لأن التقليد عرف بقولهم : « انه قبول غير المجتهد لقول المجتهد فى الأحكام الفقهية الفرعية ولا يطالبه بالدليل عليها معتمدا على أن المجتهد لديه دليل عليها » .

وقد روى الامام أبو داود فى سننه عن جابر رضى الله عنه قال خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال : قتلوه قتلهم الله تعالى الا سألوا اذ لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال انما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو ليصب ... الخ الحديث .

أنظر هؤلاء أفتوا على ظاهر لفظ قوله تعالى « فلم تجدوا ماء » مع أن الاجتهاد والفتوى لها شروط كثيرة وقد ذكرناها فى السابق ـ لذا قال شيخ الاسلام ان تيمية رحمه الله فى فتاواه جـ ٢٠ ص ٢٠٣ : والذى عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز فى الجملة ، والتقليد جائز فى الجملة .. وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد ويقول فى مقام آخر جـ ٢٠ ص ٢٠٩ : ـ « واتباع شخص لمذهب شخص بعينه لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته انما هو مما يسوغ له ، ليس هو مما يجب على كل أحد اذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق » اهـ .

وذكر العلامة أبو الوليد الباجى المالكى شارح الموطأ فى كتابه « الحدود فى الأصول » ــ عن التقليد أنه قبول قول من يقلده بدون دليل وان علم دليله ــ وهو « أى التقليد » فرض فى حق من لا يقدر على الاجتهاد .

وذكر الامام الكنكوهى نور الله مرقده فى رسالة له نقلها الشيخ محمد شفيع « المفتى الأعظم بباكستان رحمه الله فى كتابه « جواهر الفقه » يقول: قولكم : « ان اعتقاد وجوب التقليد الشخصى بدعة سيئة » أقول : ان التقليد الشخصى مباح عندكم كما اعترفتم بذلك فى أعلاه ولكنكم لم تفهموا أنه ما معنى المباح وقد خالفتم بقولكم هذا الأخير المنقول والمعقول معا ، فان التقليد نفسه « أى التقليد المطلق » فرض لقوله تعالى « فاسألوا أهل الذكر » الآية . ولقوله صلى الله عليه وسلم «انما شفاء العى السؤال» وهذا بدهى أيضا لأن الدين لايمكن أن نحصل عليه بدون التعلم اذ لاعلاقة للعقل والحس فيه «أى بدون النقل» لذا فان التقليد مطلقا فرض « أى على الذى لا يقدر على الاجتهاد » أعتقد أنكم أيضا تقرون بهذا والا أثبتناه لكم ــ ثم التقليد له صورتان : الأولى التقليد الشخصى والأخرى التقليد غير الشخصى ــ لأنهما جزءان لجنس واحد وان شئت فقل عنه « جنس وله نوعان » أو أنه « مطلق وله فردين مقيدين » أو أنه « كلى وله جزءان » قرر عنها كما تشاء . وعلى كل فهما نوعان من التقليد لتحقيق التقليد المطلق الذى هو فرض .

والآن أسألك : اذا كان الشيء أصله فرض فكيف يكون أحد نوعيه الذى يتحقق الأصل به مباحا ــ ياعبد الله ان الفرض والمباح حكمان متباينان لبعضهما ــ فكيف يكون أحد نوعى الجنس من غير نوع الجنس الآخر فكر قليلا يا أخى : ان التقليد المطلق فرض ــ فهل يكون التقليد الشخصى مباحا مع أن التقليد الشخصى هو أحد النوعين لتحقيق التقليد المطلق . فعلم أن سوء الفهم كله نشأ من هنا .

لذا فافهم أن التقليد بنوعيه فرض ان كان شخصيا أو غير شخصى ــ وليس أيا منهما مباح ــ الا أنه بما أن هناك تخيير فى امتثال أمر التقليد

فلك الخيـــار أن تختار أى النوعين شئت ـــ فان اخترت أحد نوعيـــه فلا حاجة الى النوع الآخر ـــ انما اذا لم تختر أى واحد من النوعين فانك تؤثم ـــ وقيل لهذا التخيير انه مباح مجازا ـــ وليس أن التقليد الشخصى بذاته مباح ، ومثاله : ان فى كفارة القسم مثلا تكون نفس الكفارة فرضا ـــ والتخيير فى الاطعام والكسوة والرقبة ـــ فان أديت أحد الثلاثة برأت من القسم وان لم تؤد أحد الثلاثة فتؤثم .. وهكذا حال جميع الكليات .

فان المطلق الشرعى يكون فرضا ـــ ويقال لأحد أنواعه مباحا باعتبـــار الاباحة فى اختيـــار أحد أنواع تحقيقـــه ا هـ ـــ والرسالة طويلة جديرة بالمطالعة .

ونقل عن الامام النانوتوى نور الله مرقده أنه قال فى احدى رسائله : (أما بالنســـبة للتقليد فلا ريب فى أن دين الاســـلام واحد ـــ والمذاهب الأربعة كلها حق ـــ ولكن كما أنه فى الطب مثلا سواء كان الطب « اليونانى أو الهيموبيتك أو الطب الحديث فالأطباء المعترف بهم يحق لكل شخص أن يتعالج عند من شاء منهم وكل واحد منهم أهل ليعالج المرضى . ولكن عند اختلاف آراء الأطباء فى معالجة شخص ما يكتفى بعلاج واحـــد منهم فقط كليا وفى كل شىء « فعلى رأيه تؤخذ الأدوية وعلى رأيه يكون نوعية الغذاء وعلى رأيه تترك بعض الأشياء وهكذا » ويترك العمل بآراء بقيـــة الأطباء ويتعين العلاج على رأى واحد فقط وهذا واقع ومشاهد ومعلوم لدى الجميع » . فهكذا أيضا بالنسبة للأئمة عند اختلافهم يتبع أحدهم كليا وفى كل شىء يكتفى باتباعه دون غيره من الأئمة .

وكما أنه يحدث فى الطب أن بعض المرضى يترك العلاج عنـــد بعض الأطباء ويذهب الى طبيب آخر ويتعالج لديه فيجعل علاجه كليا عند هـــذا الأخير هكذا حدث لبعض المشايخ فى السابق أنهم تركوا مذهبا لوجه من الوجوه والتزموا بمذهب آخر واتبعوه . ولكن لم يفعلوا أن أخذوا شيئا من هذا المذهب وشيئا من هـــذا فيفتحوا بعملهم بابا خامسا للامذهبية ، فالامام الطحاوى مثلا كان شافعيا ثم صار حنفيا ـــ وبالجملة فلا مخرج

من التقليد لذلك ترى أنه وجد ملايين العلماء والمحدثين وكلهم أخذ بالتقليد • انظر الامام الترمذى ما أعظم شأنه فى العلم والحديث والتفقه وهو صاحب السنن مع كماله وفضله هذا كان مقلدا : وسننه خير دليل على ذلك • فاذا كان أمثال هؤلاء مع كمالهم مقلدين فالترمذى قلد الامام الشافعى والطحاوى والامام محمد الشيبانى والامام أبو يوسف قلدوا الامام أبا حنيفة — فأى عالم بعد هؤلاء تراه اليوم يستغنى عن التقليد •

ثم ان وجد هناك عالم كبير لم يقلد اماما مثلا — فما يغنى ذلك ؟

أولا : من يسمع لواحد أو اثنين من العلماء مقابل ملايين العلماء أى عاقل تسأله يقول لك : ان ما ذهب اليه العالم كله بصغيره وكبيره حتما هو الحق • ثم وهل من المعقول أن نختار نحن الجهلاء مسلك العلماء • وهذا مثاله مثال المريض الجاهل يرى أحد الأطباء مرض فعالج نفسه بنفسه ولم يتعالج عند طبيب آخر — ففكر هذا الجاهل أيضا أن يختار نفس الطريقة وأراد أن يعالج نفسه بنفسه ورأيه واستغنى عن الأطباء فأسألك بأنه ماذا يقال عن هذا الشخص ؟ عاقل أم مجنون •

فهكذا اذا رأى جاهل عالما يترك التقليد فأراد بذلك أن يستغنى هذا الجاهل أيضا عن التقليد فلا أقول الا أن العلم لم يكن من قبل لدى هذا والآن بعمله هذا دل على أن لا عقل له أيضا •

واليوم المنتسبون الى العلم والذين يقال لهم علماء أكثرهم ان لم أقل كلهم فى حكم الجهلاء • بل ان بعض العلماء فى الحقيقة أجهل من الجهلاء تراهم يتأبطون كتابا أو كتابين ويخرج ليعظ الناس وبينه وبين العلم بعد المشرقين يظن نفسه عالما وهو جاهل • فان العالم هو من يستطيع على الأقل أن يدرس الطلبة كل كتاب من جميع أبواب العلوم » (جواهر الفقه ص ١٣٥) •

وفى مكاتيب شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى نور الله مرقده رسالة طويلة باسم الشيخ أبى الليث أمير « الجماعة الاسلامية » السابق ردا على

رسائله يذكر فيه ما ترجمته بالعربية « أن مولانا محمد حسين البتالوى رحمه الله وكان من أئمة اللامذهبيين المتحمسين ومدافعا قويا للامذهبية وناشرها فى الهند يقول فى مجلته « اشاعة السنة » المجلد الثانى « بعد تجربة خمس وعشرين سنة علمنا أن الناس الذين يصيرون مجتهدين مع كونهم جهلاء « غير علماء » ويتركون التقليد مطلقا تجدهم فى النهاية ينفضون أيديهم حتى من الاسلام فبعضهم يختار المسيحية وبعضهم يختار الالحاد فلا يتقيدون بدين ولا مذهب ، وما الفسق والخروج عن أحكام الشريعة الا النتيجة الأولى للتحرر وعدم التقييد . ان هؤلاء الفسقة نراهم يجاهرون بترك الجمعة والجماعات وحتى يتركون الصلاة والصوم بأصله . فلا تقوى ولا ورع ولا احتراز حتى عن الربا والخمر وغيرها من الكبائر المحرمات ـ ومن يتحاشى منهم عن هذه المحرمات الظاهرة لمصالح دنيوية تراهم يتخبطون فى الفسق المخفى ليلا ونهارا فيستأسرون النساء بطرق ملتوية فى عقودهم ويتحصلون على أمال الله وعباده وحقوقهم بحيل محرمة وطرق باطلة .. صحيح أن أسباب الكفر والارتداد والفسق كثيرة فى العالم ـ ولكن بالنسبة لخروج المتدينين عن الدين والتدين ، وابتلائهم بالفسق والفجور يعتبر ترك التقليد مع عدم وجود العلم سببا هاما ومصيبة عظمى » انتهى مختصرا ومترجما قلت : وما ذكره شيخ الاسلام المدنى عن الشيخ محمد حسين البتالوى كان بعد أن مر الشيخ البتالوى بتجارب كثيرة فى حياته .

وقد نقلت فى « سوانح قاسمى ص ٢٢ له قصة أخرى قبل هذه بمدة وهى أن الشيخ محمد حسين البتالوى كتب للامام الكبير الشيخ قاسم النانوتوى بأنى أرغب فى التحدث اليكم فى بعض الأمور بخلوة حيث لا يحضرنا أحد ولو كان من تلاميذكم المخصوصين فوافق الامام النانوتوى على ذلك وكتب له بأن يتفضل فحضر وقفل الباب عليهما وبدأ الحديث فقال الامام : ان ما نتحدث فيه يجب أن يلاحظ فيه أمران : أحدهما : أن المسألة المبحوث فيها تبينون أنتم فيها مذهب الحنفية وأنا على أن أبين الدلائل الشرعية عليه . وثانيهما : انى مقلد للامام أبى حنيفة رحمه الله لذلك فما تعترضون عليه من الأقوال أو ما تحتجون به على يجب أن يكون

للامام نفسه ولا يكون حجة على أن الشامى « ابن عابدين » قال كذا أو أن صاحب فتح القدير قال كذا الخ فانى لست بمقلد لهؤلاء ــ فوافق ــ وتحادثا فى مسائل « الفاتحة خلف الامام ورفع اليدين والتأمين بالجهر وغيرها من المسائل الكثيرة » وحسب ما تقرر كان بين الشيخ مذهب الأحناف والامام يثبته بالدلائل المفصلة ــ فكان الشيخ البتالوى أحيانا عند سماعه للأدلة يندهش ويتعجب لحسن الاستدلال وقوة الحجة فيتواجد لذلك ويتمايل ويقول سبحان الله .. سبحان الله ــ منبهرا مما سمع وعند الانتهاء من الحديث قال الشيخ محمد حسين البتالوى بتأثر : أتعجب ياسيدى .. مثلكم ويكون مقلدا ؟ « أى مع هذا العلم الجم والفهم والذكاء وقوة الاستنباط كيف ترضون بالتقليد دون الاجتهاد » فأجاب الامام قدس الله روحه ببداهة وبساطة : وأنا أتعجب ! مثلك ولا يكون مقلدا ؟ » انتهى مختصرا .

قلت : لقد سمعت هذه القصة من بعض الأكابر وسمعت فيها أن الامام النانوتوى قال فى آخرها فى جواب الشيخ البتالوى « انه يكفى حجة ودليلا لكون التقليد واجبا قولكم هذا فى » والله أعلم .

كان أحد زملائى فى الدراسة بمظاهر العلوم بعد التخرج قد توظف بسكتبتها ثم لقلة الراتب « لأن الرواتب كانت حينئذ قليلة جدا » ترك الوظيفة وانتقل الى مدينة عليكرة وتوظف لدى طبيب هناك كان من جماعة أهل الحديث « وهم جماعة لا يتقيدون بتقليد أحد من الأئمة الأربعة المتبوعين وانما يدعون التمسك بالحديث الشريف والرجوع اليه فى جميع الأحكام » وبعد عدة أيام وصلتنى منه رسالة يذكر لى فيها بالتفصيل النعيم الذى يتمتع به هناك فالراتب مريح جدا والطبيب الذى يعمل لديه يحبه ويكرمه ويجلسه معه على مائدته الخ ذلك وفى آخر الرسالة ذكر أنه واقع هناك فى مشكلة عويصة وهى أن الدكتور المذكور فى صلاته عندما يرفع رأسه من الركوع يرفع يديه ثم ما يزال رافعا اياهما الى أعلى حتى يسجد على نفس هذه الحال . وهو بما أنه متعود على هذه العملية فلا يشق عليه ولكن صاحبنا هذا عندما يسجد على تلك الطريقة غالبا ما يحدث أنه يخر

ساقطا على الأرض . وذكر أنه قال للدكتور أن الشيخ نذير حسين والشيخ ثناء الله يذكران فى فتاواهما خفض اليدين بعد رفعهما ولكن الدكتور رد عليه بشدة واستنكار قائلا : اننى لست مقلدا للشيخ نذير حسين أو الشيخ ثناء الله ولو كنت مقلدا أحدا فلم لا أقلد الامام أبا حنيفة الذى يفوق هؤلاء فى العلم والعمل والتقوى بمراحل — وانما دلنى على حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحتج على به . وبعد رواية هذه القصة بتفصيلها طلب منى هذا الزميل أن أبحث له عن حديث فيه خفض اليدين بعد رفعهما فى القومة حتى تحل مشكلته .

وفى تلك الأيام كنت مشتغلا بتدريس الحديث الشريف . وفى هذه الساعة لا الرسالة أمامى ولا أذكر الموضوع بالضبط وانما أذكر أنى نقلت له بعض روايات أبى حميد الساعدى رضى الله عنه من صحيح البخارى وغيره التى فيها « فاذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه » .

تقليد الامام الاعظم أبى حنيفة رحمه الله

ان عامة أهل الهند والباكستان يلتزمون بمذهب الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى . وذلك لأن فاتحى الهند الأوائل كانوا عامة حنفيوا المذهب فى الفقهيات . فوصل معهم الى هذه الديار مع الاسلام المذهب الحنفى أيضا .

وهناك وجوه أخرى أيضا أدت الى ترجيح المذهب الحنفى وقد ذكرت بعضها بالتفصيل فى مقدمتى لأوجز المسالك الى موطأ مالك ومن جملتها : ـ

ان عهد الامام الأعظم أقرب الى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من بقية الأئمة المتبوعين رحمهم الله تعالى كما سبق أن بينا حيث ذكرنا بالتفصيل عصور الأئمة الأربعة والمحدثين . فقد ولد الامام أبو حنيفة سنة ثمانين من الهجرة النبوية أى فى القرن الذى توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن للثلاثيات أهمية عظيمة فى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث وقد ألفت رسائل مستقلة فى الثلاثيات وحدها . والثلاثى هو الحديث الذى يكون فى سنده بين المحدث وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة رواة فقط أولهم شيخ المحدث والثانى التابعى والثالث الصحابى .

والامام أبو حنيفة رحمه الله على قول الحنفية تابعى رواية أيضا فلم يتبق الا الصحابة رضى الله عنهم وهم كلهم عدول .

والذين يقولون عن الامام أبى حنيفة أنه كان من أتباع التابعين فعليه أيضا يكون الفقه الحنفى « ثنائيا » أحدهما صحابى « وهم كلهم عدول » والآخر تابعى فان أستاذ الامام أبى حنيفة تابعى ، وكل واحد أعلم من غيره بحال أستاذه . لذلك فالطعن فى روايات الحنفية والحكم عليها بالضعف جهل بالفن ، فان الروايات التى يأتى فيها راو ضعيف فى الدرجة الثالثة

أو الرابعة لا تطعن به روايات الحنفية . وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى فتاواه حـ ٢٠ ص ٢٣٩ « بل الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير لأن كثيرا مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا الا عن مجهول أو باسناد منقطع أن لا يبلغنا بالكلية فكانت دواوينهم صدورهم التى تحوى أضعاف ما فى الدواوين وهذا أمر لا شك فيه من علم القضية » اهـ .

ثم يلاحظ أن الامام البخارى رحمه الله أورد فى صحيحه اثنين وعشرين رواية ثلاثية ــ عشرون منها عن تلاميذ الامام أبى حنيفة أو عن تلاميذ تلاميذه رحمه الله ــ فاحدى عشر رواية منها عن مكى بن ابراهيم وهو تلميذ الامام أبى حنيفة مباشرة ــ فقد حكى الموفق عنه أنه دخل الكوفة ولزم أبا حنيفة وسمع منه الحديث والفقه وأكثر عنه الرواية ويحبه حبا شديدا ــ حتى قال اسماعيل بن بشر : كنا فى مجلس المكى فقال حدثنا أبو حنيفة فصاح رجل غريب حدثنا عن ابن جريج ولا تحدثنا عن أبى حنيفة .. فقال المكى أنا لا تحدث السفهاء حرجت عليك أن تكتب عنى قم من مجلسى فلم يحدث حتى اقيم الرجل من مجلسه ثم قال حدثنا أبو حنيفة ومربه . هـ .

ثم ست روايات عن أبى عاصم النبيل الضحاك بن مخلد وهذا أيضا تلميذ للامام أبى حنيفة .

وثلاث روايات عن محمد بن عبد الله الأنصارى ــ وهذا تلميذ الامام زفر وكذلك تلميذ للامام أبى يوسف القاضى أيضا وبقى روايات لا أعلم هل هما من تلاميذ الامام أو أحد تلامذته أم لا ؟ والله أعلم .

وقد ذكرت فى مقدمة الأوجز عن الامام الشعرانى رحمه الله انه قال : قد من الله على بمطالعة مسانيد أبى حنيفة الثلاثة من نسخة صحيحة عليها خطوط الحفاظ فرأيته أن لا يروى حديثا الا عن خيار التابعين العدول الثقات الذين هم من خير القرون كالأسود وعلقمة وعطاء وعكرمة ، ومجاهد ومكحول والحسن البصرى وأضرابهم فكل الرواة الذين بينه وبين الرسول

صلى الله عليه وسلم عدول ثقات أعلام خيار وليس فيهم كذاب ولا متهم بالكذب ا هـ .

وقد بسطت فى مقدمة الأوجز الكلام عن فقه الامام أبى حنيفة رحمه الله ذكر فيها فى الفائدة التاسعة : فيما يبنى عليه مذهبه ، قال ابن حجر : يتعين عليك أن لا تفهم من أقوال العلماء عن أبى حنيفة وأصحابه أنهم أصحاب الرأى أن مرادهم بذلك تنقيصهم ولا نسبتهم الى أنهم يقدمون رأيهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على قول أصحابه لأنهم برآء من ذلك فقد جاء أبى حنيفة من طرق كثيرة ماملخصه أنه أولا يأخذ بما فى القرآن فان لم يجد فبالسنة فان لم يجد فبقول الصحابة فان اختلفوا أخذ بما كان أقرب الى القرآن أو السنة من أقوالهم ولم يخرج عنهم فان لم يجد لأحد منهم قولا لم يأخذ بقول التابعين بل يجتهد كما اجتهدوا ا هـ

وقال ابن المبارك رواية عنه : اذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين واذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن أقوالهم واذا جاء عن التابعين زاحمناهم ، وعنه أيضا : عجبا للناس يقولون أفتى بالرأى ، ما أفتى الا بالأثر ، وعنه أيضا : ليس لأحد أن يقول برأيه مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مع ما أجمع عليه أصحابه ، وأما ما اختلفوا فيه فنتخير من أقاويلهم أقربهم الى كتاب الله أو الى السنة .

وسمعه رجل يقايس آخر فى مسئلة فصاح : دعوا هذه المقايسة فان أول من قاس ابليس — فأقبل اليه أبو حنيفة فقال : ياهذا وضعت الكلام فى غير موضعه ، ابليس رد بقياسه على الله تبارك وتعالى أمره فكفر بذلك وقياسنا اتباع لأمر الله تعالى لأنا نرده الى كتابه وسنة رسوله وأقوال الأئمة من الصحابة والتابعين فنحن ندور حول الاتباع فكيف نساوى ابليس لعنة الله فقال له الرجل : غلطت وتبت فنور الله قلبك كما نورت قلبى ا هـ .

وقال ابن حجر : الفصل الأربعون فى رد ما قيل انه خالف فيه صرائح الأحاديث الصحيحة من غير حجة وهذا باب واسع جدا .. ثم قال : وسبب صدور ذلك منهم « أى القائلين » أنهم استروحوا ولم يتأملوا قواعده وأصوله . ثم ذكر ابن حجر الأصول مفصلا وقد ذكرتها فى الأوجز فنذكر منها : أن خبر الواحد لا يقبل اذا خالف الأصول المجمع عليها ، ومنها عمل الراوى بخلاف مرويه لأنه يدل على النسخ أو نحوه ، ومنها تفرده فى عموم البلوى بأن يحتاج كل واحد الى معرفته لأن العادة تقضى باستفاضة نقل مثله فانفراد واحد به قدح فيه ومنها وروده فى حد أو كفارة لسقوطهما بالشبة واحتمال خطأ الراوى المنفرد به شبهة ، ومنها طعن بعض السلف فيه ، ومنها وقوع الاختلاف فى الصحابة فى مسئلة ورد فيها خبر الواحد ولم يحتج أحد منهم به فاعراضهم عن الاحتجاج به مع شدة عنايتهم بالأحاديث دليل على نسخه أو نحوه . ومنها مخالفته لظاهر عموم القرآن لأن أبا حنيفة لا يرى تخصيص عمومه ولا نسخه بخبر الواحد لأنه ظنى وذاك قطعى — وتقديم أقوى الدليلين واجب ومنها مخالفته للسنة المشهورة ، .. واذا تقرر ذلك علم منه نزاهة أبى حنيفة مما نسبه اليه أعداؤه والجاهلون لقواعده ، بل لمواقع الاجتهاد من أصلها من تركه لخبر الآحاد لغير حجة وانه لم يترك خبرا الا لدليل أقوى عنده وأوضح . اهـ .

قال ابن حزم الظاهرى : جميع الحنفية مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة : أن ضعيف الحديث عنده أولى من الرأى اهـ .

وحكى العلامة الشعرانى رحمه الله عن شقيق البلخى : كان أبو حنيفة من أورع الناس وأعلم الناس وأعبد الناس وأكرم الناس وأكثرهم احتياطا فى الدين وأبعدهم عن القول بالرأى فى دين الله وكان لايضع مسألة فى العلم حتى يجمع أصحابه عليها ويعقد عليها مجلسا فاذا اتفق أصحابه كلهم على موافقتها للشريعة قال لأبى يوسف وغيره : ضعها فى الباب الفلانى اهـ . وتقدم فى بيان مرتبته فى الحديث : اذا وردت عليه المسألة . قال : ما عندكم من الآثار ؟ فاذا رووها وذكر ما عنده اختار الأكثر انتهى ما فى مقدمة الأوجز

وقد بسط الكلام فى مقدمة الأوجز على الاعتراضات على الامام أبى حنيفة وأما أصله هذا أن خبر الواحد يجب أن لا يكون مخالفا لظاهر القرآن ولا مخالفا للسنة المشهورة ــ فهو فى الحقيقة قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى قصة طلاق فاطمة بنت قيس حين روت أنها شكت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن زوجها طلقها فلم يوجب لها رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى فقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد سماعه هذا الخبر منها قولته « ما كنا لندع كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم لا ».

اذا صح الحديث فهو مذهبي

هذه مقولة مشهورة للأئمة الأربعة رضى الله عنهم نقلت عنهم بألفاظ مختلفة ولكن الحافظ نقل أثناء بحث مفصل فى فتح البارى فى باب رفع اليدين اذا قام من الركعتين قولا لابن دقيق العيد فى رده على ابن خزيمة : وأما كونه مذهبا للشافعى لكونه قال : اذا صح الحديث فهو مذهبى ففيه نظر اهـ ، قال الحافظ : « ووجه النظر أن محل العمل بهذه الوصية ما اذا عرف أن الحديث لم يطلع عليه الشافعى أما اذا عرف أنه اطلع عليه ورده أو تأوله بوجه من الوجوه فلا » اهـ .

وكلام الحافظ ابن حجر رحمه الله صحيح ـ فقد أورد الامام مالك فى الموطأ رواية لابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا رفع من الركوع رفع يديه ومع هذا رأى الامام مالك ومقولته فى المدونة معلومة وشهيرة : أن رفع اليدين فيما سوى تكبيرة الاحرام ضعيف عنده ، وأيضا يقول رحمه الله انه لم يجد رفع اليدين فى قيام أو قعود . غير تكبيرة الاحرام وقد بسط عنه فى الأوجز . وقد أورد شيخنا فى بذل المجهود فى « باب السارق يسرق مرارا » عدة روايات فى قتل السارق فى هذه الحال ثم نقل بعدها عن الشيخ ابن القيم رحمه الله أنه سئل الامام أحمد بن حنبل رحمه الله : لم تركته فقال لحديث عثمان « لايحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث » .. الخ ـ أى انه ليس فى هؤلاء الثلاث السارق مرارا ـ وبسط فى البذل عنه وقد أردت أن أبين هنا فقط أن الامام أحمد قد وصلت اليه روايات قتل السارق ولكنه لم يعمل بها . وفى الماء : مذهب الامام أحمد « القلتين » مع أنه يقول عن حديث بئر بضاعة انه صحيح كما فى المغنى جـ ١ ص ٢٥ . فثبت أن كلام الحافظ المذكور بأعلاه صحيح .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أيضا فى رسالته « رفع الملام عن الأئمة الاعلام » عشرة وجوه لترك امام من الأئمة للحديث الشريف من

جملتها أن يكون الحديث قد بلغه لكنه لم يثبت عنده ، واشتراطه فى خبر الواحد العدل الحافظ شروطا يخالفه فيها غيره ، واعتقاده أن الحديث معارض بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله ان كان قابلا للتأويل وهكذا ذكر عشرة وجوه وأسباب لترك الحديث ثم قال : فهذه الأسباب العشرة ظاهرة .

وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها فان مدارك العلم واسعة ، ولم نطلع نحن على جميع ما فى بواطن العلماء .

والعالم قد يبدى حجته وقد لا يبديها ، واذا أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا .

واذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لاندركه سواء كانت الحجة صوابا فى نفس الأمر أم لا » انتهى .

وهذا واضح على كل من له ممارسة بالحديث الشريف ــ فان كلا من الأئمة الأربعة وصلت اليه أحاديث صحيحة وصريحة ولكنه لم يأخذ بها لبعض الدلائل القوية الأخرى ــ ونفس (رفع اليدين) فيها روايات كثيرة صحيحة لم يأخذ بها أى أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل الحديث ــ وتفصيل البحث فى الأوجز .

(تنبيه) :

هناك أمر مهم جدا يجب التنبيه عليه بشدة ــ وهو أنه يجب على كل مقلد لامام من الأئمة أنه اذا لاحظ شيئا يخالف رأى امامه أن لا يطعن بل انه يجب أن لا يرد فى قلبه حتى تصور الطعن فى أحد من الأئمة أو السادة المحدثين أو الاستخفاف بأقوالهم وآرائهم أو اساءة الأدب معهم بأى صورة وعلى أى حال .

وقد ألف شيخ الاسلام ابن تيمية رسالة هذا موضوعها وهى « رفع

الملام عن الأئمة الاعلام » وهى نفيسة وبديعة فى هذا المضمون وموجودة فى فتاواه وقد طبعت مستقلة أيضا يقول فيها : يجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم — موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصا العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم .. فان علماء المسلمين خيارهم ، فانهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا — وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا .

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة — المقبولين عند الأمة قبولا عاما — يعتمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء من سنته دقيق ولا جليل ، فانهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلابد له من عذر فى تركه .

ثم ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية عشرة أسباب لترك الحديث وقال بعدها « فهذه الأسباب العشرة ظاهرة وفى كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة فى ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها ، اهـ وقد رد فى رسالته على الطاعنين فى الأئمة المجتهدين وبين أن المجتهد مع خطئه له أجر وذلك لأجل اجتهاده وخطؤه مغفور له وان أصاب فله أجران — وأما ان أفتى واجتهد على جهله فانه يؤثم ويقول : بخلاف الذين أفتوا المشجوج فى البرد بوجوب الغسل فاغتسل فمات فانه صلى الله عليه وسلم قال « قتلوه قتلهم الله ، هلا سألوا اذا لم يعلموا ؟ انما شفاء العمى السؤال » فان هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد اذ لم يكونوا من أهل العلم » اهـ

وقد ورد فى الفتاوى للشيخ ابن تيمية أنه سئل عن الشيخ عبد القادر الجيلانى هل هو أفضل المشايخ ؟ وعن الامام أحمد بن حنبل أنه أفضل الأئمة ؟ فأجاب ببحث نفيس جدير بالمطالعة قال فيه : فمن ترجح عنده

تقليد الشافعى لم ينكر على من ترجح عنده تقليد مالك ، ومن ترجح عنده تقليد أحمد لم ينكر على من ترجح عنده تقليد الشافعى ونحو ذلك .. ثم قال ان كان الرجل مقلدا فليكن مقلدا لمن يترجح عنده أنه أولى بالحق ، فان كان مجتهدا اجتهد واتبع ما يترجح عنده أنه الحق ولا يكلف الله نفسا الا وسعها وقد قال تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » لكن عليه أن لا يتبع هواه ولا يتكلم بغير علم .

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية فى فتاواه أيضا جـ ٢٠ ص ٣٠٤ « ومن ظن بأبى حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم وتكلم اما بظن واما بهوى — فهذا أبو حنيفة يعمل بحديث التوضىء بالنبيذ فى السفر مخالفة للقياس وبحديث القهقهة فى الصلاة مع مخالفته للقياس ا هـ الخ .

وفى (تذكرة الرشيد) بالاردوية نقل الشيخ مولانا عاشق الهى فى بيان أحوال تدريس الامام الربانى الشيخ الكنكوهى قدس الله روحه أنه كان يقول : « انى أحب المذهب الحنفى محبة خاصة وأنا مطمئن على حقانيته » .. ومع هذا كان لا يمكن عند ترجيح المذهب الحنفى على غيره بالدلائل والحجج أن يحصل أى نوع من الاهانة أو التنقيص للمذهب الآخر أو اساءة أدب مع صاحب المذهب وكان قدس الله روحه اذا لاحظ ميلان أحد الطلبة الى شىء من ذلك قومه وأصلحه قولا وعملا — حتى أنه كان لا يحبذ تعدى الحد فى التقليد نفسه أيضا —

فكان يحدث أحيانا أن بعض الطلبة فى شدة تعصبهم يسىء الظن ببعض المحدثين فيغير الامام الربانى أسلوبه رأسا ويأتى بما يصلح ذلك بحكمة بالغة .

وكان اذا سمع من أحد الطلبة كلمة اعتراض أو تنقيص فى ذات أحد من المحدثين كنت ترى أن أثر الكراهية من ذلك قد بدى على وجهه — وحينئذ وفى نفس الساعة وفى نفس الدرس يترك بيان وجوه ترجيح مذهب الحنفية ويشرع فى بيان وجوه مذاهب المحدثين الآخرين كالبخارى وغيره

رحمهم الله حتى يحصل حسن الظن بالسادة المحدثين رحمهم الله أجمعين وقد نقلت فى رسالتى « آب بيتى » بالاردوية فى الجزء السادس منها ــ قصة نقلها حكيم الأمة العارف التهانوى أن أحد العلماء تأثر من درس الامام الكنكوهى قدس الله روحه فقال متحمسا : ان الحديث أيضا اذا جاءك صار حنفيا « وكان قصده : أنه ما من حديث الا وتؤيد به للحنفية ، ولو كان الامام الشافعى أيضا حيا لما استطاع أن يرد عليك حجتك ، فزجره الامام الربانى بشدة وقال : ما هذا الذى قلته يا هذا ــ ان الامام الشافعى رضى الله عنه لو كان حيا هل ترانى كنت تجرأت أن أتفوه بحضرته وماذا ترانى أقول له ــ انما كنت قلدته وتركت تقليد الامام أبى حنيفة لأنه لا يناسب فى حين وجود المجتهد الحى أن أقلد مجتهدا غير حى» اهـ هكذا نقل الشيخ التهانوى ويذكر هذا العاجز فى رد الامام الربانى على هذا الشخص حسب ما سمعته من بعض الأكابر أنه قال : لو كان الامام الشافعى حيا ــ لكان تقريرى هذا كله اشكالا علميا واهنا ولرد عليه الامام الشافعى بحجته » .

وفى عهد تدريس هذا الفقير فى مظاهر العلوم [1] كان عامة يشرع فى

---

(١) جامعة « مظاهر العلوم » الدينية بسهارنبور ــ بالهند ــ الشهيرة فى الآفاق ، قد أنجبت رجالا عظماء خدموا الاسلام والعلم فى شتى الميادين وخاصة فى خدمة الحديث الشريف ذكر الشيخ أبو الحسن الندوى فى « القراءة الراشدة » فى تاريخها ما ملخصه : فى سنة ١٢٨٣ هـ افتتح رجال من أهل العلم والدين وفى مقدمتهم مولانا سعادت على السهارنفورى الفقيه المشهور فى مدرسة سهارنفور وفى شوال من العام المذكور تولى رئاسة التدريس بها الاستاذ الكبير مولانا محمد مظهر النانوتوى ربه تسمت المدرسة بمظهر العلوم وزيدت فيها الف لتنم عن عام بناء بناية المدرسة الخاصة بها يعنى عام ١٢٩٣ هـ على حساب الجمل وفى هذه السنة بدا المحدث الكبير الشيخ أحمد على السهارنبورى صاحب حاشية البخارى الشهيرة يدرس كتب الحديث فى المدرسة ويشرف على شئونها ، ثم تبوأ رئاسة التدريس الشيخ الصالح والاستاذ الكبير مولانا خليل احمد الانبهيتوى صاحب بذل المجهود فى حل أبى داود سنة ١٣١٤ هـ فأخذت المدرسة زخرفها وبلغت أوجها فى كثرة الطلبة وانتشار الصيت وانتظام الدروس ولم تزل مظاهر العلوم متمتعة من أول يومها بحماية أعلام الهند فى الدين والصلاح وحازت ثقة المتدينين فكانت تلو دار العلوم ديوبند فى كثرة الطلبة ونبوغ الاساتذة

الدرس من أول كل عام يوم الأربعاء وكان هذا الفقير بعد ذلك والى الأربعاء الأخرى فى الاسبوع القادم يبدأ فى بيان مقدمة العلم ومقدمة الكتاب ومتفرقات أخرى — آخرها بحث « آداب الطالب » وأبين فيه عشرة أشياء بكل اهتمام وكان حينئذ عهد الشباب والقوة والعزيمة — « والشباب شعبة من الجنون » كنت أبين للطلبة هذه العشرة أشياء فى أول العام الدراسى شفهيا — ثم طوال بقية العام ان رأيت أحدا خالف فى أحدها كنت أقوم اليه من مقعدى وأصفعه كفا ساخنا ثم أرجع الى مكانى بدون أن أتفوه بأى كلمة — فكان الطلبة المستمرون من أول العام يفهمون لم حدث هذا — ولكن الضيوف الواردين من غير الطلبة أو الطلبة القادمين من مدارس وجامعات أخرى وكانوا كثيرا ما يحضرون — يتعجبون من هذا المنظر فيضرب طالب فى درس الحديث ولا كلمة ولا عتاب ثم يرجع الشيخ الى مجلسه هكذا ؟ — وكان هؤلاء بعد الدرس يسألون الطلبة المداومين عن السبب فيجيبونهم بأنه ربما كان المضروب نائما أو أنه اتكأ بمرفقه على الكتاب أو نحوه .. وهذه الأشياء العشر أذكر منها :

١ — اخلاص النية .

٢ — المواظبة على الدرس ولا تجد فى دفتر حضورى لتلك الأيام أمام اسم أى طالب حرف (غ) طوال سنوات عديدة .

٣ — وجوب التراص فى الصف .. أى أن الطلبة الجالسين يجب أن يجلسوا متراصين فى الصف وبكل أدب وجزم .

٤ — لا نوم فى الدرس بتاتا .

= وقد خرجت عددا كبيرا من العلماء والصالحين والرجال العاملين فى ميادين العلم والدين ولعلماء مظاهر العلوم آثار جليلة فى شرح كتب الحديث وخدمة هذا الفن الشريف — وتمتاز مظاهر العلوم وأساتذتها وطلبتها ببساطة فى المعيشة والقناعة بالكفاف وحسن السمت والتواضع والاقبال الكلى على العلم والدرس والاشتغال بخاصة النفس » انتهى كلام الشيخ الندوى مختصرا — قلت وبجامعة مظاهر العلوم مكتبة زاخرة بكتب التراث النفيسة وفيها مخطوطات نادرة أيضا .

٥ — لا يتكىء أحد على الكتاب .

٦ — المواظبة على أن لا يفوت الطالب أى حديث فى الدرس أمام الشيخ ، وعدم الحضور للدرس جملة كانت أخطر جريمة .

٧ — كان من عادتى أنه عندما تأتى فى الحديث فى كتاب الحدود وغيرها الكلمات الفاحشة والسب وغيرها كنت أترجمها من العربية الى الاردوية بالمعنى الصريح فى الأردوية مباشرة وبدون أى اغماز أو كناية وأوضح معناها جيدا فكان يشترط وبكل شدة أن لا يضحك أحد من الطلبة أثناء ذلك بتاتا وانما يجب الحزم والوقار التام حينئذ — وذلك لأنه كان فى رأيى دائما أنه كما أن هذه الكلمات فى اللغة الأردوية بمفهومها هى كذلك فى اللغة العربية أيضا فلم أتصور أن لسانى القذر النجس أطهر من لسان سيد الكونين صلى الله عليه وسلم أو من لسان الصديق الأكبر وغيره رضى الله عنهم فان ما تلفظوا به ولم يترددوا فيه كيف أتصور أنها سب وبذاءة ولا أترجمها بحذافيرها بالاردوية ؟ — فمثلا عندما يرد فى الحديث الشريف لفظه « أنكتها » أو لفظه « أمصص بذر اللات » ونحوها فانى أترجمها فى الدرس بالاردوية بكل صراحة بالألفاظ الدالة على نفس المعنى بدون كناية باللغة الأردوية — وهكذا .. ومع هذا كله كان مفهوما لدى الطلبة بشدة أن لا يضحكوا لذلك بل يلتزموا بالحزم والوقار التام .

٨ — أن يعامل جميع أئمة الفقه بكل أدب واحترام ولا يعترض على أى منهم اطلاقا ولا يتلفظ بشى يسىء الأدب فى حقهم بل ولا يتصور الطالب فى قلبه اساءة الأدب مع أحدهم — ان بعض الحمقى بناء على تمسكه بالمذهب الحنفى نجده يحمل على بقية الأئمة المتبوعين وبعض السفهاء يحمل على أئمة الحديث بكلمات ناقدة وهذا مما يؤسف له جدا وكنت دائما أكرهه .

٩ — احترام الأساتذة واكرامهم ليس ظاهرا فقط بل ويحترمهم بقلبه والاحرام العلم .. وكذلك اكرام كتب الحديث الشريف أيضا داخل فيه .

١٠ ــ عدم الإعتراض على أئمة الحديث .

هذه العشرة ذكرتها هنا مختصرا حسب ماتذكرتها ــ ولقد نشر العزيز محمد شاهد سلمه الله تقرير درسى لصحيح البخارى وذكر فيه هذه الأشياء كلها ببعض التفصيل . وقد ذكرتها أيضا مفصلة فى رسالتى « آب بيتى » بالاردوية فى الجزء السادس منها ــ وفيها أيضا « الهيئة الشخصية » فقد كنت أشدد فيها أيضا وكنت أهتم بأمر اللحية جدا وأتشدد فيه ــ وكان من المستحيل أن يشترك مقصر اللحية فى الدرس طالبا مداوما .

وحدث مرة أن كان أحدهم يقصر لحيته ويشترك فى كل الدروس وعند جميع المدرسين فلم ينتبهوا لذلك ــ وقلت له : لقد شطبت اسمك من درس أبى داود (وكنت حينئذ أدرس سنن أبى داود) ولكنه مع ذلك استمر يداوم على الدرس ــ وفى امتحانات ربع السنة كان اسمه فى دفاتر حضور جميع المدرسين الا دفتر أبى داود فظن الناظم أنه ترك سهوا ــ فسألنى ــ وكنت موجودا فى صالة الامتحانات فقلت له : لم يترك اسمه سهوا ــ وانما لأنه كان يقص لحيته شطبت اسمه من درسى ، ومع أن نظام المدرسة كان لا يسمح للمدرس أن يشطب اسم أحد من الطلبة فالناظم وحده هو الذى كان له حق الشطب ولكن شفقة أكابرى على كانت تجعلنى أشطب اسم من أرى من الدفتر بنفسى لسبب كهذا وأقول للطالب بأنى قد شطبت اسمك وان شئت فاذهب واشتكينى لفضيلة الناظم .

ان محبة أكابرى وسادتى هؤلاء وشفقتهم جعلتنى جريئا عليهم رفع الله درجاتهم وأعلى مراتبهم لديه وأعفى عنى وغفر لى تقصيراتى بفضله وكرمه .

وبعد هذه القصة بسنة أو سنتين وصلتنى رسالة من نفس هذا الشخص الذى كنت شطبت اسمه بأنه يرغب فى مبايعتى فى الطريق فرديت عليه بأنك قد جربت سوء خلقى ولاحظت تشددى ثم ان سيدى العارف التهانوى وسيدى شيخ الاسلام المدنى وسيدى العارف الشيخ الرائىبورى

وغيرهم من الأكابر وخلفائهم الكرام موجودون فبايع منهم من شئت فانهم جميعا خير منى على كل حال وأفضل من كل ناحية وأيضا أحسن منى خلقا فرد على برسالة أخرى قال فيها : ان قاسيا مثلى لا يمكن اصلاحه الا بمثلك » .

لقد طال الحديث فى الموضوع مع أن المقصود كان بيان أن هذا الفقير كان يشدد دائما فى درس الحديث الشريف على أن اساءة الأدب سواء كانت مع أئمة الفقه أو مع أئمة الحديث أو الأساتذة والمشايخ انما هى جريمة شنيعة جدا يجب الاحتراز عنها .

الطريقـــة

لقد سبق ذكر أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليــه وسلم : ما الاحسان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. الخ الحديث .

والطريقة فى الواقع هى اسم ثان للاحسان المذكور ــ أو أنها الطريقة التى يمكن بها الحصول على صفة « الاحسان » ــ وهو الذى يقال له التصوف أو السلوك ــ أو سمه بما شئت ــ فانما هى تعبيرات وألفاظ مختلفة والمقصود واحد .

ان جدى مولانا الشيخ محمد اسماعيل الكاندهلوى طلب من الامام الربانى الكنكوهى قدس الله روحه أن يختلى به ليكلمه ــ وهناك قال له : انى كنت قد بايعت فى الطريقة مولانا الشيخ محمــد يعقــوب الدهلوى وأخذت الوصايا والتعليمات من مولانا الشيخ مظفر حسين الكاندهلوى .. وكانت تعليمات الشيخين المذكورين على الطريقة النقشبندية ــ وبالعمل على تعليماتهما وخلال ثمانية أيام فقط كانت لطائفى الستة تدور كالبكرة ــ ولكنى من صغر سنى كنت مغرما باتباع السنة المطهرة فى جميع الشئون والمحافظة على الاذكار الواردة فى الأحاديث فى جميع الأحــوال كالذهاب الى الخلاء والخروج الى السوق والدخول الى المساجد والخروج وغير ذلك فكنت اهتم بهذه الأذكار كثيرا جدا ــ لذلك لم يشغف قلبى بأعمال المشايخ كثيرا فكنت أعمــل المراقبة أحيــانا ، ففى عشرة أيام مرة أو فى أسبوعين مرة وهكذا ــ فهذا حالى والآن وقد طرأ الضعف لكبر السن وأرغب أن تــكرمونى ببعض التعليمــات فى الطــريق ــ فســأله الامام الكنكوهى : هل الأعمال التى تحافظ عليها هذه حصلت لك فيها درجــة الاحسان ؟ فقــال : نعم حاصــلة فقــال له الامام الربانى حينئــذ : اذن فلا حاجة لك الى أية تعليمات لأن الاشتغال بأشغال الصوفية بعد الحصول

على مرتبة الاحسان مثاله كمن يدرس كتاب « كريما »[1] بعد أن يكون قد فرغ من دراسة كتاب «كلستان بوستان[2] »ـ وهذا ظاهر أن هذا فيه تضييع محض للوقت ـ لذا فان اشتغالك بأشغال المشـــايخ ما هو الا تضييع للوقت ومعصية « كذا نقل فى ارواح ثلاثة » بالاردوية ص ٢٩٩ وقد سمعت هذه القصة من أكابرى أيضا وسمعت فيها أن الامام الكنكوهى قال : ان مثله كمثل رجل حافظ للقرآن ثم يقــول انى لم أقرأ القـاعدة البغدادية فاقرئونى اياها .

ونقل عن الامام الكنكوهى قدس الله روحه فى مقـام آخـر انه قال « ان قوة الرسول صلى الله عليه وسلم الروحانية كانت لدرجة أن أعتى كافر كان يتحصل على مرتبة الاحسان بعد اقراره بالشهادتين مباشرة ـ ونظير ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم كيف تتخلى وكيف تتعرى أمام الله ـ وهذه هى النهاية العظمى ، وكانوا لا يحتاجون الى أنواع المجاهدات والرياضات وانما يتحصلون على هذه القوة الروحانية بالفيض النبوى الشريف « صلى الله عليه وسلم » ولكنها كانت أقل درجة من الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهكذا كانت موجودة فى التابعين رحمهم الله ولكن أقل درجة من الصحابة رضى الله عنهم وثم فى اتباع التابعين كانت أيضا موجودة هذه القوة الا أنها كانت قـد ضعفت جدا ـ ولجبر هذا النقص أوجد المشايخ السلف المجاهدات والرياضات ـ فمضت الى مدة من الزمن كوسائل غير مقصودة بذاتها ـ ولـكن كلما ابتعد الزمن عن خير القرون كلما صار يدخل اليها شان المقصودية ـ ثم بين حين وآخر كانت تضاف اليها أشياء أخرى أيضا حسب الضرورة فنتج من ذلك كله أن دخلت الى الدين بدعات علمية وعملية واعتقادية كثيرة ـ وقد اجتهد الصوفية المحققون فى اصلاح هذه المفاسد ولكن نتج عن ذلك أن قلت البدعات جدا فقط ولكنها لم تنته كليـا . وذكر قدس روحه فى المصلحين الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى

---

(١) من الكتب التى تدرس فى الابتدائية للغة الفارسية .
(٢) من كتب الأدب الكبيرة فى اللغة الفارسية .

ومجدد الألف الثانى الشيخ السرهندى والسيد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوى قدس أرواحهم باختصاص وقال ان هؤلاء قد أصلحوا كثيرا ولكن لم تقلع المفاسد بالكلية .

وقال أيضا : ان الحق تعالى شأنه قد كشف لهؤلاء السادة طريق السنة المطهرة ــ ثم قال : ان من بركات طريق السنة الشريفة أن الشيطان قلما يستطيع قطع الطريق على السالك فمن الواضح على الجميع أنه لو اهتم شخص بالأمور التى كان يهتم بها نبينا صلى الله عليه وسلم كالصلاة مع الجماعة ونحوها وبالغ فى الاهتمام بالفرائض والواجبات والسنن المؤكدة فلا هذا الشخص يتوسوس فى نفسه أنه أصبح وليا ولا الناس يعتقدون فيه أنه من الأولياء الكاملين ولكن لو اهتم شخص بالأمور التى لم يهتم بها صلى الله عليه وسلم كصلوات الضحى والاشراق والنوافل بعد المغرب وغيرها فانه هو أولا يظن فى نفسه أنه أصبح وليا والآخرون أيضا يرونه من الأولياء .

ومما قاله أيضا « ان الشارع عليه السلام جعل « الاحسان » هو المطلوب ولكن الصوفية جعلوا بدله « الاستغراق » مقصودا » اهـ .

وبذيله حشى حكيم الأمة التهانوى نور الله مرقده : قوله : « قال الصحابة » .. الخ . أقول روى البخارى فى كتاب التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا الى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا الى السماء فنزل ذلك . أى قوله تعالى « ألا انهم يثنون صدورهم » .. الآية فيهم ، وقوله : « ولكن الصوفية جعلوا بدله .. الخ » أقول : المراد نفس الصوفية غير المحققين ــ كذا فى (أرواح ثلاثة) اهـ .

لقد ذكرت فى البداية أن أكابرى عندهم التصوف والاحسان شىء واحد وهو جزء من الشريعة الغراء ومؤلفات أكابرى مليئة بذلك وقد شدد على ذلك سيدى الشيخ أحمد السرهندى مجدد الألف الثانى فى رسائله وقد نشرت أنا ثلاثة رسائل لسيدى السرهندى : أولاها منه الى الأنجال أى

أبناء شيخه ومرشده الخواجه « الباقى بالله » وهى رسالة طويلة ومهمة جدا جديرة بالمطالعة ذكر فيها :

ان حصول التصفية والتزكية مرتبط بأداء الأعمال الصالحة التى تكون لرضاء الله تعالى وهذه موقوفة على بعثة الأنبياء ـ اذن فلا يتمكن من حقيقة التصفية والتزكية بدون البعثة ـ وأما الصفاء الذى يحصل عليه أهل الفسق والكفر فهو فى الحقيقة صفاء النفس وليس بصفاء القلب وصفاء النفس لا يقود الا الى الضلال والخسران .

وفى حالة صفاء النفس هذه ما يحصل لأهل الكفر والفسق من كشف لبعض الأمور الغيبية فانه استدراج « ثم شدد رحمه الله جدا على تصحيح العقائد وذكر بعدها » : ثم بعد تصحيح العقائد لا مفر من تعلم الأحكام الفقهية ـ ويجب تعلم الفرائض والواجبات والحلال والحرام والسنة والمندوب والمشتبه والمكروه من الأمور وكذلك يجب العمل بمقتضى علم الفقه وبعد التمكن من الاعتقاد والعمل الصحيحين « وهما كالجناحين » ثم ان شمل المرء التوفيق الربانى فحينئذ سلوك طريق الصوفية وهذا السلوك ليس للحصول على شىء زائد وجديد على هذا الاعتقاد والعمل ـ بل المقصود منه تحصيل اليقين والاطمئنان من ناحية المعتقدات ذاتها بحيث لا يمكن ازالته بتشكيك أى مشكك فيها وبحيث لا يبطل بورود أية شبهة كانت .

ثم هناك فائدة أخرى من السلوك وهى الحصول على السهولة لأداء الأعمال وازالة الكسل والعصيان الناتجة عن النفس الأمارة بالسوء .

ليس المقصود من سلوك طريق الصوفية أن تحصل للمرء مشاهدة الصور والأشكال الغيبية أو معاينة أهل الأنوار ـ فان هذا كله داخل فى اللهو واللعب ـ ثم ما مضرة هذه الصور والأنوار الحسية التى نشاهدها ونعاينها فى كل ساعة ولماذا يتركها الشخص ويتعب نفسه فى الرياضات والمجاهدات المتعبة متمنيا الصور والأنوار الغيبية اذ أن هذه الصور الحسية وتلك الصور الغيبية وهذه الأنوار وتلك الأنوار انما هى كلها

مخلوقة وآيات تدل على وجود الله تعالى عز شأنه » لقد ذكر هذا المقصر فى البداية أن ما علمه جبريل عليه السلام (أى فى حديث جبريل) ا هـ كان أول شيء فيه الايمان (أى الاعتقاديات) والثانى : الاسلام (أى الأعمال الشرعية) والثالث : الاحسان ـ (يعنى السلوك) وقد ذكر بهذا الترتيب أيضا فى رسالة السيد المجدد السرهندى قدس الله روحه هـذه مفصلا ـ وقد بين قدس سره فى رسالة أخرى أن الشريعة كفيلة بجميـع السعادات الدنيوية والأخروية وأن الطريقة والحقيقة خادمة للشريعة حيث يقول : ان الشريعة ثلاثة أجزاء : العلم والعمل والاخلاص ، وما لم تتحقق هذه الأجزاء الثلاثة كلها لا تتحقق الشريعة وبتحقيق الشريعة تحصـل على رضاء الله سبحانه وتعالى ـ ورضاء الحق عز وجل هذا أعلى وأرفع وأعظم من جميع السعادات الدنيوية والأخروية (ورضوان من الله أكبر) فالشريعة هى الضامنة لجميع سعادات الدارين فلم يبق اذن أى مطـلوب يحتاج الحصول عليه سوى الشريعة ، والطريقة والحقيقة التى امتاز بهـا الصوفية كلاهما تعملان لتكميل الجزء الثالث من الشريعة أى الاخلاص ـ اذن فالغرض من تحصيلها ما هو الا تكميل الشريعة وليس أى أمر آخر على الاطلاق ـ وأما ما يحصل للصوفية من أحوال ومواجيـد وعـلوم ومعارف سوى الشريعة أثناء السلوك فهذه ليست بمقاصد وانما شـأنها شأن الخيالات التى تربى بها أطفال الطريقة ـ وانما ينبغى أن يتقدم عن كل هذه الأشياء الى مقام الرضا .

اذ أنه هو المقام الذى تنتهى اليه مقامات الجـذب والسـلوك فليس هناك أى مقصود من عبور منازل الطريقة والحقيقة سوى الحصول على الاخلاص ـ والاخلاص مستلزم لرضا البارى عز وجل ويوصل واحـد من الألف بعد العبودية من التجليات والمشاهدات العرفانية الى مقام الرضا والاخلاص العظيم .

وعميان البصيرة يظنون أن الأحـوال والمواجيـد هى المقاصـد وأن المشاهدات والتجليات هى المطالب لذلك تجدهم أسارى فى سجون الأوهام والخيالات ومحرومون من كمالات الشريعـة المطهرة ، الا أنه صحيح أن

الحصول على مقام الاخلاص ومرتبة الرضا مرتبط بتحقق هذه الأحوال والمواجيد والعلوم والمعارف ، لذلك فان هذه الأحوال والمواجيد مقدمات للمقصود وليست المقصود نفسه ــ وقد توضحت لى هذه الحقيقة ببركته صلى الله عليه وسلم بعد أن سرت فى هذا الطريق مدة عشر سنوات كاملة وتجلى لى شاهد الشريعة كما هو حقه مع أنى والحمد لله لم أكن من البداية أسيرا للأحوال والمواجيد ولم يكن نصب عينى أى هدف سوى تحقق حقيقة الشريعة ولكن ظهرت لى حقيقة الأمر بكل وضوح بعد عشرة كاملة من السنين •

فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه مباركا عليه ، « تجليات ربانى » ص ٥٣ ، قلت : وأنا أحمد الله وأشكره سبحانه أن هذا العاجز أيضا أجاب مولانا الشيخ حبيب الرحمن اللدهيانوى رئيس جماعة الأحرار على سؤاله المتعلق بحقيقة التصوف : « ان التصوف ما هو الا اسم لتصحيح النية » كما ذكرت ذلك مفصلا فى رسالة « آب بيتى » (بالاردوية) وذكرت هناك قصص أخرى فى نفس الموضوع •

وقد شدد الخواجه محمد معصوم النقشبندى رحمه الله أيضا فى رسائله على هذا الأمر أيضا كثيرا فيقول فى الرسالة رقم (٦٠) :ـ

« ان كمالات الولاية نتيجة لصورة الشريعة ، وكمالات النبوة ثمرة لحقيقة الشريعة ، فاذن ليس هناك أى كمال من كمالات الولاية أو كمالات النبوة يكون خارج دائرة الشريعة أو مستغنيا عن الشريعة » •

ويقول فى رسالة أخرى قدس روحه : « بعد تصحيح العقائد من الضرورى جدا موافقة رأى أهل السنة والجماعة الصائب (المأخوذ من الكتاب والسنة) وأيضا لا مفر أبدا من أداء الفرائض والواجبات واجتناب المحرمات •• ان أساس الاسلامية على خمسة أشياء « وقد مر ذكرها فى حديث جبريل » فان عدم وجود أحد هذه الخمسة خرب بيت الدين وكان ناقصا ــ وبعد تصحيح العقائد والأعمال الصورية (الظاهرية) يأتى سلوك طريق الصوفية وهذا أيضا ضرورى حتى تتحصل معرفة الحق

سبحانه ـ وينجو من خطر الأهوار النفسية ، لا أستطيع أن أفهم أن الشخص الذى يكون خاليا من معرفة وليه (أى الله عز وجل) ويجهله سبحانه كيف يعيش هذا المسكين وكيف يستأنس بالأشياء الأخرى دونه سبحانه » .

ويقول نور الله مرقده فى رسالة أخرى له « ان أخى ملا حسن على حرر شبهة على رسالة أرسلتها الى الأخ عبيد الله بيك وطلب منى جوابا لها ، والشبهة هى أن امتياز الحسن والقبيح يكون فى مقام الشريعة ، فقد رأى مكتوبا فى بعض الرسائل المؤلفة « أن فى الطريقة يكون الصلح مع الجميع والصداقة مع الكل » الخ . وهى شبهة غريبة وفاسدة فكيف تكون مقارنة الطريقة بالشريعة ؟ ومن أين جاءت المساواة بينهما حتى تقارن بينهما ـ ان الشريعة قد ثبتت بالوحى القطعى الذى لاشك فيه ولا ريب أبدا ، لا تبديل لأحكامها ولا تغيير فنفس الأحكام باقية مستمرة الى قيام الساعة والعمل بمقتضى الشريعة واجب ولابد منه لجميع العامة والخاصة ـ ولا يمكن للطريقة أن تجرؤ على رفع أى حكم من أحكام الشريعة الغراء أو تحرر أحدا من أهل الطريقة من التكاليف الشرعية الكريمة . وان من عقائد أهل السنة والجماعة القطعية أن المرء بحالته المعتبرة بعقله بحواسه لا يصل قطعا أبدا الى درجة تسقط عنه التكاليف الشرعية ومن اعتقد بخلاف هذا فقد خرج عن دائرة الاسلام فالحب والولاء للجماعة التى يعاديها الله عز وجل ويأمرنا فى حقهم بالغلظة والشدة يعتبر خروجا على الاسلام ـ فان هذا الأمر ودعوى محبة الله ورسوله لا يمكن أن يجتمعا فى قلب واحد لأن اطاعة المحبوب ومحبة أحباب المحبوب ومعاداة أعداء المحبوب من لوازم المحبة ، نعم صحيح أنه بعض السالكين ترد لهم بعض الأمور التى تكون فى الظاهر مخالفة للكتاب والسنة فعلى السالك فى أنه لا يفلت منه رأس حبل الشريعة فى هذه الساعة فيشد عليه بالنواجذ ويعمل بخلاف كشفه ووجدانه مقلدا أهل السنة والجماعة على اعتقادهم وعملهم ـ فى بعض الأحيان تجاول أوساخ طريق السلوك بنداء « انى أنا الله » أن تحول السالك المسكين عن المطالب العليا وتدعوه لعبادتها . فى هذه الساعة يجب على السالك المستقيم أن يقول

كما قال الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام « لا أحب الآفلين » وبموجب « وجهت وجهى » يفر الى ميدان غيب الغيب ويتابعه صلى الله عليه وسلم فى كل خفض ورفع حتى لا يقع فى أسر زيغ البصر » (مكتوب خواجه معصوم رقم ٧٣) •

وبمناسبة ما أشار اليه سيدى الخواجه معصوم فى رسالته هذه ـــ نقل فى آب بيتى رقم ٥ ص ١٩٧ برواية الامام النانوتوى عن كتاب « الأرواح الثلاثة » أن أحد المشايخ وهو الخواجه أحمد جام وكان معروفا عنه أنه مستجاب الدعوات أتت اليه امرأة بابن لها أعمى وطلبت منه أن يمسح على عينيه بيده ليشفى من عميه وكانت تغلب عليه حينئذ حالة العبودية فقال لها بعجز وانكسار بأنى لست أهلا لذلك وأنا من أنا ؟ وأصرت المرأة فأجابها بنفس الجواب وهكذا تكرر الطلب من ناحية المرأة ثلاث أو اربع مرات والشيخ يجيبها بنفس الجواب فعندما وجدها لا تقبل منه عذرا ومصرة على طلبها قام وغادر المكان قائلا ان هذا كان من أعمال عيسى عليه السلام أنه كان يبرىء الأكمه والأبرص وأما أنا فلست كذلك ـــ ولم يبتعد الشيخ كثيرا حتى ألهم « من أنت ومن عيسى ومن موسى ارجع وامسح على وجه الأعمى لا أنت تبرئه من عماه ولا عيسى ولا غيره وانما « ما مى كنيم » (أى نحن نفعل) وبعد سماعه لهذا الالهام رجع وأخذ يكرر عبارة (ما مى كنيم •• ما مى كنيم) حتى وصل الى الأعمى ومسح على وجهه فارتد بصيرا » •

بعد رواية هذه القصة قال الامام النانوتوى نور الله مرقده : ان بعض الحمقى يظنون فى هذه الأحوال أنه يقول (ما مى كنيم) أى (نحن نفعل) عن نفسه مع أن هذا لا يكون قولهم هم وانما يكون ذلك قول الحق تعالى، فعندما يسمع أحدهم شعرا حسنا من مغن حسن الصوت تجده لتلذذه به يكرر ذاك الشعر مرات وكرات ويتلذذ بذلك ـــ فهكذا هنا أيضا كان يكرر نفس عبارة الالهمام (ما مى كنيم) تلذذا بها •

ويقول الشيخ العارف التهانوى رحمه الله فى حاشيته لهذه القصة :

قوله : انه قول الحق تعالى الخ . أقول : ان أحسن تأويل لقول منصور الحلاج « أنا الحق » هو هذا ، (آب بيتى جزء ٥ ص ١٩٧) . .

وقد ذكرت فى آب بيتى رقم (٥) عبارات كثيرة عن المشايخ مثل هذه ثم ذكر هناك بعدها : ان الغرض من هذا التحرير أن المرء يجب عليه أن يشغل نفسه فى محاسبتها واصلاحها دائما ولا يضيع وقته فى الطعن فى الآخرين والبحث عن عيوبهم خاصة الأكابر منهم والعلماء المعتمدين فلا يتشبث بالطعن فيهم — وعلى كل فانه لا اتباع لأحد أبدا مهما كان بخلاف الشرع وأنت لست مسئولا عن أقوالهم وأفعالهم » .

ويقول الخواجه معصوم فى رسالة أخرى له :

وينبغى أن يشد العزم على أداء الأحكام الشرعية باهتمام اجعلوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منهاج حياتكم واهتموا باحياء السنن المتروكة واسعوا لاخفاء كل ما يرد للقلب من واردات ولا يتكل على الأحلام والرؤيات فانه ان رأى شخص فى منامه أنه أصبح ملكا أو قطبا لعصره فما الفائدة ؟ فان الملك والقطب انما هو من تحصل على منصب الملوكية أو منصب القطبية فى خارج المنام — وبالفرض لو أصبح أحد ملكا فى هذه الحياة الظاهرة وسخر له الكون فأية مكرمة هذه وأية فضيلة ؟ وهل ينجو بذلك من عذاب القبر وعذاب الآخرة وهو الأصل .

ان أولى العزم من الرجال لايلتفتون الى مثل هذه الأمور وانما يجتهدون دائما فى مرضيات البارى عز وجل ويسعون فى فناء نفوسهم واخفاء الواردات الغيبية .

آمل من أصدقائى أمثالكم أن لا تغفلوا عنى وتسألوا لهذا الفقير من البارى عز اسمه الرحمة والمغفرة » (مكتوبات خواجه معصوم ص ١٧٤) .

ويقول فى رسالة أخرى نور الله مرقده :

« الآن لبعدنا عن عهد النبوة وقرب القيامة صارت البدعة تنتشر

وتحيط ظلماتها أغلب العالم ــ وأصبحت السنة نادرة وغريبة وأصبحت أنوارها مستورة فشدوا أزركم لاحياء السنن المتروكة ونشر العلوم الشرعية واتخذوا هذا الأمر الوسيلة العظمى للحصول على رضاء البارى جل شأنه واعلموا أن فى هذا قرب الجناب المحمدى أيضا فقد ورد فى الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد » .

والدرجة الأولى لاحياء السنة هى أن يبدأ أولا العمل بها شخصيا ، والدرجة العليا : أن يجتهد لنشر اشاعة السنة فى الآخرين ليعملوا بها . (مكتوبات خواجه محمد معصوم ص ٢٩٠) ويقول الشيخ التهانوى نور الله مرقده فى مؤلفه « تعليم الدين » ص ١٨٢ : فى بحثه اصلاح خطأ من يظن أنه لا حاجة للفقراء الى اتباع الشريعة .

ورد فى الفتوحات أن كل حقيقة تخالف الشريعة فهى مردودة وزندقة وفيه أيضا أن من قال ان هناك سبيل آخر الى الله غير ما بينه الشرع فقد كذب ، لذا فلا يتخذ شيخا من لم يكن لديه أدب ، وأيضا « ليس لنا سبيل الى الله الا ما ورد فى شرعه والا ما بينه الشرع الكريم .

ويقول بايزيد البسطامى رحمه الله « ان رأيت شخصا قد أعطى الكرامات حتى انه يطير فى الهواء فلا تقتربه حتى ترى حاله فى الأمر والنهى وحفظ الحدود والتمسك بالشريعة .

وعن الجنيد رحمه الله أن كل سبيل مسدود الا من مشى مقتفيا خطى الرسول صلى الله عليه وسلم .. وفى الفتوحات أنه من لم يعلم أمر الله فلا مقام له عند الله لأن الله لم يتخذ جاهلا وليا ، وفيه أيضا أن عمل السوء مع العلم خير من العمل بالجهل ، ويقول الشيخ التهانوى : وذلك لأن العالم لوأخطأ أو ساء عمل فانه لن يسوء الى درجة أن يبلغ به الي الكفر أو الشرك وبما أنه عالم لا باساءة فيرجى منه التوبة بخلاف الجاهل فأحيانا حتى الأعمال الضرورية كالصلاة والصوم تكون فاسدة وأحيانا لجهله

يرتكب ما يوجب الكفر وبما أنه لا يكون عالما بهذه الاساءة العظيمة لا يوفق للتوبة . وقد بسط فيه الشيخ التهانوى فى تعليم الدين .

كان والدى رحمه الله مرة يغتسل فى أيام الحر وكان اثنين أو ثلاثة من تلاميذه الأقوياء النشطين يملأون السطول ماء ويصبونها عليه ـ فقال له أحدهم وكان جالسا بجانبهم : ياسيدى الشيخ أليس هذا من الاسراف ؟ فقال والدى : بالنسبة لك اسراف أما أنا فلا ، فسأله : ولم ذلك ؟ فقال : لأنى عالم وأنت جاهل ، فقال : اذن صدق الذين يقولون أن المشايخ يجوزون لأنفسهم ما شاءوا ؟ فقال والدى : نعم هذا صحيح من وجه ، ولا ينبغى للعلماء أن ينزعجوا من مثل هذه العبارات لأنه يكون هناك عمل مثلا يفعله الجاهل ، وبسبب جهله يعمله بصورة يصبح بها هذا العمل معصية واساءة ، ونفس العمل يعمله العالم بصورة يكون بها صحيحا وطاعة ا هـ .

ـ عن أبى سعيد قال جاء بلال الى النبى صلى الله عليه وسلم بتمر برنى . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (من أين هذا ؟ قال : كان عندنا تمر ردىء فبعت منه صاعين بصاع ، فقال : أوه عين الربا عين الربا لا تفعل ، ولكن اذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به) متفق عليه .

ظاهر أن الجاهل لا يرى أى فرق بين هاتين الصورتين المذكورتين فانه يظن أنه أخذ صاعا من البرنى بدل صاعين من الردىء ولكن العالم يشتريه فى صورته الصحيحة شرعا فأولا يبيع التمر الموجود لديه بريا لين مثلا ثم يشترى صاعا من البرنى بهذه الريالين ونحو ذلك .

وقد شدد شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى رحمه الله أيضا فى مكاتيبه كثيرا على أن المقصود الأصلى من السلوك هو الاحسان فيقول فى احدى مكاتيبه (عزيزى المحترم : المقصود الأصلى من السلوك هو الاحسان أى أن تعبد الله كأنك تراه ، الحديث يعنى أن السالك تتولد فيه ملكة راسخة وهذا من حيث البداية ، وأما النهاية فهو الحصول على رضاء البارى عز اسمه ـ ثم قال شعرا فارسيا ترجمته :

ما هذا الفراق والوصل الذى تبحث عنه ؟

ابحث عن رضا الحبيب فانه من

المؤسف جدا أن تطلب من الحبيب سواه

فيجب أن نجتهد حتى تتولد محبة الله الصادقة وهذا يزيد الى درجة أن تنقطع العلاقة القلبية عما سواه وهذا ومؤيداته وذرائعه كلها وسائل فقط وهكذا الرياضات والمجاهدات واصلاح الأخلاق أيضا من قبيل هذا .. فالصوفية المتقدمون يرون أن يكون اصلاح الأخلاق أولا . وأحيانا يصرفون فى ذلك عشرات السنين ونتيجة لذلك أحيانا كان أحدهم يلحقه الموت فى ذلك قبل الوصول الى الله ويرحل عن الدنيا وهو محروم من هذه النعمة لذلك تدبر فى ذلك المتأخرون ورأوا أن يكون الوصول الى الله والتوجه الى الذات المقدسة أولا . ويحرضون على الانهماك فى الرابطة حيث ينتج عنه الحضور الدائم ويقصدون بذلك التقوية والرسوخ فى الملكة أى العلاقة وبذلك تزول تدريجيا الرذائل والأخلاق الذميمة واحدة تلو الأخرى وعلى كل فاجتهدوا فى التوجه الى الذات المقدسة باستمرار .. ان شئتم الى الذات المحضة أو باعتبار صفة من صفاته الكاملة — وأقيموا حال « الذين هم على صلاتهم دائمون » ، ان وجود النقائص فى أعمال الانسان أمر فطرى ، ولكن يجب على الانسان أن يبذل دائما جهده لازالة هذه النقائص وأن يقول دائما « اياك نستعين » فى كل صلاة باخلاص — يقول الرسول الكريم صلوات الله وتسليماته عليه فى دعائه (ما عرفناك حق معرفتك ولا عبدناك حق عبادتك) أو كما قال . الغرض أنه يجب أن يستمر بذل الجهد من قبلنا فى تتميم الأعمال وتكميل الاخلاص فيها . ثم يستمر معه فى طلب المغفرة من الرب الكريم مع الاعتراف بالتقصير الذى لابد منه ومع رجاء القبولية يجب أن نخاف غضبه أيضا .. فالايمان بين الخوف والرجاء .

احرص على اتباع السنة دائما وفى كل الأمور — ومع أنه لا حاجة لك الى الأذكار الأخرى سوى المراقبة المعلومة ولكن للتأييد والتقوية اتخذوا مارأيتموه من الأذكار مناسبا — وطالعوا باهتمام كتاب « الصراط

المستقيم » و « امداد السلوك » .. (مكتوبات شيخ الاسلام جـ (٣) مكتوب رقم ٦٦) .

ويقول رحمه الله فى مكتوب آخر طويل « اجعلوا نصب أعينكم وقلوبكم بقدر ما استطعتم اتباع الشريعة والاهتداء بالسنن النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ولا تغفلوا عن الذكر ـ ودائماً كونوا مستغفرين وتائبين من الغفلات والمعاصى ، ولا تضيعوا هذا العمر الثمين الغالى . شعر فارسى ترجمته :

كل ما تفعله سوى ذكر الحبيب فانه لا فائدة منه
وكل ما تدرسه سوى أسرار العشق فانها بطالة
يا سعدى : اغسل كل ما سوى الحق من لوح قلبك
وكل علم لا يقودك الى الله فانه جهالة

(مكتوبات شيخ الاسلام رقم ٦٩ ص ٢٧٠) .

وفى مكتوب آخر يقول :

أليس حقا أنكم تركتم الأذكار الموصى بها ؟ أحيانا تنشط فتداوم شهرا أو شهرين ثم تتركها أليس حقا أنكم لا تحافظون على الصلوات الخمس مع الجماعة ؟ أليس حقا أنه أحيانا تفوتك الصلاة المفروضة فتنام صباحا حتى تشرق الشمس ، أمثل هذه الأمور لا تزعج وتؤلم محبيكم وأصدقاءكم ـ وعلى كل فيجب عليكم أن تجتهدوا فى اصلاح أنفسكم ـ وابذلوا كل ما تستطيعون فى اتباع الشرع واحياء السنن النبوية ـ عندما تتلو عليكم المصائب تتنبهون وعندما يرفع الله البلاء تطمئنون كأنه لم يكن شيء ـ عودوا أنفسكم بقدر الاستطاعة على الذكر (مكتوب رقم ٢/٧٠) .

ويقول فى مكتوب آخر :

« ماذكرتموه من الأحوال حسنة ويرجى منها الخير (الاستقامة فوق الكرامة) . ان الرؤيا والأنوار والالهامات وغيرها تعرض للسالك

لتقوية قلبه فقط كما أنه تعطى للطفل قطع الألعاب لتسليته • وقد بلغنا عن الأكابر قولهم المشهور « تلك خيالات يربى بها أطفال الطريقة » فالمداومة على العبادة والذكر والقيام على الشرع المطهر واتباع السنة هى الأمور التى كلفنا بها ـ والعمل على هذه الأشياء بعزيمة وجد والحصول على درجة الاحسان هو الكمال الايمانى ووجود الخوف من الرب عز وجل والرجاء منه كلاهما علامة كمال الايمان وغلبة البكاء والتضرع ظهور للنسبة الششتية • اللهم زد فزد (مكتوبات شيخ الاسلام ص ١٦٨ رقم ٥٧) • وذكر فى المكتوب الذى بعد هذا :

أيها المحترم : ان المصائب الدنياوية أيضا من رحماته تعالى اذ بها يجذب العبد اليه والا خيف من العبد أن يصبح فرعونا ينادى بـ (أنا ربكم الأعلى) وقد قال تعالى « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض »

ثم ان الامتحان والابتلاء مستمر فى الحالتين ، فى حالة الانعام والوسع الدنيوى وفى حالة العسر والمصيبة أيضا « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ويقول سبحانه « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » الغرض أن هذا العالم مكان الامتحان وهذا الامتحان مستمر بصور شتى فينبغى أن يهتم للنجاح فى هذا الامتحان ولا يستأنس القلب بأى شىء سوى المالك الحقيقى الدائم والباقى سبحانه ـ أى عمل تعمله اجعله بحسن النية عبادة : « انما الأعمال بالنيات » حتى النوم والأكل والشرب وقضاء الحاجات البشرية يمكن أن تكون كلها عبادة فان ذريعة العبادة ووسيلتها لا شك أنها عبادة ، المقصود الأصلى من الذكر والفكر هو رضاء الحبيب الحقيقى • أما الحصول على لذة ما أو تصفية القلب ، أو الحصول على الكشف والكرامات أو الاحساس بالأنوار والبركات أو الفناء والبقاء أو القطبية والغوثية كل هذه الأشياء ونحوها غير مقصودة بتاتا •

بل أن التوجه والقصد الى هذه الأشياء خطير جدا ، شعر فارسى ترجمته :

ما هذا الفراق والوصل الذى تبحث عنه ؟
ابحث عن رضاء الحبيب ..
فانه من المؤسف أن ترجو من الحبيب سواه

فالأشياء المذكورة باعلاه كلها وسائل وذرائع فقط والمقصود الأصلى هو فقط رضاء البارى عز وجل ــ والواجب على المرء أن يؤدى آداب العبودية ــ اجتهدوا فيه كثيرا واجعلوا نصب أعينكم الاخلاص دائما وفى كل شىء .. (مكتوبات شيخ الاسلام رقم ٣/٥٩ ص ١٢٩) .

ويقول نور الله مرقده فى مكتوب آخر :

« ان هذا العمر العزيز ولمحاته جواهر ثمينة وغالية ونحن فى غفلتناكم نضيعها ولا نبالى؟ ولن ينتج من ذلك الا التأسف والحسرة ــ وكيف يكون حالنا حينما يقال لنا « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

أيها المحترم أليس من الحمق أن نضيع كثيرا من هذه الساعات العظيمة لأجل الأصدقاء الأجانب ــ فكر وتمعن وحاول أن تفهم ذلك .

ان هذه المجالس المضحكة والمسلية نفرح وتسلى بها اليوم .. قلل منها بقدر ما تستطيع وفكر فى قوله تعالى « لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ولا تنس قول البارى جل جلاله « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات » الآية . ان عهد الشباب هذا والصحة والقوة والعافية هذه نعم عظيمة الشأن لا تضيعها هكذا سدى .

ثم شعر فارسى ترجمته :

ان كل ساعة فى هذه الحياة تحت خدمتك
وتود أن تخدمك فان لم تراعها فهى جهالة منك
لا تضيع هذه الساعات النفيسة القيمة ولا تنشر
الغفلة فى بلدة الروح هذه ......

يقول صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » قدر هذه النعم . واجتهد فى ذكر « باس أنفاس »

(ملاحظة الانفاس) لدرجة أنك تصبح من أهله حتى بلا قصد وبلا اختيار منك • ثم تصل الى درجة جريان الذكر القلبى وتفتح لك أبواب الرقى والسلوك المباركة ـ لا تتأخر واحرص على اتباع السنة الشريفة فى كل حركة وسكون » (مكتوبات شيخ الاسلام ص ١٨٨/٢ رقم ٤٨ كذلك نجد أن الأكابر قاطبة قد صرحوا فى كلامهم كثيرا على أن المقصود أصلا هو الحصول على درجة الاحسان وهذه المجاهدات والرياضات التى اختارها الصوفية انما اختاروها بسبب الأمراض القلبية ـ كما أن الأمراض البدنية تتولد فيها كل يوم وآخر أمراض بدنية جديدة فيخترعون لها الأطباء والحكماء أدوية تناسب علاجها فكما أنه لا يشتبه أحد فى هذا الحال أن هذه الأدوية بدعة هكذا أيضا فى الأمراض القلبية ان اختيرت لها أدوية مناسبة لعلاجها من قال عنها بدعة فذاك لجهله ـ لأنها ليست مقاصد أصلا وانما هى فقط علاجات خاصة لأمراض خاصة •

وقد بسط شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالته « التحفة العراقية فى الأعمال القلبية » عن أعمال القلوب وذكر فى أولها أنها كلمات موجزة عن بيان أعمال القلوب التى يعبر عنها بالمقامات والأحوال (يعنى عند المتخصصين فى هذا الشأن وهم الصوفية) وأنها من أصول الايمان وقواعد الدين وهى مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتوكل والاخلاص والشكر والصبر والخوف والرجاء وقد اتفقت الأئمة على أن هذه الأعمال كلها واجبة على جميع الخلق وأن الناس فى هذه الأعمال أيضا على ثلاث درجات كما أنهم كذلك على ثلاث درجات فى الأعمال البدنية أيضا وهى :

١ ـ ظالم لنفسه • ٢ ـ مقتصد • ٣ ـ سابق بالخيرات •

ثم بسط فى بيان حال الأقسام الثلاثة وقال فى آخرها وكلاهما أى المقتصد والسابق بالخيرات من أولياء الله الذين ورد ذكرهم فى كتاب الله حيث يقول سبحانه « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » لذلك فان أولياء الله هم المؤمنون المتقون وهم صنفان خاص وعام فالعام هم المقتصدون والخاص هم السابقون بالخيرات

.. الى آخر ما ذكر فيه ، ثم ذكر شيخ الاسلام رحمه الله فى الرسالة نفصيلا مختصرا للاعمال الباطنة فالصدق والكذب ومحبة الله والاخلاص له والتوكل عليه وغيرها من الأعمال الباطنة كلها مأمور بها شرعا فبالتوكل على الله والاستعانة به يصل المرء الى مقصوده ثم بسط فى بحث التوكل ، وبين أن أعظم وأكبر وأجل شيء فى واجبات الايمان هو محبة الله عز وجل ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر صفات المحب لله والمحبوبين وان محبة الله هى أصل أعمال الدين وأن الرجاء والخوف وغيرها مستلزمة لمحبة الله عز وجل وذكر كلام قدماء الصوفية فى محبة الله تعالى وذكر أن النتيجة الحتمية لمحبة الله تعالى هى اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وان اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطنا يولد محبة الله سبحانه وغير ذلك من الأمور بسطها فى هذه الرسالة جديرة بالمطالعة. وقال فى فتاواه جـ ١١ ص ٢٢٥ ما نصه بالحرف الواحد « وكذلك هذا الذى يقول أن محمدا بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض، فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ، لأن علم الباطن الذى هو علم ايمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الايمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الاسلام الظاهرة .. » اهـ .

وذكر الحافظ ابن القيم الجوزية رحمه الله أيضا فى رسالته الوابل الصيب من الكلم الطيب التى هى جلها فى أحوال الصوفية والتصوف والاذكار والأوراد وفضائلها يذكر رحمه الله فى شروط الشيخ حيث يقول « فاذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحى فان كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا .. فينبغى للرجل أن ينظر فى شيخه وقدوته ومتبوعه فان وجده كذلك فليبعد منه وان وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم فى أمره فليستمسك بغرزه ولا فرق بين الحى والميت الا بالذكر فمثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه كمثل الحى والميت » .

وذكر عن شيخ الاسلام ابن تيمية أنه قال : الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك اذا فارق الماء ؟

وقال أيضا : حضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى الى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت الى وقال :

هذه غدوتى • ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتى أو كلاما قريبا من هذا ، وقال لى مرة : لا أترك الذكر الا بنية اجمام نفسى واراحتها لاستعد بتلك الراحة لذكر آخر — أو كلاما هذا معناه •

وقد ألف الحافظ ابن القيم كتاب مدارج السالكين فى التصوف خالصة وهو شرح لكتاب : « منازل السائرين » للشيخ العارف أبى اسماعيل عبد الله الهروى الحنبلى الصوفى المتوفى عام ٤٨١ هـ وهو كتاب مشهور فى التصوف — والكتاب كله فيه أبحاث فى أمور التصوف وأحوال الصوفية المتفرقة بين فيه رحمه الله تعالى أن عبودية المرء منقسمة على القلب واللسان وبقية أعضاء الجسم فمن واجبات القلب : الاخلاص والتوكل والمحبة والصبر والانابة والخوف والرجاء والتصديق الجازم والنية الصادقة وقد أجمعت الأمة على أن هذه الأعمال القلبية واجبة — ثم ذكر الواجبات المختلف فيها فذكر الرضاء بالقضاء والخشوع فى الصلاة وأنه هل يجب اعادة الصلاة ان لم يكن فيها الخشوع أم لا ؟ ثم ذكر المحرمات وقال انها قسمين : أحدها : كفر والآخر معصية • فالكفر كالشك والنفاق والشرك ونحوها والمعصية أيضا قسمين : كبائر وصغائر فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوت وعدم الخوف من مكر الله والفرح بايذاء المسلمين والسرور عند مصيبتهم ويحب أن تشيع الفاحشة فى المسلمين والحسد على المسلمين مثلها من الأمور التى هى أشد حرمة من الكبائر الظاهرة كالزنا وشرب الخمر وغيرها • وان ترك هذه الأمور واجتنابها والتوبة عنها لا يمكن أبدا بدون صفاء القلب فان لم يصفى القلب أصبح فاسدا واذا فسد القلب فانه يفسد الجسد كله أيضا فاصلاح القلب مقدم على اصلاح الجوارح فان لم نهتم باصلاح

القلب وصفائه فانه سيمتلىء بالأمراض والأدواء • اهـ وقد بسط بكلام مفصل فى ذلك •

ولاصلاح هذه الأشياء يختار المشايخ لمريديهم كل هـذه الرياضات والمجاهدات لقد نقل الشيخ عاشق الهى الميرتهى كلمة جامعة للشيخ قطب الارشاد الامام الكنكوهى نور الله مرقده فى مؤلفه تذكرة الرشيد بالجزء الثانى ص ١١ حيث يقول : انى عثرت على ورقة مكتوبة بخط يد سيدى قطب الارشاد الكنكوهى قدس سره وقد حررها فى بداية عمره ولم يتبين أنه لم حررها ؟ وفيها :

« علم الصوفية علم الدين ظاهرا وباطنا وقوة اليقين وهو العلم الأعلى، حالهم اصلاح الأخلاق ودوام الافتقار الى الله تعالى ، حقيقـة التصوف التخلق بأخلاق الله تعالى وسلب الارادة وكون العبد فى رضاء الله تعالى ؛ أخلاق الصوفية ما هو خلقه عليه الصلاة والسلام بقوله « انك لعلى خلق عظيم » وما ورد به الحديث ، وتفصيل أخلاقهم هكذا :

١ ـ التواضع ضده الكبر •

٢ ـ المدارة واحتمال الأذى عن الخلق •

٣ ـ المعاملة برفق وخلق حسن وترك غضب وغيظ •

٤ ـ المواساة والايثار بفرط الشفقة على الخلق وهو تقديم حقـوق الخلق على حظوظه •

٥ ـ السخاوة •

٦ ـ التجاوز •

٧ ـ العفو وطلاقة الوجه والبشرة •

٨ ـ السهولة ولين الجانب •

٩ ـ ترك التعسف والتكلف •

١٠ ـ انفاق بلا اقتار وترك الادخار •

١١ ـ التوكل .

١٢ ـ القناعة بيسير من الدنيا .

١٣ ـ الورع .

١٤ ـ ترك المراء والجدال والعتب الا بحق .

١٥ ـ ترك الغل والحقد والحسد .

١٦ ـ ترك المال والجاه .

١٧ ـ وفاء الوعد .

١٨ ـ الحلم .

١٩ ـ الأناءة .

٢٠ ـ التوادد والتوافق مع الاخوان والعزلة عن الأغيار .

٢١ ـ شكر المنعم .

٢٢ ـ بذل الجاه للمسلمين .

الصوفى يهذب الظاهر والباطن فى الأخلاق ، والتصــوف أدب كله ، أدب الحضرة الالهية : الاعراض عمن سواه حياء واجلالا وهيبة ، أسوأ المعاصى حديث النفس وسبب الظلمة » اهـ .

البيعـــة

ان الناس تعترض على أشياء كثيرة للصوفية ــ ومع أن البيعة ليست بلا زمة عند الصوفية كما سأبينه ان شـاء الله وعلى كل حال فانها ثابتـة بالقرآن والسنة ــ ففي القرآن في سورة الممتحنة ، يقول الله عز وجل :

« يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك » الآية ويقول حكيم الأمة التهانوي نور الله مرقده في حاشية ترجمته لهذه الآية الكريمة « ان هذه الآية صريحة في غرض البيعة ويلزم به ابطال تلك البيعات التي تؤخـذ هكذا رسميا فقط بدون قصد العمل والوفاء بها .

وفي صحيح البخاري ، في كتاب الايمان رواية « عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه وكان شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه بايعـوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تاتوا ببهتان تفترونه بين أيدكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفاعنه وان شاء عاقبة فبايعناه على ذلك » فهذه البيعة لا هي بيعة الاسلام ولا هي بيعة الجهاد وانما هي بيعة الصوفية التي كانت للتأكيد على أمور الاسلام .

وقد بسط الامام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعـروف بولي الله الدهلوي في مؤلفه « القول الجميل » عن حقيقة البيعة فيقول قدس سره :

قال الله تعالى « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » واستفاض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النـاس كانوا يبايعونه تارة على الهجرة والجهاد وتارة على اقامة أركان الاسـلام

وتارة على الثبات والقرار فى معركة الكفار وتارة على التمسك بالسنة والاجتناب عن البدعة والحرص على الطاعات كما صح أنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار على أن لا ينحن • وروى ابن ماجة أنه بايع ناسا من فقراء المهاجرين على أن لا يسألوا الناس شيئا فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ولا يسأل أحدا •

ومما لاشك فيه ولا شبهة أنه اذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل على سبيل العبادة والاهتمام بشأنه فانه لا ينزل عن كونه سنة فى الدين بقى انه صلى الله عليه وسلم كان خليفة الله فى أرضه وعالما بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ومعلما للكتاب والسنة ومزكيا للأمة فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء وما فعله على جهة كونه معلما للكتاب والحكمة ومزكيا للأمة كان سنة للعلماء الراسخين • فلنبحث عن البيعة من أى قسم هى فظن قوم أنها مقصورة على قبوله الخلافة وأن الذى تعتاده الصوفية من مبايعة المتصوفين ليس بشىء وهذا ظن فاسد لما ذكرنا من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبايع تارة على اقامة أركان الاسلام وتارة على التمسك بالسنة وهذا صحيح البخارى شاهد على أنه صلى الله عليه وسلم اشترط على جرير عند مبايعته فقال والنصح لكل مسلم وأنه بايع قوما من الأنصار فاشترط أن لا يخافوا فى الله لومة لائم ويقولوا بالحق حيث كانوا فكان أحدهم يجاهر الأمراء والملوك بالرد والانكار وأنه صلى الله عليه وسلم بايع نسوة من الأنصار واشترط الاجتناب عن النوحة الى غير ذلك وكل ذلك من التزكية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ فالحق أن البيعة على أقسام : منها بيعة الخلافة ومنها بيعة التمسك بحبل التقوى ومنها بيعة الهجرة والجهاد ومنها بيعة التوثق فى الجهاد ، وكانت بيعة الاسلام متروكة فى زمن الخلفاء أما فى زمن الراشدين منهم فلأن دخول الناس فى الاسلام فى أيامهم كان غالبا بالقهر والسيف لا بالتأليف واظهار البرهان ولا طوعا ورغبة وأما فى غيرهم فلأنهم كانوا فى الأكثر ظلمة فسقة لا يهتمون باقامة السنن ، وكذلك بيعة التمسك بحبل التقوى كانت متروكة ، أما فى زمان الخلفاء الراشدين فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم وتأدبوا فى

حضرته فكانوا لا يحتاجون الى بيعة الخلفاء وأما فى زمن غيرهم فخوفا من افتراق الكلمة وأن يظن بهم مبايعة الخلافة فتهيج الفتن وكانت الصوفية يومئذ يقيمون الخرقة مقام البيعة ثم لما اندرس هذا الرسم فى الخلفاء انتهز الصوفية الفرصة وتمسكوا بسنة البيعة والله أعلم .

ثم أورد قدس الله روحه فصلا مستقلا فى بحث حكم البيعة وحكمتها وغير ذلك قال فيه : ـ ان البيعة سنة وليست بواجبة لأن الناس بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم وتقربوا بها الى الله عز وجل ولم يدل دليل على تأثيم تاركها ولم ينكر أحد من الأئمة على تاركها كان كالاجماع على أنها ليست بواجبة .

ثم يقول قدس الله روحه فى القول الجميل أيضا : ـ اعلم أن البيعة المتوارثة بين الصوفية على وجوه : أحدها : بيعة التوبة من المعاصى ـ والثانى : بيعة التبرك فى سلسلة الصالحين بمنزلة سلسلة اسناد الحديث فان فيها بركة ، والثالث بيعة تأكد العزيمة على التجرد لأمر الله وترك ما نهى عنه ظاهرا وباطنا وتعليق القلب بالله تعالى وهو الأصل ، وأما الأولان فالوفاء بالبيعة فيهما ترك الكبائر وعدم الاصرار على الصغائر والتمسك بالطاعات المذكورة من الواجبات والسنن الرواتب ، والنكث بالاخلال فيما ذكرنا ، وأما الثالث فالوفاء : البقاء على هذه الهجرة والمجاهدة حتى يكون متنورا بنور السكينة ويصير ذلك ديدنا له وخلقا وجبلة فعند ذلك قد يرخص فى ما أباحه الشرع من اللذات والاشتغال ببعض ما يحتاج الى طول التعهد كالتدريس والقضاء ، والنكث : بالاخلال فى ذلك ، ا هـ ص ١٢٥

ويقول الشيخ العارف التهانوى رحمه الله فى التكشف : « عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية . قال : ولا تسألوا الناس شيئا . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناوله اياه » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى .

فائدة : ان البيعة المعمول بها عنه السادة الصوفية وحاصلها أنها معاهدة للالتزام بالأحكام والاهتمام بالأعمال الظاهرة والباطنة • ويقال لها فى عرفهم « بيعة الطريقة » • ويقول عنها بعض أهل الظاهر إنها بدعة بناء على أنها لم تثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، فالثابت أنه صلى الله عليه وسلم كان يبايع الكفار على الاسلام ويبايع المسلمين على الجهاد فقط • ولكن فى هذا الحديث اثبات صريح على أن المخاطبين كانوا من الصحابة رضى الله عنهم فليست اذن هذه بيعة الاسلام قطعا اذ يلزم بذلك تحصيل الحاصل • ويظهر من ألفاظ البيعة أنها ليست ببيعة الجهاد أيضا بل علم بدلالة الألفاظ أنها للالتزام والاهتمام بالأعمال فثبت بذلك المقصود •

ومن عادة أكثر المشايخ أنهم يلقنون المريدين فى الخلوة تعليمات خفية وهذا أحيانا يكون بسبب أن ذلك الموضوع المقصود تعليمه لا يكون مفهوما للعامة ، ويخشى من اظهاره افتنان واضلال للعامة ، وأحيانا يكون السبب أن التعليم الخفى حيث أنه دليل على الخصوصية والاهتمام فيقع به تأثير قوى على قلب الطالب ، وفيه فائدة أخرى أيضا وهى أن لا يقلده بعد سماعه وأخذه الآخرون الذين يكون تعليم آخر أكثر فائدة لهم • فهذا الحديث فيه أصل لهذه العادة •

ثم ان أكثر المريدين يكون مقتضى طبعهم أن يبالغوا فى التأمر بأوامر المرشد والشيخ لدرجة أنهم مع مراعاة المعنى يراعون مدلول ظاهر الألفاظ أيضا ـ وهذا الحديث فيه أصل لهذا أيضا ـ لأنه من المعلوم أن المراد بالنهى عن السؤال انما كان قطعا النهى عن سؤال الأشياء التابعة للآخرين وليس عن أن يطلب الشيء الذى يملكه استعانة ولكن بما أن مدلول ظاهر اللفظ قد احتمل هذا المعنى (مع أن هذا الاحتمال منفى قطعا للقرائن) لذلك كانوا يحتاطون حتى عن سؤال الأشياء التابعة لهم أيضا ـ كما أنه ورد فى حديث آخر أنه قال صلى الله عليه وسلم أثناء الخطبة « اجلسوا » وكان أحد الصحابة قادما من الباب فعندما سمع ذلك جلس فورا فى مكانه، مع أن مقصوده صلى الله عليه وسلم قطعا كان أن ادخلوا واختاروا مكانا مناسبا واجلسوا ولا تبقوا واقفين وانما اجلسوا وليس المراد أن لا تتقدموا

للمكان المناسب أيضا وهذه الشعبة هى الغاية فى احترام الشيخ والتأدب معه وهو الشرط الأعظم للاستفادة الباطنية •

وبعد ذلك نقل سيدى العارف التهانوى رحمه الله حديث عبادة رضى الله عنه المذكور سابقا فى بداية الكلام عن « البيعة » ، وذكر فى فوائده : ان الحديث صريح فى أن من بايعهم صلى الله عليه وسلم كانوا من الصحابة• فثبت به أنه كانت هناك بيعة غير بيعة الاسلام والجهاد أيضا وهى بيعة لترك المعاصى والتزام الطاعات وهذه هى بيعة الطريقة الرائجة عند السادة الصوفية فثبت أن انكار هذه البيعة جهل •

يقول زكريا : علمنا من هذين الحديثين أيضاً أنه لو قال الشيخ لأجل بعض الخصوصيات لبعض المريدين : تعال وبايعنى فلا حرج فى ذلك اذ ثبت ذلك من الحديثين كليهما •

ان عزيزى ابتداء والمكرم المحترم المبجل انتهاء الفاضل الشيخ (١) محمد يوسف نور الله مرقده قد ذكر فى تأليفه البديع « حياة الصحابة »

---

(١) العلامة المجاهد والداعية الكبير الشيخ محمد يوسف بن الامام الجليل والداعية الشهير الشيخ محمد الياس الكاندهلوى ولد قدس الله روحه لخمس بقين من جمادى الأولى عام ١٣٣٥ هـ حفظ القرآن الكريم فى حداثة سنه وترعرع فى حجور الصالحين واحضان الصالحات ونشأ فى بيت دين وديانة وصلاح وتقوى وورع قرأ أكثر الكتب على والده وأخذ الحديث عن والده وابن عمه بقية السلف شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى مؤلف هذا الكتاب وكذا عن مشايخ جامعة مظاهر العلوم بسهارنبور — وقام بعد ابيه بأمر الدعوة والتبليغ ونشطت حركة جماعة التبليغ فى عصره حتى انتشرت فى اكثر بلدان العالم وكان شغوفا جداً بأمر الدعوة لا يسئم يتكلم ويخطب ليلا ونهارا وفى كل ساعة شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه عميق النظر فى حياتهم ووقائعهم وربما كان فريد دهره فى هذا الشأن ومؤلفه البديع حياة الصحابة من آثار ذلك — وله شرح بسيط على تتمة التعليق الموجود على شرح معانى الآثار للطحاوى لم يكمل يظهر منه سعة باعه فى هذا العلم الشريف كان رحمه الله كثير الأضياف عظيم الأكرام لهم والترحيب بهم جل همه وغاية امنيته هداية الأمة وأن تستيقظ من غفلتها وترجع الى ربها وبارئها ويتألم لما آلت اليه من الانحراف تظهر واضحا آثار التألم وما تكابده نفسه لذلك على وجهه ومن عباراته وتأوهاته التى يكاد يخفيها مع محاولاته الشديدة لذلك كثير الخروج فى سبيل الله لاعلاء كلمته ونصر دينه حتى توفاه الله فى احدى هذه الاسفار فى باكستان بلاهور للتاسع من ذى القعدة سنة ١٣٨٤ هـ تغمده الله برحمته .

بالجزء الأول منه فى باب البيعة مفصلا روايات كثيرة . وقد أتى بأبواب كثيرة فيه : كباب فى البيعة على الاسلام ، والبيعة على الجهاد وغير ذلك وفيه أيضا باب مستقل بعنوان « البيعة على أعمال الاسلام » .

أشير مختصرا هنا الى بعض الروايات منها والتفصيل فى « حياة الصحابة » .

« أخرج الحسن بن سفيان والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم والحاكم والبيهقى وبن عساكر عن بشير بن الخصاصية رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبايعه فقلت : علام تبايعنى يا رسول الله ؟ فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : تشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وتصلى الصلوات الخمس لوقتها وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت وتجاهد فى سبيل الله ، قلت : يا رسول الله كلا نطيق الا اثنتين فلا أطيقهما : الزكاة . والله ما لى الا عشر ذودهن رسل أهلى وحمولتهن ، وأما الجهاد فانى رجل جبان ويزعمون أنه من ولى فقد باء بغضب من الله وأخاف ان حضر القتال أن أخشع بنفسى فأفر فأبوء بغضب من الله ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها ، ثم قال : يا بشير : لا صدقة ولا جهاد فبم اذن تدخل الجنة ؟ قلت : يا رسول الله أبسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته عليهن كلهن » كذا فى كنز العمال حـ ٧ ص ١٢ وأحمد ورجاله موثقون كما قال الهيثمى حـ ١ ص ٤٢ .

وأخرج أحمد عن جرير رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على اقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » وأخرجه أيضا ابن جرير مثله .

وأخرج الطبرانى عنه قال أتى جرير رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : مد يدك يا جرير ، فقال : على مه ؟ قال : أن تسلم وجهك لله

والنصيحة لكل مسلم فأذن لها وكان رجلا عاقلا ، فقال : يا رسول الله فيما استطعت — فكانت رخصة للناس بعده .

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يبايع ؟ فقال ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بايعنا يا رسول الله ، قال : على أن لا تسأل أحدا شيئا . فقال ثوبان : فما له يا رسول الله ؟ قال : الجنة ، فبايعه ثوبان — قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه « كذا في الترغيب وأخرجه أيضا أحمد والنسائي وغيرهما عن ثوبان مختصرا .

وأخرج أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : بايعني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وأوثقني سبعا وأشهد الله على سبعا : أن لا أخاف في الله لومة لائم ، قال أبو المثنى : قال أبو ذر : فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هل لك الى البيعة ولك الجنة ؟ قلت : نعم ، وبسطت يدي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يشترط على — أن لا أسأل الناس شيئا ، قلت : نعم ، قال : ولا سوطك ان سقط منك حتى تنزل فتأخذه ، وفي رواية : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ستة أيام ثم اعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد ، فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته واذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحدا شيئا وان سقط سوطك ولا تقبضن أمانة » انتهى .

عدم الاحتياج الى المجاهدات الرائجة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم

فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته المباركة فقط تكفى المؤمنين للوصـــول الى درجة الاحســـان ، وقد نقل بكثرة عن المشـــايخ المتقدمين والمتأخرين بأن رؤيته صلى الله عليه وسلم تكفى للوصـــول الى درجة الاحسان ، ولكن بعده صلى الله عليه وسلم كلما مضى الزمن وزاد البعد عن النورانية بدأت الظلمات تؤثر فى القلوب ــ وقد نقل عن أنس رضى الله عنه قوله برواية الترمذى أنه قال : لما كان اليوم الذى دخل فيـــه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء ــ وما نفضنا أيدينا عن التراب وانا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا » كذا فى المشكاة أى أن قلوبنا لم تبق على تلك النورانية والصفاء الذى كانت عليه عند مشاهدته صلى الله عليه وسلم ــ وعن حنظلة بن الربيع الأســـيدى قال لقينى أبو بكر فقـــال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ما تقول ؟ قلت : نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر بالنار والجنة كأنا رأى عين فاذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، قال أبو بكر : فوالله انا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : نافق حنظلة يا رسول الله ، قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : وما ذاك ؟ قلت : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى عين فاذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا ، فقال رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم : والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وســـاعة ــ ثلاث مرات » رواه مســـلم ــ كذا فى المشكاة .

أى أن المرء لا يكون دائما على حال واحد ، فكيفية الحضور تتحصل أحيانا ، وهكذا حال المشايخ فالأحوال والكيفيات التى يكون عليها مريدوهم فى معيتهم لا تبقى فى حال الغياب عنهم •

وفى قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية حنظلة لفظة « الذكر » أوضحت أن فى مجالس الذكر وبكثرة الذكر أيضا يتحصل المرء على مرتبة الاحسان ، وكثرة الذكر خلف وبدل عن الحضور فى مجلس الشيخ أيضا •

وفى التكشف أن سيدنا أبا طلحة الأنصارى رضى الله عنه كان يصلى فى حائط له فطار دبسى فطفق يتردد ويلتمس مخرجه فأعجبه ذلك فجعل يتبعه بصره ساعة ، ثم رجع الى صلاته فاذا هو لا يدرى كم صلى — فقال : قد أصابتنى فى مالى هذا فتنة فجاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له الذى أصابه فى حائطه من الفتنة وقال : يا رسول الله هو صدقة لله فضعه حيث شئت » رواه الامام مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر رضى الله عنه •

فائدة (١) (عادة مراقبة القلب) من أعمال السادة الصوفية أنهم دائما فى كل ساعة يراقبون القلب بأنه كيف حالته فان وجدوا فيه نقصا أجبروه • وبفعل هذا الصحابى رضى الله عنه واقراره صلى الله عليه وسلم على ذلك ظهرت محموديته لأن تنبهه هذا كان أثرا لتلك المراقبة •

ف (٢) (حال الغيرة) بغض ما يسبب الغفلة عن الحق جل شأنه حال محمود ويقال لهذا الحال « الغيرة » وفى هذا الحديث اثباته •

ف (٣) (تعليم اخراج شىء يشغل عن الحق عن ملكه) قد اشتهرت عن كثير من المشايخ حكايات أنهم اذا رأوا فى الطالب أن قلبه تعلق زيادة بشىء ما أمروه بابعاد ذلك الشىء — هذا الحديث فيه أصل لهذه المعالجة فان الصحابى رضى الله عنه رأى هذا العلاج وأقره عليه الرسول صلى الله عليه وسلم • انتهى ما فى التكشف •

وقد وردت فى الموطأ قصة أخرى مثلها لأنصارى فى عصر سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه فعن عبد الله بن أبى بكر أن رجلا من الأنصار كان

يصلى فى حائط له بالقف واد من أودية المدينة فى زمان الثمر والنخل قد ذللت فهى مطوقة بثمرها فنظر اليها فأعجبه ما رأى من ثمرها ثم رجع الى صلاته فاذا هو لا يدرى كم صلى ، فقال : لقد أصابتنى فى ما لى هذا فتنة فجاء عثمان بن عفان وهو يومئذ خليفة فذكر له ذلك وقال : هو صدقة فاجعله فى سبل الخير فباعه عثمان بن عفان بخمسين ألفا فسمى ذلك المال : الخمسين » .

وفى الكتب مئات مثل هذه الوقائع نجدها عن الصحابة رضى الله عنهم يظهر منها أنهم رضى الله عنهم كانوا يبلغون درجة الاحسان بدون المجاهدات والرياضات الشاقة .

وذكر الشاه ولى الله الدهلوى قدس الله روحه فى شرحه للموطأ : أن هذه القصص آثار لتلك النسبة التى تلد فى القلب فيقدمون عبادة الله على كل شىء ويجدون غيرة شديدة فى ما سواها .

ويقول العلامة أبو الوليد الباجى رحمه الله : أراد اخراج ما فتن به من ماله وتكفير لاشتغاله عن صلاته ، قال : وهذا يدل على أن مثل هذا كان يقل منهم ويعظم فى نفوسهم .

أنظر فكيف يكون أمرنا ونحن حالنا ما هو عليه من كثرة الوساوس . نرجوه سبحانه أن يغفر لنا ويعفى عنا بفضله .

وقد ذكر هذا الفقير فى رسالته « حكايات صحابة بالاردو » فى الباب الخامس قصص اهتمامهم وخشوعهم فى الصلاة كلها عبرة وموعظة فهذا عبد الله بن الزبير رضى الله عنه كان يصلى وابن له يدعى هاشما نائم بجواره ــ فسقطت حية على الطفل فبكى وصرخ واجتمع أهل البيت وحدثت لذلك ضجة وقتلوا الحية ــ كل هذا وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهما مشغول خاشع فى صلاته وعندما فرغ منها سألهم أنه سمع صياحا فماذا ؟ فقالت الزوجة : رحمك الله كاد الولد أن يموت وأنت لم تشعر بشىء ــ فقال : ويحك لو التفت فى الصلاة الى جهة أخرى لما كانت الصلاة .

٤ ــ ص ١٣٦ وقد ذكرت فى حكايات الصحابة قصص أخرى كثيرة مثل هذه ــ فهؤلاء السادة رضى الله عنهم ما يحوجهم الى هذه المجاهدات والرياضات الشاقة بعد أن كانوا قد بلغوا الى مقام « أن تعبـد الله كأنك تراه » .

وقـد ذكر العزيز المحترم مولانا الشيخ محمـد يوسف فى « حيـاة الصحابة » فى « باب حقيقة الايمان » قصصا كثيرة للصحابة رضى الله عنهم وأولها قصة الحارث بن مالك رضى الله عنه أخرج ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد والحارث بن مالك رضى الله عنه راقد فحركه برجله قال : ارفع رأسك ، فرفعَ رأسه ، فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف أصبحت يا حارث بن مالك ؟ قال : أصبحت يا رسول الله مؤمنا حقا ، قال : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت من الدنيـا وأظمأت نهارى وأسهرت ليلى وكأنى أنظر الى عرش ربى وكأنى أنظر الى أهل الجنة فيها يتزاورون والى أهل النار يتعادون ، فقال له النبى صلى الله عليـه وسـلم : أنت امرؤ نور الله قلبك عرفت فالزم » وأخرجه العسـكرى فى الأمثال عن أنس نحوه ، وأخرجه ابن المبارك فى الزهد عن صالح بن مسمار نحو سـياق ابن عساكر ، قال الحـافظ فى الاصابة جـ ١ ص ٢٨٩ وهو معضل .

مجاهدات الصوفية ورياضاتهم

لقد مر أنه فى عهده صلى الله عليه وسلم كانت رؤيته تكفى المؤمنين للوصول الى مرتبة الاحسان وكذلك مر قول الامام القطب الكنكوهى نور الله مرقده أيضا عنه ، وكلما بعد الزمن عنه صلى الله عليه وسلم كلما حصل النقص فى نسبته وكيفية الاحسان أيضا واضطر لذلك الأطباء الروحانيون لايجاد الأدوية الروحانية اللازمة لجبر هذا النقص .

فى ترجمة القول الجميل يقول المترجم صاحب شفاء العليل : يقول المترجم ان سيدى المصنف المحقق قلع بكلامه البديع شبهات الناقصين من أصولها فيقول بعض السفهاء : ان أشغال القادرية والجشتية والنقشبندية المخصوصة لم تكن فى عهد الصحابة والتابعين لذلك فهى بدعة سيئة وخلاصة الرد على هذا الاشكال هو : أن الأمر الذى لأجله أوجد المشايخ أولياء الطريقة هذه الأشغال وصلنا هذا الأمر مسلسلا من عهده صلى الله عليه وسلم ، ولو أن طرق الحصول عليه كانت مختلفة ، ففى الحقيقة أولياء الطريقة متابعون لمجتهدى الشريعة ، فمجتهدوا الشريعة جعلوا الأصل استنباط الأحكام لظاهر الشريعة ، وأولياء الطريقة اجتهدوا للحصول على باطن الشريعة ويقال لها « الطريقة » وجعلوا لها قواعد مختلفة فالظن فى هذا أنه بدعة سيئة خطأ واضح .

نعم صحيح أن الصحابة رضى الله عنهم بسبب صفاء طبعهم وحصولهم على النسبة الباطنة ببركة وجوده صلى الله عليه وسلم بينهم لم يكونوا فى حاجة الى هذه الأشغال بخلاف المتأخرين فلأجل بعدهم عن زمن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم احتاجوا الى هذه الأشغال المذكورة . كما أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا يحتاجون فى فهم القرآن والحديث الى تعلم النحو والصرف وعلوم اللغة العربيـة ولكن أهل العجم فى كل عصر والآن بالفعل العرب أيضا يحتاجون الى هذه الأشياء .

ونقل فى حاشيته عن مولانا النواب قطب الدين رحمه الله : ان مثال ذلك هو أن الشمس ما دامت مشرقة يستطيع المرء قراءة كل شيء فى ضوئها وبعد غروب الشمس يحتاج المرء الى النور للقراءة .

ففى زمن الصحابة رضى الله عنهم كانت شمس الرسالة « صلى الله عليه وسلم » مشرقة « تضيء القلوب » فلم تكن آية حاجة الى الأشغال للحصول على الاحسان والحضور مع الله عز وجل وبنظرة واحدة الى ذلك الوجه المنير كان يحصل على ما لا يمكن الحصول عليه الآن فى اشغال الأربعينيات الكثيرة . وبما أنه قد غربت تلك الشمس المشرقة الآن احتيج لذلك الى الأشغال للحصول على هذه القوة والكيفية الحضورية الاحسانية وبعد هذا يقول الشاه ولى الله الدهلوى : سمعت سيدى الوالد قدس سره يذكر واقعة له طويلة رأى فيها الحسن والحسين وعليا رضى الله تعالى عنهم فقال : سألت عليا كرم الله وجهه عن نسبتى هل هى التى كانت عندكم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرنى بالاستغراق فيها وتأمل جدا ثم قال : هى هى بلا فرق . (وقد ذكر الامام ولى الله الدهلوى هذه القصة فى الدر الثمين ص ٦١ أيضا) ثم لصاحب المداومة على السكينة أحوال رفيعة تنوبه مرة مرة فليغتنمها السالك وليعلم انها علامات قبول الطاعات وتأثيرها فى صميم النفس وسويداء القلب ، ومنها ايثار طاعة الله سبحانه على جميع ما سواه والغيرة عليه فقد أخرج مالك فى الموطأ عن عبد الله بن أبى بكر أن أبا طلحة الانصارى رضى الله عنه كان يصلى (الخ الحديث وقد مضى مفصلا آنفا) .

وبعدها يقول : قصة سليمان عليه السلام المشار اليها فى قوله عز من قائل (فطفق مسحا بالسوق والاعناق) مشهورة ومعلومة ، ثم يقول الشيخ خرم على المترجم ان القصة المذكورة مجملها أن سيدنا سليمان عليه السلام انشغل مرة فى النظر الى جياده لدرجة أن غربت الشمس وفاتته صلاة العصر فأمر بقطع أعناق وأرجل جميع الجياد ، والخلاصة أن أهل الكمال عندهم طاعة الحق مقدمة على كل أمر — فان حدث أى خلل فى ذلك بسبب الانشغال فى أى شيء فان غيرة أهل الكمال تقتضى بازالة هذا الشيء

الشاغل عن طاعته سبحانه لذلك تصدق أبو طلحة ببستانه العظيم وأهلك سيدنا سليمان عليه السلام جياده ، وقد ذكر الحكيم الشيخ التهانوى فى تفسيره البديع « بيان القرآن » قصة سيدنا سليمان عليه السلام فى قوله « فطفق مسحا بالسوق والأعناق » .

انها قصة عجيبة جديرة بالذكر حين عرضت على سليمان جياده الأصيلة التى كانت لديه للجهاد ونحوه وذلك مساء فمكث ينظر اليها حتى غربت الشمس وفاته حزبه من نوع الصلاة (كذا فى الدر المنثور عن على) وبسبب هيبته لم يجرؤ أحد من الخدم أن يخبره بفوات الوقت (كذا فى الدر عن ابن عباس) وعندما تبينه بنفسه قال متأسفا « انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى » أى الصلاة حتى غابت الشمس ثم أمر خدامه وحاشيته أن يحضروا الجياد مرة أخرى أمامه فأحضروها له فأخذ يمسح أى (يقطع) سيقانها وأعناقها بالسيف (كذا فى الدر مرفوعا بسند حسن) أى ذبحها . ويقال لهذا فى اصطلاح الصوفية : الغيرة . أى أن يبعد عن نفسه أى شىء يسبب الغفلة عن الله عز وجل .

ثم يقول الشاه ولى الله الدهلوى : ان من جملة الأحوال الرفيعة : غلبة الخوف من الله تعالى بحيث يظهر على ظاهر البدن والجوارح له آثر — أخرج الحفاظ فى الأصول أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله الى أن قال « ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » وفى الحديث أن عثمان رضى الله عنه قام على قبر فبكى حتى ابتلت لحيته وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى بالليل-أزيز كأزيز المرجل » وذلك من البكاء تسمع من صدره الشريف أزيزا كأزيز المرجل أى القدر عند الغليان وقال الشاه عبد العزيز الدهلوى : ورد فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع » الحديث — رواه الترمذى فى سننه كذا فى المشكاة .

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه رجلا بكاء لا تنقطع الدموع فى عينه حين يقرأ القرآن .

وقال جبير بن مطعم عندما سمعت هذه الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » فكأنما طار قلبي من الخوف » انتهى .

وقد اتفقت أقوال القدماء والمتأخرين على أن الرياضات والمجاهدات ليست بمقصودة . وانما المقصود فى الأصل هو « درجة الاحسان » وللحصول عليها ان وجد مرض ما فى شخص عولج بحسبه واختير له العلاج المناسب لمرضه ذاك وكل قوم لهم عادات مختلفة وأمراض متنوعة ومشايخ كل زمن يختارون بحسب كل مرض علاجه فعندما ازداد شيوع البدعات أضاف المشايخ فى ألفاظ البيعة لفظة تجنب البدع وتركها ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضيف أحيانا لبعضهم ترك السؤال ولبعضهم ترك النياحة وهكذا .

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أوامره لبعض الأشخاص حسب أحوالهم غير أوامره للبعض الآخر ففى المشكاة عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت : يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — وفى رواية غيرك — قال : قل آمنت بالله ثم استقم » رواه مسلم — وفى موضع آخر روى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الايمان ؟ قال : اذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن ، قال : يا رسول الله فما الاثم ؟ قال : اذا حاك فى نفسك شيء فدعه » رواه أحمد .

وسأله عمرو بن عبسة رضى الله عنه ما الايمان ؟ فقال : الصبر والسماحة ، وقد ذكر المحشى لهما معان كثيرة أوضحها أنه الصبر على المفقود والسماحة بالموجود وفى نفس الحديث أيضا أنه سئل عن أفضل الايمان ؟ فقال : خلق حسن ، رواه أحمد ، وسأله معاذ بن جبل نفس السؤال بأنه ما أفضل الايمان فقال صلى الله عليه وسلم أن تحب لله وتبغض لله وتعمل لسانك فى ذكر الله ، رواه أحمد أيضا كذا فى المشكاة .

ونقل فى موضع آخر عن عبد الله بن بسر أن رجلا قال : يا رسول الله

ان شرائع الاسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به ، قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » رواه الترمذى وابن ماجه ، وفى مقال آخر روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أوصنى ، قال : لا تغضب فردد ذلك مرارا قال : لا تغضب ، رواه البخارى وفى وقت آخر روى عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال عظنى وأوجز ، فقال : اذا قمت فى صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعذر منه غداً ، وأجمع الاياس مما فى أيدى الناس » رواه أحمد فالغرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه كان يجيب كل شخص حسب أحواله وظروفه جوابا يناسبه وهكذا كانت تختار الألفاظ والعبارات المناسبة لكل مكان ومقام فى البيعة أيضا •

وهكذا المشايخ أيضا تراهم فى البلاد التى تروج فى الناس عمل التعزيات فى أيام العاشوراء يضيفون فيها عبارات التوبة عن عمل التعزية ، وكما أنه فى العلاج مثلا بعض الأجسام لا يصلح لها الا الأدوية الحارة وبعضهم بسبب أمزجتهم أو أحوال بلادهم تناسبهم الأدوية الباردة — يأتى مريضان وقد أصابهم مرض من نوع واحد ولكن الطبيب الحاذق يصف لكل واحد منهما علاجا بخلاف علاج الآخر مع أن الغرض أيضا واحد وهو شفاء المريض من المرض وهكذا العلاجات المتنوعة الشائعة فهناك الطب اليونانى والطب الهوميوبيتك والايليوبيتك كل من هؤلاء له أصول منفردة فى العلاج مع أن المقصود واحد وهو ازالة المرض •

فهكذا بالضبط مشايخ السلوك أيضا ، فهناك الجشتية والنقشبندية والقادرية وغيرهم فهؤلاء كل منهم حسب خبرته وتجربته يختار العلاج المناسب للمرض الروحانى • فاذا ثبت أن هذه كلها معالجات لأمراض مختلفة فالمطالبة حينئذ بالدليل من القرآن أو السنة عن طريق مخصوص مثاله مثال من يطلب من الطبيب اليونانى الدليل من القرآن أو الحديث على أن البنفشه تزيل الزكام — أو الطبيب الأوروبى (الدكتور) أن البنسلين والكونين والاسبرو من أى حديث استنبطه — فما دام قد ثبت

ان هذا الشخص مريض فما يصف له الطبيب والدكتور من علاج مباح يجب أن نعالجه به بل ان فى الأمراض الظاهرية يجوز بعض العلماء فى بعض الصور استعمال الأشياء المحرمة شرعا أيضا عندما يخبر الطبيب الحاذق المتدين أنه لا علاج لهذا المرض الا بهذا الدواء « المحرم » — بل انه ان غص انسان بلقمة فى الحلق ولم يمكن ازالتها ولم يكن هناك من المشروبات الا الخمر فيجب حينئذ ازالة الغصة بالخمر .

وكذا الحال بالنسبة للأمراض الروحانية أيضا فما يختاره الأطباء الروحانيون لمرضاهم من الأدوية والعلاجات المجربة أفليس من الحمق والظلم ان نطالبهم بدليل لها من القرآن أو السنة ؟ ومن يتجاسر ويدعى أنها بدعة فانه فى الحقيقة يجهل تعريف البدعة — فان البدعة هى الاحداث فى الدين — وليس الأحداث للدين — والذين لا يستطيعون أن يفرقوا بينهما هم فى الواقع جهلة عن الدين كله — ان الاحداث للدين أحيانا يكون ضروريا بل ويكون واجبا فى بعض الأحيان مثل آلات الجهاد ، ففى السابق كانت تكفى السيوف والرماح ولكن الاكتفاء بهذه الآلات فقط الآن مهلكة وجنون — بل يجب أن نهتم ونجتهد لاعداد البنادق والمدافع والدبابات بل ويجب اعداد الأسلحة الذرية ، يقول الشيخ المجدد أحمد السرهندى نور الله مرقده فى احدى مكاتيبه المنقولة فى (تجليات ربانى ص ٤٩) ما ترجمته بالعربية : —

انك كتبت عن عدم علمك بالنسبة الخاصة التى كانت لشيخنا المرشد (سيدى الخواجة باقى الله) وسألت عن سبب ذلك ؟

سيدى : مثل هذه الأشياء لا يناسب بيانها تحريرا بل ولا شفهيا لأنه لا ندرى ماذا يفهم منه المرء ، ثم ماذا يستنتج منه فانه ينبغى لهذا الشأن الحضور بشرط حسن الظن وطول الصحبة على أى طور كان ولكن بما أنه لابد لكل سؤال من جواب أقول مختصرا « بأن لكل مقام علوم ومعارف مختلفة عن الآخر وكذا الأحوال والمواجيد لكل على حدة . ففى بعض المقامات يناسب الذكر والتوجه وفى بعضها التلاوة والصلاة . وبعض المقامات تكون مخصوصة بالجذب وبعضها مخصوصة بالسلوك وبعض

المقامات تكون مركبة من هاتين الثروتين (الجذب والسلوك) وهناك مقام خال عن الجذب والسلوك لا الجذب له علاقة به ، ولا السلوك وهذا مقام نادر جدا . ان أصحاب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، امتازوا بهذا المقام وتشرفوا بهذه المرتبة العظمى ـ أصحاب هـذا المقام يحصلون على الامتياز التام ولا يشبهون أصحاب المقامات الأخرى الا فى القليـل جدا بخلاف أصحاب المقامات الأخرى فانهم يشبهون بعضهم بعضا بأى صورة كان ـ ولم يخبر الا القليل جدا من السادة مشايخ السلاسل عن هذا المقام فكيف اذن يمكن بيان معارف هذا المقام « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ان الصحابة الكرام رضى الله عنهم كانت تحصل لهم هذه النسبة العزيزة الوجود فى أول خطوة وتصل الى درجة الكمـال ومن سواهم ان قضى له وقدر أن يتشرف بهذه الثروة ويربى على مثل نسبة الصحابة الكرام فانه بعد قطع منازل الجذب والسلوك والعبور من على العلوم والمعارف يسعد بالحصول على هـذه المرتبة العظمى . فان ظهور هذه النسبة المخصوصة فى البداية كان خاصا ببركة صحبة سـيد البشر صلى الله عليه وسلم فقط .

نعم يمكن أن يتشرف به أحد ببركة اتباعه التام للسيد الكريم صلى الله عليه وسلم ثم صحبته تكون سـببا لظهور هذه النسبة فى البـداية أيضا :ـ

ومن بعد هـذا ما يدق صفاته وما كتمه أحظى لديه وأجمـل

(انتهى)

كما أنه فى الأمراض الظاهرة يحتاج الى طبيب ما ولا يمكن أبدا أن يعالج الشخص نفسه فقط بمطالعة كتب الطب ـ هكذا الأمراض الروحانية أيضا تحتاج الى طبيب ما للعلاج والارشاد ، وكما أنه فى ظاهر الشريعـة

وجد مجتهدون كثيرون هكذا فى الطريقة مشايخ السلوك أيضا ــ فالأكابر فى السلوك كثيرون أيضا ولكن كما أنه فى الشريعة انحصر المجتهدون فى الأئمة الأربعة هكذا لوجوه عديدة بالنســبة للمشايخ المعالجين للأمراض الباطنية انتشرت فى ديارنا (الهند وباكستان) بالعموم أربعة طرق لهم وهى القادرية والجشتية والنقشبندية والسهروردية .

ضرورة الشيخ وشرائطه

كتب الشيخ التهانوى نور الله مرقده فى التكشف ص ١٢٦ :

ينبغى أن يعلم أنه كما يحتاج لعلاج المرض الظاهرى الى طبيب يكون هو نفسه صحيحا ومعافى ولا يكون مريضا ويستطيع أيضا علاج الآخرين لأنه لو كان بنفسه مريضا فان المسألة الطبية هى أن « رأى العليل عليل » فانه ولو كان طبيبا ولكن لا يعتمد على رأيه لمرضـه ــ وان كان صحيحا معافى ولكنه لا علم له بطريقة العلاج فأيضا لا يصلح لعلاج هذا المريض لجهله كما هو معلوم كذلك نفس الشىء فى علاج المرض الباطنى أيضا . يحتاج الى شخص ومرشد يكون فى نفسه متقيا صالحا ولا يكون مبتدعا ولا فاسقا وكذلك يستطيع تكميل الآخرين ــ لأنه لو كان فاسد العقيدة أو العمل فلا يطمأن اليه أن يكون مخلصا فى تعليمه وتربيته بل الغالب أنه يحاول أن يجعل المريد مثله أيضا ولا يستطيع أن ينصحه فى العمــل لأنه بنفسه ليس بعامل . ويفكر أنه لو نصحه فماذا يقول هذا الشخص عنه فى نفسه بل الغالب أنه لكى يعظم نفسه يحاول تأويل فساد عمله بأى طريقة بأنه هو الصحيح وهذا فيه خطر وباب ضلال شديد .

ثانيا : لا يكون فى تعليم هذا وتربيته الأنــوار والبــركات والتــأثير والامداد الغيبى ــ وهكذا لو كان متقيا وصالحا ولكن لا علم له بطريقة التربية الباطنية فلا يستطيع رفع حاجة الطالب ــ وكما أنه يعلم عن الطبيب الظاهرى أنه طبيب كامل حقا بعلامة كأن يكون قد درس علم الطب وقد لازم بعده مدة كافية طبيبا كاملا وتدرب عليه ويأتى اليه العقلاء من الناس للعلاج ويشفى على يديه المرضى بعلاجه هكذا فى الطبيب الباطن أيضا أى الشيخ لكى تتحقق أنه شيخ يعتبر به له علامات كذلك وهى : أن يكون قد لازم أحدا من المشايخ الكاملين مدة مديدة من الزمن واستفاد منه ويكون موثوقا به وحسنا عند أهل العلم والفهم ويرجعون اليه فى السلوك وأن يحس القلب

بزيادة المحبة الالهية وبنقص محبة الدنيا بصحبته ويلاحظ أن تحسن أحوال الملازمين والمصاحبين له يوما بعد يوم الى الأفضل ـ فهذا الشخص أهل بأن يجعل شيخا هو الاكسير الأعظم وزيارته وخدمته كالكبريت الأحمر • اذن فمجموعة الصفات التى ينبغى أن تكون فى الشيخ الكامل هى :

ان يكون متقيا صالحا ـ متبعا للسنة ـ عالما بالدين بقدر الضرورة ـ يكون قد لازم أحد الكاملين واستفاد منه باطنيا ، يميل اليه العقلاء والعلماء وتكون صحبته مؤثرة وتصلح به حالة المريدين •

وقد ذكر الشاه ولى الله الدهلوى فى (القول الجميل) شرائط المرشد أشد من هذه فقال قدس سره :

« وأما المسألة الثالثة فشرط من يأخذ البيعة أمور :

أحدها : علم الكتاب والسنة ولا أريد المرتبة القصوى بل يكفى من علم الكتاب أن يكون قد ضبط تفسير المدارك أو الجلالين أو غيرهما وحققه على عالم وعرف معانيه وتفسير الغريب وأسباب النزول والاعراب والقصص وما يتصل بذلك ـ ومن السنة أن يكون قد ضبط وحقق مثل كتاب المصابيح وعرف معانيه وشرح غريبه واعراب مشكله وتأويل معضله على رأى الفقهاء » يقول المترجم : انه اشترط هذا الشرط لأن مخالفة الأئمة الأربعة فيها ضلالة صريحة • أى أنه ترك الاجماع ـ ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوى قدس سره ان هذا المقدار من العلم يكفى للارشاد والسلوك • ثم يقول الامام ولى الله الدهلوى « وانما شرطنا العلم لأن الفرض من البيعة أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وارشاده الى تحصيل السكينة الباطنة وازالة الرذائل واكتساب الحمائد ثم امتثال المسترشد به فى كل ذلك فمن لم يكن عالما كيف يتصور منه هذا ؟ •• يقول المترجم : انظر سبحان الله كيف انعكس الوضع الآن فيظن هؤلاء الفقراء الجهلة سفها أن العلم ليس بمهم فى أمور التصوف بل يظنون أن العلم مضر بالنسبة لهذا الشأن لأن الشريعة شيء والطريقة شيء آخر افتراء وزورا وكذبا ـ مع

أن الصوفية المتقدمون رحمهم الله قد صرحوا فى كلماتهم وكتبهم مثل : قوت القلوب وعوارف المعارف واحياء العلوم وكيمياء السعادة وفتوح العيب وغنية الطالبين للشيخ عبد القادر الجيلانى أن علم الشريعة شرط للتصوف والطريقة ، وهذه طامة عظيمة أن هؤلاء المشايخ الذين لا يفترون عن ذكر أسمائهم ليلا ونهارا يجهلون أقوالهم وتصريحاتهم ومؤلفاتهم (وانما يتبعون أهواءهم فيضلون ويضلون) — ويقول الشيخ آلنواب قطب الدين فى حاشيته أنه قد ثبت عن سيد الطائفة الصوفية وامام أرباب الطريقة الجنيد قدس سره بعبارات مختلفة أنه صرح بأن لا يقتدى فى الطريق بمن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة — ونقل عنه رحمه الله أنه قال « كل طريقة ردته الشريعة فهى زندقة ، ونقل عن السرى آلسقطى وغيره مثل هذه العبارات وقال انه نقلت أقوال المشايخ فى كتاب جامع التفاسير ص ١١ فمن أراد أن يطالعها فليرجع اليه ، ثم قال الامام الشاه ولى الله « وقد اتفقت كلمة المشايخ على أن لا يتكلم على الناس الا من كتب الحديث وقرأ القرآن اللهم الا أن يكون رجل صحب العلماء الاتقياء دهرا طويلا وتأدب عليهم وكان متفحصا عن الحلال والحرام وقافا عند كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فعسى أن يكفيه ذلك والله أعلم ، والشرط الثانى العدالة والتقوى فيجب أن يكون مجتنبا عن الكبائر غير مصر على الصغائر ، قال الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوى فى الحاشية « شرطت التقوى فى المرشد لأن البيعة شرعت لتصفية الباطن وتزكيته والانسان مجبول على اقتداء أفعال أبناء نوعه ولا يكفى للتصفية القول فقط بدون العمل فالمرشد الذى لا يكون متصفا بأعمال الخير اكتفى بالقول الحسن فانه نصاب وقاطع طريق والشرط الثالث : أن يكون زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة مواظبا على الطاعات المؤكدة والأذكار المأثورة المذكورة فى صحاح الأحاديث مواظبا على تعلق القلب بالله سبحانه وكان ياد داشت له ملكة راسخة (والياد داشت : عبارة عن التوجه الصرف المجرد عن الألفاظ والتخيلات الى حقيقة واجب الوجود جل جلاله) والشرط الرابع : أن يكون آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مستبدا برأيه لا امعه

ليس له رأى ولا أمر ، ذا مروة وعقل تام ليعتمد عليه فى كل ما يأمر به وينهى عنه قال الله تعالى « ممن ترضون من الشهداء » فما ظنك لصاحب البيعة ، والشرط الخامس : أن يكون صحب المشايخ وتأدب بهم دهرا طويلا وأخذ منهم النور الباطن والسكينة ، وهذا لأن سنة الله جرت بأن الرجل لا يفلح الا اذا رأى المفلحين كما أن الرجل لا يتعلم الا بصحبة العلماء وعلى هذا القياس غير ذلك من الصناعات ، ولا يشترط فى ذلك ظهور الكرامات والخوارق ولا ترك الاكتساب ، لأن الأول ثمرة المجاهدات لا شرط الكمال ، والثانى مخالف للشرع ، ولا تغتر بما فعله المغلوبون فى أحوالهم ، انما المأثور القناعة بالقليل والورع من الشبهات ، وقال الامام الشيخ عبد العزيز الدهلوى : كذلك لا يشترط أن يختار الترهب التام أى يشق على نفسه فى العبادات كصوم الدهر وسهر الليالى والخلوة عن الناس وترك النساء واجتناب لذائذ المأكولات أو المشروبات أو الالبسة أو الخروج الى الصحارى والبرارى ونحوها لأن هذه الأمور من التشدد فى الدين والتشدد على النفس وقد نهينا عن ذلك ولا رهبانية فى الاسلام ا هـ .

هذه الشرائط التى ذكرها سيدى الشاه ولى اللهالدهلوى شديدة والتى ذكرها حكيم الأمة التهانوى أهون منها ــ والاكابر من قبل سيدى الشاه ولى الله الدهلوى أشغلوا مريديهم فى مجاهدات ورياضات أشد منها ثم أكرموهم بالخرقة فحكاياتهم معروفة ومعلومة مذكورة فى كتب تواريخهم ــ وقصة الشاه أبى سعيد الكنكوهى شهيرة جدا قد ذكرتها فى كثير من رسائلى وهى بالاختصار أنه قدس روحه حضر للشيخ نظام الدين البلخى للبيعة وعندما علم الشيخ به خرج من البلدة مسافة مرحلة لاستقبال النجل الكريم وصحبه الى بلخ معززا مبجلا وهناك أكرمه وأجلسه على مسنده وجلس أمامه كالخدم وهكذا طول مدة اقامته هناك ثم عندما أراد الشيخ أبو سعيد الرجوع واستأذن الشيخ فى ذلك قدم له الشيخ الهدايا والأموال فقال له الشيخأبو سعيد حينئذ سيدى اننىلست فى حاجة الى هذه الثروة الدنياوية وانى لم آت لأجلها الى هنا انى أريد

تلك الثروة التى أتيتم بها من عندنا — لم يسمع هذا الشيخ نظام الدين الا وتغير وجهه وانتهره قائلا امش واجلس فى الدهليز هناك واهتم بأمر تربية كلاب الصيد — وفعلا جعلت كلاب الصيد فى توليته يغسلها وينظفها يوميا ويهتم بجميع شئونها وأحيانا يستخدم فى السقى وأحيانا عندما يخرج الشيخ للصيد والتنزه يخرج هذا المسكين خلفه وبيده سلاسل الكلاب يهتم بأمرها ويخدمها .

وكان الشيخ قد أمر رجاله أن يعطوا لهذا الجالس بالدهليز فى خدمة الكلاب قرصين من خبز الشعير صباحا ومساءا — وأصبح الحال أن الشيخ أبو سعيد عندما يحضر الى مجلس الشيخ لا يرفع اليه بصره حتى وكأنه ليس بالمجلس بل ويأمره أن يجلس بعيدا عنه كأراذل القوم ولا يلتفت اليه بتاتا وكأنه ليس فى الحسبان — وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر أمر المرأة التى كانت تنظف المراحيض أنها بعد الفراغ من عملها تمر بجانب الشيخ أبى سعيد الجالس بالدهليز فى خدمة الكلاب بحيث تلمسه فقط بنجاستها ثم تخبر الشيخ بما يحدث فعلت المرأة ما أمرت به وعندئذ احمر وجه الشيخ أبى سعيد غضبا وقال : لست بكنكوه والا .. فذهبت المرأة وأخبرت الشيخ بالقصة فقال الشيخ : بعد ، مازالت رائحة بنوة المشيخة « الكبر بأنه من أبناء المشايخ » باقية — وتركه على حاله الى شهرين آخرين وبعدها أمرها الشيخ أيضا أن تمر بجنبه كالمرة الأولى بل وتكب عليه هذه المرة قصدا بعض النجاسة ثم تخبر الشيخ بما يحدث — ففعلت . وهذه المرة لم يتفوه الشيخ أبو سعيد بأى كلمة وانما فقط نظر اليها بحدة وغضب . ثم خفض رأسه وجلس صامتا — فجاءت وأخبرت الشيخ بذلك . فقال الشيخ مازالت بعض الرائحة باقية بعد — ثم تركه هكذا عدة أشهر أخرى وبعدها أمر المرأة أن تمر بجانبه وتكب عليه قفة النجاسة بكاملها حتى يمتلى بالنجاسة بكامله ففعلت ولكن هذه المرة كان الشيخ أبو سعيد قد تكون كما أريد له أن يكون فاضطرب لما حدث وأخذ يتملق اليها ويستسمح منها لما حدث ويقول مسكينة المرأة قد سقطت بسببى لا تكون جرحت أو أصابها سوء ثم أخذ يملأ كفه بالنجاسة الملقاة عليه وعلى الأرض ويعيدها ثانية فى القفة بسرعة حتى أعادها كلها فذهبت المرأة وأخبرت

الشيخ بأن الرجل بدلا من أن يغضب على اليوم أخذ يستسمح منى واعاد لى النجاسة كلها فى القفة فقال الشيخ مسرورا نعم اليوم كمل العمل — ثم بلغ الشيخ أبا سعيد بواسطة الخادم أن يجهز الكلاب اليوم للذهاب الى الصيد وفى المساء خرج الشيخ نظام الدين البلخى راكبا على فرسه والخدم وراءه على أقدامهم الى الغابة والشيخ أبو سعيد وراءهم وبيده سلاسل الكلاب — والكلاب كانت معلمة وسمينة ونشيطة والشيخ أبو سعيد مسكين بجسمه النحيل الضعيف مع بذل جهوده لا يطيق سياستها فهى تتفلت منه وأخيرا أخذ السلسلة وربطها حول جسمه حتى لا تفلت منه وعندما رأت الكلاب الصيد هجمت عليه وجرت وراءه وسقط المسكين الشيخ أبو سعيد والكلاب لا تعبأ به همها الصيد وتعدو وراءه والشيخ أبو سعيد الهزيل الضعيف مرمى على الأرض تسحبه الكلاب السمينة ويجرحه الحجر والشجر والشوك حتى دمى جسده كله وأبو سعيد لا يتفوه بكلمة وعندما جاء اليه خادم لنصرته وأقامه أخذ يرتعش من الخوف بأن لا يكون الشيخ قد غضب لتقصيره فى مهمته ولم انفلتت منه الكلاب ؟ وكان مقصود الشيخ الاختبار وقد كان ، وفى نفس الليلة رأى الشيخ نظام الدين شيخه ومرشده قطب العالم الشيخ عبد القدوس الكنكوهى فى المنام وهو يقول بحزن : نظام الدين لم اقسو عليك فى الجهد (للتربية) كما قسوت على أولادى — وفى الصباح الباكر طلب الشيخ نظام الدين الشيخ أبا سعيد من الدهليز وضمه الى صدره وقال له : انى قد أتيت من الهند بفيضان السلالة الجشتية وأنت الآن تأخذ هذا الفيض منى الى الهند — اذهب الى وطنك وبارك الله لك — وجعله مجازا فى الحقيقة واعاده الى الهند — القصة طويلة أمليتها مختصرة — ومثل هذه المجاهدات فى تلك العصور ، معروفة وموجودة بكثرة فى كتب التاريخ — ولكنه بما أن الزمن الآن كل يوم والى الانحطاط من ناحية القوى الجسدية وكذلك بالنسبة للقوة الايمانية أيضا لذلك نرى أن المشايخ من بعد الشيخ التهانوى تساهلوا أكثر منه .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم انكم فى زمان من ترك منكم

عشر ما أمر به هلك ثم يأتى زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا » رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

قال صاحب المرقاة : « المراد بالمأمورية : الامر بالمعـروف والنهى عن المنكر . وفى رأيى أنه شامل لجميع المأمورات والمراد بالنقص انما هو من حيث الخشوع والاحسان .

فقد روى أبو داود وغيره عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الرجل لينصرف وما كتب له الا عشر صلاته ، تسعها ، ثمنهـا ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » فهذا النقص من حيث الخشوع والخضوع أيضا . ولأن الزمن الى الضعف كل يوم وآخر من حيث الايمـان ، ومن حيث القوى الجسدية أيضـا ، لذلك أصبح المشـايخ ينقصون حتى فى المجـاهدات والرياضات ، ويسهلون أيضا فى شرائط الشيخ ، الموضوع طويل جدا ، وكنت أود أن أبسطه ولكن من يقرأ ... ؟ لذلك اكتفى بهذا فقط .

وانما ما كتبه الشيخ السـيد أبو الحسن الندوى فى مقـدمة رسالة « أكابركا سلوك واحسان » للعزيز الصوفى محمد اقبال جامع ومفيـد جدا ، أختم به هذا البحث :

قال : « واعلم أن المذاهب والأخلاقيات والتعليم والتربية ، والاصلاح والتجديد ، والعلوم والفنون ، كل منها يمر بمرحلتين عظيمتين ، ولا مفـر له منهما .

الأولى : حينما تحل الوسائل والوسائط محل القاصد .

والثانية : عندما تكون المصطلحات حجابا للحقائق ، ونحن نعرف جيدا أن الوسائل والمصطلحات كل منهمـا مهم وضرورى ، وفطرى وطبيعى ، ولا يمكن الوصول الى هذه المقاصد أصلا وتشريحها تعميمها وتفهيمها الا بهما ، ولكن الوسائط والمصطلحات تـكون معنى محضا للمقاصـد والحقائق ، واختيارهما يكون لاكمال الضرورة مؤقتـا ، ولكن فى وقت

قد يكون ضروريا ومطلوبا مثل الحقائق والمقاصد ، وقد يختار المجتهد لكل من هذه الفنون الاستغناء عنها اذا دعت الضرورة اليه ، بل فى بعض الأوقات يجب تركها للعلاج ، ويكون المجتهد حاكما . ويلاحظ بدقة ألا تكون الوسائط والمصطلحات مضرة ، وحاجزا ومانعا للطريق ، ولابد أن نعترف ونقر الحقائق التاريخية التى تحكى عن هذه المقاصد الجليلة حيث صارت الوسائط مقاصدا ، وأخفت المصطلحات الحقائق تحت أستار كثيفة ، حتى غابت الحقائق عن أذهان النـاس ، بل قام جم غفير من أهل الدين ومحبيه بانكار هـذه الحقائق والمقاصـد ، وكانوا يرغبون عنها ويكرهونها ، لأجل الأخطاء التى ظهرت من الذين يتحمسون للمصطلحات ، حتى صار أمرا صعبا الاعتراف بمكانة الحقائق وضرورة الحصول وتكميلها لهم ، ولما حاولنا أن نقنعهم بضرورة تحصيل المقاصد ، وسعينا أن نطمئنهم ، جاءت أمام عيونهم جبال الوسائط التى قد سبقت الى أسماعهم وأفكارهم بالمبالغة والتفريط فيها ، وذلك من المدعين المفرطين الذين خاضوا وجادلوا فيها حتى نسوا المقصود .

وهكذا لما طلبنا منهم قبول الحقائق التى لا خلاف فيها لأحـد ، بل تقول انها من البدهيات فصارت المصطلحات حجابا لها ، المصطلحات التى يجوز الاختلاف فيها ، بل انه وضع الاصـطلاح فى أحوال مخصـوصة وفى مكان مخصوص ، فى عصر مخصوص ، لتقريب الأذهان لهذه الحقائق ، تحت مصالح خاصة ، الأصحاب العظام الذين كانوا حاملين هذه الحقائق ، وكانت حياتهم مثالا لهذه الحقائق ، كانوا لا يعلمون عن هذه المصطلحات شيئا اطلاقا ، وقد اخترعوا وأوجدوا لافهام الحقائق وترسيخها فى الأذهان الكلمات ، والطرق ، والأساليب .

ونحن حينما نفكر فى هـذه المصطلحات مثلا : النحـو ، والصرف ، القواعد ، اللسان ، العلوم ، والبلاغة ، والحقيقة ، والطريقة ، والمعرفة ، وجلاء الباطن ، واصلاح النفس ، وما الى ذلك ، ننظر فى تاريخهـا ونتفكر فى السلف والخلف ، أى المتقدمين والمتأخرين لهذه الفنون ، فنجد حقيقـة واضحة على السواء ، أن المتقدمين كانوا حكاما على الوسائط والوسائل ،

وصار المتأخرون محكومين لها ، المحققون كانوا داعين وساعين الى الحقائق، والناقصون صاروا عبيدا وأسرى للمصطلحات ، والأديان والأخلاقيات والعلوم والفنون ، كل منها بالنسبة لمقاصدها ابتلى بهذا الابتلاء ، ومنها التصوف والسلوك أيضا ، ونحن فى استطاعتنا أن نقول : ان مقاصد التصوف وحقائقه أمر اجماعى ومتفق عليه ، ولكن أثر فيها الشيئان المذكوران ، أى الغلو ، والافراط فى الوسائل ، والاصرار على المصطلحات •

فلو سألنا أحدا : هل الاخلاص والتخلق بالأخلاق الحسنة ضرورى أم لا ؟ وهل حصول اليقين ضرورى أم لا ؟ التزين بالخصائل الحسنة والأعراض عن الرذائل مثل الحسد ، والكفر ، والرياء ، والبغض ، والحقد، وحب الدنيا ، وحب المكانة ، وما الى ذلك من العادات الرذيلة ، وحصول الخلوص من النفس الأمارة ، هل ضرورى أم لا ؟ مستحسن أم لا ، ولو فى درجة ما ؟ والخشوع والخضوع فى الصلاة والتضرع ، والابتهال فى الدعاء ، ومحاسبة النفس ، وحب الله ورسوله ، والصفاء فى المعاملات ، والصدق والأمانة ، والاهتمام بحقوق العباد ، والقدرة على النفس الأمارة، وكظم الغيظ ، وما الى ذلك ، كل هذا مطلوب أم لا ؟ •

فالانسان الذى فى فطرته شىء من الصلاح ، خصوصا المسلم الذى لا يتعصب سيجيب بالاثبات ، بل يزيد عليه بأن هذه الأشياء مطلوبة أيضا • وكتاب الله وسنة رسول الله مليئان بهما تأكيدا وترغيبا ، وقلنا لهم : ان الطريق لنيل هذه الصفات والمقاصد • هو الطريق الذى سماه الناس فى القرون الأخيرة بالتصوف : يكون مفاجأة لهم ، تبدو آثار الغضب واضحة على وجوههم ، لأنهم لا يحبون هذا الاصطلاح ، ولأنهم يحملون ذكريات غير مرضية لبعض هؤلاء الناس الذين يحملون لواء التصوف ومصطلحاته ، ولكن هذا ليس مخصوصا بالتصوف ، ولا من خصائصه ، بل هذا حال شامل لكل العلوم والفنون ، ولكل دعوة ومدرسة فكر ودعوة اصلاح ، وكذا الجماعات الدينية المتميزة بالاسلوب الحديث ، ويوجد فى الجمعيات الدينية المخلصون والمنافقون .

والمحققون وغير المحققين ، والصادقون وغير الصادقين ، وأيضا العاملون بالاخلاص بدون غرض ، والناس الذين يعملون لمصلحة أو لأخرى ، كل منا يدرك هذه الحقائق تماما ، ولا مجال لأحد أن ينكرها ، وبالرغم من هذا لا يقدر أحد منا أن ينكر ضرورة الجمعيات والعلوم والفنون المذكورة ، ولا يستطيع أن يخالفها لوجود الموانع المذكورة . وهذه كبقية الأشغال والأعمال كلها ، مثلا تفكر فى الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال تجد فيها الكاملين والناقصين ، نجد فيها الهادين والمضلين ، ولكن جربنا ونجرب كل يوم أن هذه الأمور سائرة فى طريقها ، والانسان يراعى مصلحته ، ومن أجل الناقصين والمدعين لا يترك مصلحته ، ولا يجب أن يترك أيضا الحقائق ، ولو كانت تختلف تماما عن مصطلحاتها ، وفيه معنى قول الشاعر :

الرجل العاقل لا يخوض فى الألفاظ ، لأن مقصد الغواص الدر وليس الصدف .

وقد تفكرنا فى شأن التصوف فوجدنا أن هناك جماعتان ، كل واحدة منهما لها وجهة نظر ، أولاها لما نعرض عليها أجزاء التصوف على حدة تقبلها ، ولكن حين تقول لها نحن نسمى المجموعة كلها بالتصوف ، تنكرها وتبادر هذه الجماعة بالانكار والتشديد عليه ، وتقول : نحن لا نعرف التصوف ، ان للتصوف أضرار بالغة بالمسلمين ، بل وبالدين أيضا .

والجماعة الثانية عندما يعرض عليها بأسماء أخرى مثلا ، تقول لها : ان التصوف فى اصطلاح القرآن الكريم : التزكية ، وفى اصطلاح الحديث يسمى بالاحسان ، وعند بعض العلماء المتأخرين : فقه الباطن ، فتقول : لا نختلف فى هذا ، وكلها منصوص عليها ، وفى الحقيقة : لا نستطيع أيضا أن نحكم على السنة الناس ، ولو كان فى استطاعتنا نسميناه بالتزكية والاحسان ، وتركنا كلمة التصوف كليا ، ولكنه بهذا الاسم صار معروفا ومشهورا ، لا نستطيع أن نغيره ، ولكن ليس هذا من خصائصه ، بل ان تاريخ العلوم والفنون كلها ملىء بهذه المصطلحات ، والمحققون يصرون دائما على المقاصد ، ويخلون بالوسائل كلها ، ويبالغون فيها ، بل ينكرون بشدة وبكل صراحة الأشياء التى تتعرض

لمبادىء الفن وروحه ، ولا تتمشى مع المقاصد بل تنافيها ، وقد تكون مضرة له فى وقت ما .

وما مر على تاريخ الاسلام زمن الا وقد قام من الدعاة والمعلمين ، ومن أهل التحقيق للفن ، للتفريق بين القشر واللب ، وبين الحقائق والصور وبين المقاصد والرسوم .

وكلنا نعلم ، والتاريخ يشهد أن الشيخ الكبير عبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى ، والامام المجدد الشيخ أحمد السرهندى ، والشيخ المحدث ولى الله الدهلوى ، والشيخ المجاهد أحمد الشهيد ، والشيخ الامام الربانى رشيد أحمد الكنكوهى ، والشيخ محيى السنة أشرف على التهانوى ، كل هؤلاء قاموا بالتفريق بين القشر واللب والمقصود وغير المقصود ، وخالفوا الرسوم وأقلعوا عن البدع التى جاءت ودخلت بالاختلاط مع الكفار والناقصين فى التصوف ، وأصبحت كأنها جزء من التصوف والطريق ، ونجد هذه الأشياء بكل وضوح وصراحة فى كتب المشايخ مثل « فتوح الغيب » و « غنية الطالبين » للشيخ الكبير السيد عبد القادر الجيلانى ، و « عوارف المعارف » للشيخ شهاب الدين السهروردى ، و « مجموعة الرسائل » للامام المجدد الشيخ أحمد السرهندى ، وكتب الشاه ولى الله الدهلوى ، و « صراط مستقيم » للسيد أحمد الشهيد ، ومجموعة الرسائل للامام المحدث رشيد أحمد الكنكوهى ، و « تربية السالك وقصد السبيل » للشيخ محمد أشرف على التهانوى ، هؤلاء الأكابر فرزوا اللبن من الماء والحقيقة من التصنع ، حتى أن الشاه ولى الله الدهلوى كتب أن نسبة التصوف الحقيقى هى الكبريت الأحمر ، أى أنها نعمة عظمى ، ولكن الرسوم التى لا أصل لها فى الشريعة لا قيمة لها البتة ، وهؤلاء الكبار كانوا يدعون دائما الى الأخلاق الحسنة والصفاء فى المعاملات ، والاهتمام بحقوق العباد ، وكانوا يجعلونها شروطا أساسية للاصلاح والتقرب الى الله ، وكتبهم مملوءة بهذا ، وكان هذا موضوع محافلهم .

والصالحون الذين عاصرتهم وحضرت عندهم مرارا وتعرفت على

لتصوف بهم ، لم أجد فيهم التصوف والسلوك فقط ، بل وجدت فيهم خلاصة الدين والشريعة ، وأخلاقهم كانت نموذجا للخلق النبوى الكريم ، وكانت معاملاتهم وأعمالهم وحياتهم كاملة فى ميزان الشريعة ، ووجدتهم يفرقون بين المقاصد والوسائل دوما ، ووجدتهم مستغنين عن المصطلحات ، مكبين على الحقائق نافرين عن الرسوم ، مخالفين للبدعة مخالفة شديدة ، ووجدتهم مطيعين ومتبعين للسنة ، لا فى العبادات فحسب ، بل فى المعاملات والعادات أيضا ، وكانوا مجتهدين فى هذا الفن ، وليسوا مقلدين ، يعملون بالاختصار والاختيار ، وبالحذف والترميم فى ضوء البصيرة والفراسة وطول التجربة فى هذا الفن ، يعملون النسخة الطبية الروحانية للمرضى حسب أحوالهم الروحانية وأمراضهم المتنوعة ، ويراعون فى العلاج أختلاف الطبائع والمشاغل والأحوال ، شأنهم شأن المجتهد الذى يحكم على الفن ولا يحكم عليه ، ومقصودهم شفاء العليل ، لا أن يكون أسيرا للرسوم وجدت عندهم الصفاء فى الخلق ، والكد فى المجاهدات ، مع الاعتدال فى الطبيعة ، وضبط النفس والايثار والانقياد ، والاطاعة فى كل شىء ، والاخلاص ، وابتغاء رضا الله وهو المقصود الأصلى من التصوف والأذكار والمجاهدات ، وصحبة الشيخ والبيعة نفسها ، فان لم يحصل هذا المقصود فكل شىء مرفوض) اهـ .

ان ما ذكره الشيخ أبو الحسن عن التصوف حق وعدل وقد ذكر ذلك كثير من الأكابر أنه لا ينكر أحد هذه المسميات وانما الخلاف فقط فى التسمية ، فان بعض الناس ينزعجون من اسم « التصوف » بعضهم للجهل وبعضهم قد رسخ فى فكره للتصوف مفهوما خاطئا بسبب عوارض متنوعة .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى الجزء الحادى عشر من فتاواه وهذا الجزء بكامله فى التصوف يقول رحمه الله وقد سئل عن الصوفية وانهم أقسام فما صفة كل قسم وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟ فأجاب : الحمد لله . أما لفظ « الصوفية » فانه لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة ، وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من

الأئمة والشيوخ : كالامام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الدارانى وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى ، وتنازعوا فى المعنى الذى أضيف اليه الصوفى » ثم نقل فى ذلك عدة أقوال وقال بعدها : « وقيل ــ وهو المعروف ــ أنه نسبة الى لبس الصوف ، فانه أول ما ظهر الصوفيـة من البصرة وأول مـن بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخـوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقـه كوفى وعبادة بصرية .. ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة فى هذا الباب انما هو عن عباد أهل البصرة مثل حكاية من مات أو غشى عليه فى سماع القرآن ونحوه ، كقصة زرارة بن أوفى قاضى البصرة فانه قرأ فى صلاة الفجـر (فاذا نقر فى الناقور) فخر ميتا ، وكقصة أبى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله فلما ظهر ذلك أنـكر ذلك طائفة من الصـحابة والتـابعين .. والمنكرون لهم مأخذان : منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا .. ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدى الصحابة كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله .

والذى عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء اذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه ، وان حال الثابت أكمل منه ، ولهذا لما سئل الامام أحمـد عن هذا ، فقال : قرىء القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليـه ولو قدر أحد أن يرفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ، ونحو هذا . وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك ، وعلى بن الفضيل ابن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب فى صدقه، لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى القرآن وهى وجل القلوب ودموع العين واقشعرار الجلود ، ثم ذكر الآيات الدالة على ذلك وقال : وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها والجفاء

عن الدين ما هو مذموم ، وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها ، وكلا طرفى هذه الأمور ذميم .

بل المراتب ثلاث :

أحدها : حال الظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب لا يلين للسماع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود ــ قال الله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) الآية ..

والثانية : حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشى ، فان ذلك انما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله وقد يوجد مثل هذا فى من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أمورا دنيوية ، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب عقله ، ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه وكذلك فى غيره ، ولا يكون هذا الا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التى تمرضه أو تقتله ، أو كان أحدهم مغلوبا على ذلك .

فاذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كمن سمع القرآن السماع الشرعى ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك ، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك من الأمور التى تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فانه اذا لم يكن السبب محظورا لم يكن السكران مذموما بل معذورا .. فهذه الأحوال التى يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك اذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزا عن دفعها كان محمودا على ما فعله من الخير وما ناله من الايمان معذورا فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص ايمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التى تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الايمان ما حصل لهم

أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم ، وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فانه أسرى به الى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى صلى الله عليه وسلم الذى خر صعقا لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة علية فاضلة ، لكن حال محمد صلى الله عليـه وسلم أكمل وأعلى وأفضل .

واذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد مما له فيه اجتهاد كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا الى اللبسة الظـاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم : « صوفى » وليس طريقهم مقـيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا فى حدوده وسيرته وأخلاقه كقول بعضهم : الصوفى من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر واستوى عنده الذهب والحجر ، والتصوف كتمان المعانى وترك الدعاوى وأشباه ذلك . وهم يسيرون بالصـوفى الى معنى الصـديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون ..

فهذا أصل التصوف ، ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

١ ـ صوفية الحقائق .

٢ ـ وصوفية الارزاق .

٣ ـ وصوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق : فهم الذين وقفت عليهم الوقوف ، كالخوانك فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق ، فان هذا عزيز ، وأكثر

أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

والثانى : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم » انتهى .

ونقل العارف الكبير الشيخ شهاب الدين السهروردى فى كتابه عوارف المعارف بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل شىء مفتاح ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء الصبر، هم جلساء الله تعالى يوم القيامة » فالفقر كائن فى ماهية التصوف وهو أساسه وبه قوامه .

قال رويم : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال الجنيد ــ وقد سئل عن التصوف فقال ــ أن تكون مع الله بلا علاقة . وقال معروف الكرخى : التصوف : الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف .

وقال الحسن البصرى رحمه الله : لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف .

الأشـــغال والأحـــوال

أكبر شيء فى الأشغال : ذكر الله ـ وأهـم شيء فى الاذكار كلهـا هو « لا اله الا الله » لذلك يهتم فى جميع طرق الصوفية بالذكر بهذه الكلمـة الشريفة وان اختلفت الهيئة والطريقة فى الذكر عند أحدهم عن الآخر كما أنه يوجد باستمرار الاختلاف فى محتويات الأدوية وتركيباتها عند الأطباء ، وقد مر على أن وجدت شيئا عجيبا جدا عند الأطباء وهو « أن أحـد المرضى كتب له طبيب وصفة ما فلم يستفد منهـا فذهب الى طبيب آخـر فأبقى نفس الوصفة انما غير فقط فى موازين وكميات بعض أجزائها فأحتار جدا عندما أرى أن الدواء نفسه فقط تغيرت هيئته التركيبيـة فى بعض أجزائها وتغير الأثر فور استعماله اياه . وقد شاهدت هذا مرارا .

فى (تذكرة الرشيد) حرر القطب الامام الكنكوهى نور الله مرقده للشيخ التهانوى نور الله مرقده ردا على احـدى رسـائله : ان قيـود وتخصيصات أشغال المشايخ الموجودة ليست بدعة أصلا ـ وجعلها مقيسا عليها يوجب الحيرة الشديدة (كان الشيخ التهانوى فى رسالته قد قاس تخصيصات الاحتفال بالمولد على تخصيصات وقيود اشغال المشـايخ) وخاصة من شخص عاقل زكى مثلك ـ لأن تحصيل النسبة والتوجه الى الله تعالى مأمور به من عند الله عز وجل مع أن هذا كلى مشكك اذ أن أدناه فرض وأعلاه مندوب وقد ثبت بمئات الآيات والأحاديث أنه مأمور به ، وقد بينه صلى الله عليه وسلم بل الرب جل وعلا بعبارات وطرق وأساليب شتى ـ وكأن الشريعة كلها اجمالها ما هى الا هذا ولا نستطيع البسـط فيه لطوله ـ ان تمعنت جيدا ظهر لك أن كل آية وكل حديث يثبت منـه ذلك ـ فالشيء الذى يثبت لهذه الدرجة انه مأمور به فكل طريقة تختار للحصول عليه تكون مأمور بها أيضا وفى كل زمن ووقت بعضه يكون مؤكدا وبعضه غير مؤكد ـ لذلك ففى زمن كان الصوم والصلاة وتلاوة القرآن

والاذكار المأثورة فى الأحاديث كافية وافية لحصول هذا المأمور به فى ذاك الزمن هذه الاشغال بقيودها وهيئاتها الخاصة وان كانت جائزة ولكن لم تكن الحاجة اليها ، ثم بعد عدة طبقات عندما تغير لون النسبة الى جهة أخرى وطبائع أهل هذه الطبقة تغيرت وتبدلت بسبب بعدها عن القرون المشهود لها بالخير وكانت هذه الاوراد المذكورة يمكن بها وحدها الحصول على النسبة ولكن بصعوبة ومشقة شديدة لذلك أضاف اليها الاطباء الباطنيون بعض القيود وزادوا ونقصوا فى الأذكار فكأن الحصول على المقصود توقف على هذه القيود لذلك فلا يكون هذا الايجاد بدعة . بل وان قال أحد انه ضرورى ولازم فهو حق لأن حصول المقصود بدونه صعب — وهذا المقصود مأمور به شرعا والحصول عليه ضرورى وواجب فاذن القيود أيضا صارت مأمور بها لا بدعة — ثم بعد ذلك الطبقة التى بعدها تغير لونها أيضا واحتاج هناك أيضا الى التجديد فى هذه القيودات وثم وثم وهكذا — كما أن الطبيب فى الشتاء يعالج بطريقة ما ولكن هذه الطريقة نفسها لا تجدى فى العلاج صيفا بل انها أحيانا تسبب الضرر وتزيد فى المرض وباعتبار اختلاف الأزمنة تبدل تدابير العلاج الأولى الى تدابير جديدة فمثلا المعالجات التى كانت موجودة فى ديارنا قبل مائة سنة من الآن وما هو محرر فى كتب السابقين من الأطباء الموجودين حينئذ كل ذلك ليس بكاف للعلاج فى يومنا هذا بتاتا فالاتيان ببدلها موافق للقواعد الأصلية فى الطب وان كان مخالفا للعلاج الجزئى — فلا يقال لهذا انه اختراع جديد بل يقرر انه مطابق لأصل الأصول .

والنظير الثانى هو اعلاء كلمة الله أى الجهاد — تأمل جيدا أنه فى الطبقة الأولى كانت تكفى السيوف والرماح والسهام بل والحجارة — كما تعلمون ذلك من الأحاديث — وفى زماننا استعمال هذه الأشياء أحيانا يضر ويجب وجوبا اعداد البنادق والقنابل والأسلحة الحديثة لأن تحقيق اعلاء كلمة الله بدون هذه الأشياء أصبح محالا لذلك لا يمكن ان يقول أحد لهذه الأشياء أنها بدعة ولا أنها تشبه بالكفار فتحرم ، بل يجب أن يقال : آنها فرض وواجب ومأمور بها ، لأن الحصول على المقصود أصبح

وكأنه موقوف عليها فصارت هذه الأشياء أيضا مأمور بها وعلى هـذا القياس حال الاشغال أيضا ، فقط ا هـ . وأهم شيء فى الاذكار الكلمةالطيبة وقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضىالله تعالىعنه قال : قالرسولالله صلى الله عليه وسلم : قال موسى عليه السلام يارب علمنى شيئا أذكرك به أو أدعوك به فقال ياموسى قل لا اله الا الله فقال : يارب كل عبادك يقول هذا انما أريد شيئا تخصنى به ، قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع وضعن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله » رواه فى شرح السنة كذا فى المشكاة .

وقد ذكرت فى رسالة « فضائل الذكر » لهذا المقصر عدة روايات عن فضائل « لا اله الا الله » واهميتها من جملتها عن جابر رضى الله عنـه أن رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم قال : أفضل الذكر لا اله الا الله يقول العلامة ملا على قارى رحمه الله لاشك أن أفضل الأذكار وأعظمها « لا اله الا الله » وبسط فى بيان فضائلها وذكر الحديث أن الصحابة رضى الله عنهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم : كيف نجدد ايماننا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أكثروا من قول لا اله الا الله » ا هـ .

قلت : ان مشايخ السلوك والأطباء الروحانيون يعلمون طريقة الذكر بهذه الكلمة لمرضى متنوعين بطرق متنوعة ــ عند المشايخ الجشتية ذكر « الاثنا عشر سبحة » شهير جدا ففيه أولا مائتين مرة : (لا اله الا الله) وأربعمائة مرة : (الا الله) ثم ستمائة مرة (الله الله) ثم فى نهايتها مائة مرة فقط (الله) يقول الشيخ التهانوى رحمه الله فى التكشف :

ان اعتراض بعضـهم على ذكر (الا الله) فقط بأن المسـتثنى بدون المستثنى منه وبدون العامل تكون العبارة لا معنى لها فمثل هذا الذكـر الذى لامعنى له : لا يعتبر ذكرا ولا يكون عليه أجر ، فيكون عبثا فلم اختير اذن ــ أقول أنه حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى فتح مكة لا يعضد شجرها قال العباس رضى الله عنه « الا الا ذخـر يا رسول الله » فقال صلى الله عليه وسلم « الا الا ذخر » علم منه جواز حذف العامل والمستثنى منه عند قيام القرينة ــ فكذلك فى قول (الا الله)

القرينة موجودة فقد وجد قبلها الذكر « بلا اله الا الله » أو بقرينة عقيدة الذاكر حذف المستثنى منه فما الحرج — ويمكن توجيه آخر وهو أنه ما ذكر قبلها من قول (لا اله الا الله) أتينا منها مكررا بقول (الا الله) فقط فيكون المراد فى كل مرة نفس العامل والمستثنى منه السابق ، والتكرار الذى هو للتأكيد ليس هناك دليل على تحديده فبقدر ما يكون الاهتمام بقدره يكون التكرار مستحسنا وبمقتضى المقام فقد ورد فى بعض الروايات عن بعض العبارات أنه صلى الله عليه وسلم (مازال يكررها حتى وددنا أنه سكت أو نحوه) •

ونظائر ذلك موجودة بكثرة فى الأحاديث الشريفة ففى قصة قتل اسامة رضى الله عنه الشخص الذى ظنه منافقا قوله صلى الله عليه وسلم « كيف تصنع بلا اله الا الله اذا جاءت يوم القيامة ، قاله مرارا » رواه مسلم • وفى المشكاة فى كتاب الجهاد قال صلى الله عليه وآله وسلم : وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجة كما بين السماء والأرض ، قال : وما هى يارسول الله ، قال : الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم •

وهكذا مئات الأحاديث موجودة فى كتب الحديث لا تخفى على دارسى الحديث حيث كرر فيها اللفظ الواحد مرارا كثيرة •

وهكذا يعترض البعض على ذكر لفظ الجلالة فقط (الله الله) فان قول الله •• الله فقط لفظ مفرد فانه لا يفيد معنى خبريا ولا معنى انشائيا فما الفائدة من هذا الذكر الذى ليس له أى معنى ؟ قلت ولكن فى الحديث بنفس هذا الافراد بين لنا أن الاسم الشريف هكذا معقول كما فى رواية مسلم (لا تقوم القيامة ورجل يقول الله الله) فعلم منه أنه حتى تكراره مشروعا ، والمعنى لا ينحصر فى الخبر والانشاء فقط فان قصد منه فقط التبرك والاستحضار فكيف يكون بلا معنى وبدون فائدة ، فان قوله تعالى « واذكر اسم ربك » بظاهر لفظه يعم ذكر الاسم محضا أيضا — وكذلك يمكن التوجيه أيضا بأن حرف النداء محذوف

وحذف النداء شائع ومشهور ــ فهذا النداء بسبب الشوق والتلذذ بالاسم (التكشف ص ٧٠٢) •

وقال الشيخ التهانوى فى « البوادر » (ان القول المحقق فى هذا الباب والبعيد عن التكلف هو بأنه كما أن فى قراءة القرآن أحيانا يكون المقصود: التلاوة وحينئذ يشترط أن يكون طريقه منقولا • واختيار غير المنقول بدعة ، وأحيانا يكون المقصود من قراءة القرآن فقط استحضاره فى الذهن ورسوخ حفظه فى هذا الحال لا يلزم اتباع المنقول ــ فمثلا شخص يكرر كلمة مفردة لوحدها مرات ويحفظها هكذا وشخص آخر يكرر جملة جملة وشخص ثالث يكرر آية آية كل ذلك جائز ــ لا حاجة الى أن نبحث أنه كيف كان السلف طريقهم فى هذا الشأن ــ هكذا فى عبارة الذكر أيضا أحيانا يكون الذكر بنفسه مقصودا بذاته فهذا يشترط فيه أن تكون الهيئة منقولة وأحيانا يكون المقصود فقط استحضار مطلوب خاص ورسوخ ماله علاقة بهذه العبارة ففى هذه الحال لا يشترط أن تكون هيئة الطريقة منقولة ــ فهنا أيضا فى (الا الله) ولفظ الجلالة (الله) ليس المقصود بالتكرار المعتاد الذكر بذاته بل المقصود استحضار مطلوب خاص والمطلوب الخاص هو الترقى التدريجى فى الفناء العلمى عن غير الله وفى التوجه الى الله عز وجل ــ ففى البداية تكون كثرة المشهودات لذلك نفى هذا المشهود (بلا اله الا الله) ورسخه ــ وبتكراره عندما حصل له نوعا من الفوز فى مقصوده أى (نفى المشهود) فلرسوخ ثبوت الذات العلية محضا فى الذهن جاء التكرار بـ (الا الله) ثم الثبوت أيضا كانت نسبة حكمية فلرفع النظر عنها أيضا ولرسوخ تصور الذات فقط فى الذهن جاء التكرار باسم الجلالة (الله) وحده فقط وبمزاولته يحصل له عدم الالتفات الى غير المطلوب والالتفات الخاص الى الحضرة الالهية المطلوبة بل وبعد الرسوخ فيه وأداء حق الذكر الكامل يصل تدريجيا الى المقصود ــ وبفضله تعالى رفعت جميع الاشكالات بهذا التقرير وثبت أن القول ببدعيته نشأ من قلة التدبر

فيه والحمد لله على ما ألقى وأفهم ولقن وألهم ــ وبقى الآن فقط سؤال واحد وهو أن بالذكر بهذه الطريقة هل يحصل على الثواب والأجر ؟ ــ وللرد عليه نسأل بأنه هل الشخص الذى يكرر من القرآن الكريم كلمة كلمة لحفظ القرآن هل لا يثاب هذا بحفظه بهذه الطريقة ؟ فما كان جواب هذا يكون جواب ذلك ــ وبالنظر على القواعد هناك جواب مشترك لكليهما وهو أنه وان لم يحصل على ثواب التلاوة والذكر ــ فانه سيحصل على ثواب السعى والاعداد للتلاوة الكاملة وذاك على ثواب السعى والاعداد للذكر الكامل ، فقط .

ملاحظة الأنفاس

(وهو مشهور عندهم بقولهم « باس انفاس » ومعناه هكذا (ملاحظة الانفاس) وهو أيضا من الاشغال المهمة عند مشايخ السلوك فانه يذكر الله فيه عن طريق التنفس وله طرق مختلفة ــ معروفة عند المشايخ فالعمل يكون على الطريقة التى يعينها الشيخ لمريده ــ وانما العامل المشترك بين الجميع هو أن يذكر الله فى كل نفس فلا يذهب أى نفس يتنفس به الانسان بدون ذكر الله ــ وقد شدد مشايخ السلوك فى تعليماتهم عليه .

قال الامام الشاه ولى الله الدهلوى فى القول الجميل : قال الأكابر وهذا « باس انفاس » وله أثر عظيم فى نفى الخواطر وزوال حديث النفس اهـ وقال مترجمه قال العارف بالفارسى شعرا ترجمته « انك ان اهتممت بباس انفاس أوصلك الى الملك العلام » .

وفى « ضياء القلوب » : ان الانسان يجب عليه أن يكون يقظا ومنتبها عند كل نفس وبدون (باس انفاس) لا يمكن أن يصفى ويتطهر قلب الانسان من الظلمات والادران ــ لأن هذا الذكر يطهر القلب ويصفيه من الظلمات ويجعله مهبطا للأنوار الالهية ــ لذلك يقال له فى اصطلاح الصوفية « جاروب القلب » .

يقول شيخ الاسلام المدنى نور الله مرقده فى مكاتيبه رقم ١٧ جـ ٣ ص ٩٣ :

الغرض الأصلى من (باس انفاس) بأن لا يخلو أى نفس للمرء عن ذكر الله لا النفس الداخل ولا الخارج ــ الانسان فى اليوم والليلة الواحدة يتنفس ما يقرب من خمس وعشرين ألف مرة (وفى أرشاد المرشد

ذكر ٢٤٠٠٠ مرة) كل نفس من هــذه ينبغى أن يكون معمورا بذكر الله « فما يمضى من العمر فى الذكر فهو الحياة وهو المفيد النافع ، فى الحديث فى « باب صفة الجنة وأهلها » فى الحديث الطويل بعد ذكر صفات أهل الجنة يذكر أنهم « يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » .. رواه مسلم ، قال المحشى عن المرقاة : أى انهم لا يتعبــون من التســبيح والتحميد كما لا تتعبون من النفس ولا يشــغلهم شىء مــن ذلك كمــا لا يمنعكم من النفس كالملائكة ، أو يريد أنها تصير صفة لازمة لا ينفكون عنها كالنفس اللازم للحيوان » اهـ .

تصـــــور الشيخ

ويقال له أيضا شغل « الرابطة » و « البرزخ » و « الواسطة » (كذا فى تعليم الدين) وهو عند مشايخ السلوك من الاشغال الهامة جدا . وقد ذكر المشايخ له فوائد كثيرة ــ وقال بعض الأكابر عنــه أنه لا يجـوز مطلقا ــ وهذا عند هذا العبد غير صحيح . لأن تصور الشيخ يستفاد من أحاديث كثيرة ، لذلك فالذين لا يجوزونه مطلقا لا أدرى عنهم ولم أفهم ذاك تقول عائشة رضى الله عنها فى تطييب المحرم « كأنى أنظر الى وبيص الطيب فى مفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم » الخ الحديث .

وفى رواية ابن مسـعود وقـد ذكرها البخـارى ومسـلم يقول : « كأنى أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحـكى قصة نبى مـن الأنبياء ضربه قومه ، الخ الحديث .

وفى أبى داود فى « باب ما جاء فى خاتم الحديد » حديث على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل اللهـم اهدنى وسددنى واذكر بالهداية هداية الطريق واذكر بالسداد تسديدك السهم » الحديث ، يقول سيدى ومرشدى الشيخ خليل أحمد المحدث السهارنبورى فى شرحه البديع بذل المجهود فى ذيله « أى واذكر بالهداية فى قلبك هداية الطريق كما أن الطريق يسلك فى وسطها ولا يميـل السـالك الى اليمين والشمال ، ولو مال لم يبلغ المقصـود ، كذلك تذكر بالهـداية أن بلوغ المقصود موقوف على الاستقامة فيه ، وكذا واذكر بالسداد تسديدك السهم أى استواءه واستقامته فكذلك يسددنى الله سبحانه ويقيمنى بأن لا يبقى فى اعوجاج كما لا يكون فى السهم » .

وكتب مولانا محمد يحيى المرحوم ، من تقرير شيخه رضى الله عنـه قوله : واذكر بالهداية هداية الطريق ، انما أمره بذلك ليـكون أجمـع لوساوس القلب وأيضا قال الفكر فى المحسوسات أجرى منه فى المعقولات

فنبه أن يتصور عند دعاته هداية الطريق وسداد السهم لئـلا يخطر بباله غيرهما فما هو دونهما فى حصول هذين المطلوبين ؛ وفيه اشارة الى جواز تصور الشيخ ، فان الشيخ ليس أقل مرتبة عند الله من السهم والطريق لاسيما عند معتقديه ، كيف وفيه جمع للخواطر ولو الى جهة أسـفل من التى يجب ارجاعها اليها وهو الواجب تعالى شأنه ، ولا ضير أيضا فى جبه اياه عند التصور ، نعم يضره أن يتصور شيخه متصرفا فى أمر باطنه حين التصور أو حاضرا لديه أو عالما بحاله ، ولذلك اختلف فيه الشيوخ ولعل النزاع بينهما لفظى فمن جوزه أراد الأول ومن منعه أراد الثانى ــ الا أن العلماء لما رأوا أنه منجر الى فساد عقائد العلوم أطلقوا فيه المنع ، وهـو الحق حسب اقتضاء المقام . اهـ .

وفى كتب الحـديث روايات كثيرة بهـــذا المعنى ــ ففى حيـــاة الصحابة فى باب حقيقة الايمان : عن أنس رضى الله عنه قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أصبحت ياحارث بن مالك ؟ قال أصبحت يارسول الله مؤمنا حقا ، قال : ان لكل حق حقيقة فما حقيقة ما تقول ؟ قال : عزفت عن الدنيا وأظمأت نهارى وأسهرت ليـلى وكأنى أنظـر الى عرش ربى وكأنى أنظر الى أهل الجنة فيها يتزاورون والى أهل النـار يتعاوون فقال له النبى صلى الله عليه وسـلم : أنت امرؤ نـور الله قلبك عرفت فالزم » أخرجه ابن عساكر والعسكرى فى الأمثال نحوه واخرجـه ابن المبارك فى الزهد نحو سياقه .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية جـ ١ ص ٢٤٢ عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن معاذ بن جبل رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أصبحت يامعاذ ؟ قال : أصبحت مؤمنا بالله تعـالى ، قال : ان لكل قول مصداقا ولكل حق حقيقة فما مصداق ما تقول ؟ قال : يانبى الله ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أنى لا أمسى وما أمسيت مساء قط الا ظننت أنى لا أصبح ــ ولا خطوت خطوة الا ظننت أنى لا أتبعها أخرى وكأنى أنظر الى كل أمة جاثية تدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها

التى كانت تعبد من دون الله ، وكأنى أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة ، قال : عرفت فالزم » اهـ .

وفى الشمائل للترمذى عن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء كأنى أنظر الى بريق ساقيه ، قال سفيان أراها حبرة . قال الهيثمى ورجاله ثقات ، كذا فى حاشية الباجورى على الشمائل .

وكذلك رواية أنس رضى الله عنه قال لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب الى العجم قيل له : « ان العجم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما ، فكأنى أنظر الى بياضه فى كفه » أخرجه الترمذى فى الشمائل .

وهكذا مئات الروايات عن التصور موجودة فى كتب الحديث ـ لذلك يصعب جدا أن نقول أن تصور الشيخ لا يجوز مطلقا ـ الا أنه ان أفضى هذا التصور الى أمر غير مشروع فيقرر حينذاك أنه ممنوع حتما ـ والا فانه لدفع الخطرات (الخواطر) وبالنسبة للمبتلين فى العشق المجازى يعتبر تصور الشيخ : الاكسير الأعظم .

قال الشيخ التهانوى فى « تعليم الدين » : ذكر فى كتب الفن أنه بتصور صورة الشيخ وكمالاته بكثرة تتولد محبته وتقوى النسبة « الباطنية » وبقوة النسبة تتحصل بركات متنوعة ـ وبعض المحققين ذكر لتصور الشيخ فائدة واحدة فقط وهى أن أحد الخيالات يكون دافعا لخيال آخر فتحصل منه السكينة وترفع به الخطرات .

وعلى كل مهما كانت فيه فوائد وحكم فالراقم (الشيخ التهانوى) تجربته : أن هذا الشغل مفيد للخاصة ومضر جدا للعامة اذ يبلغ بهم الى درجة عبادة الصور ـ وقد منع الامام الغزالى وغيره من المحققين تلقين العامة والأغبياء الأشغال المؤدية الى الكشف ونحوه . لذلك يجب أن يبعد العامة عن هذا الشغل ـ والخاصة اذا عملته فبالاحتياط وفى حدوده ـ فلا يظنوا أن الشيخ حاضر وناظر ومعين لهم ومساعد فى الأحوال ، لأنه

بكثرة التصور أحيانا تحضر الصورة المثالية أمام الشخص ـ ويكون ذلك أحيانا تصور محض ـ وأحيانا تكون لطيفة غيبية تمثلت بهذا الشكل ـ وأغلب الأحيان يحدث هذا والشيخ لا علم له أصلا بما يحدث . وفى هذا المقام عادة يخطىء الجهلة كثيرا . انتهى ، ويقول شيخ الاسلام المدنى نور الله مرقده فى مكاتيبه ص ١/٣٤ رقم ١١ « ان تصور الشيخ يحفظ من الوسوسة والخيالات المضطربة ويتولد من تصور الشيخ كيفيات عجيبة جدا والشيخ لا يكون له علم بكل ذلك ولا يريد حتى تعليم المريد أو نفعه ولا يتوجه اليه وانما هى مؤثرات فطرية جعلها الله تعالى ذريعة للحفظ من الوساوس الشيطانية وسببا لنزول البركات الربانية ـ ولكن بما أن عامة الناس تتخبط أقدامهم فى هذا السبيل لذلك عمل حكماء الأمة فى هذا الأمر بالاحتياط والا فهو شرعا جائز ويظهر ثبوته من الروايات . ا هـ .

فى مكتوب للشيخ المدنى أيضا جـ ١ ص ١٦٠ رقم ٤٥١ : « ان الشاه اسماعيل الشهيد نهى عن شغل البرزخ سدا للذريعة ولكن بلغتنى رواية عن الشيخ الشاه عبد الغنى المجددى رحمه الله أنه كان لا ينهى عنه سأله بعضهم عن جوازه فقدم لهم ألفاظ رواية الامام الحسن رضى الله عنه مستدلا بها على الجواز حيث يروى الحسن رضى الله عنه عن خاله هند بن أبى هالة الذى كان يسأله عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها الحسن معللا سؤاله خاله عن ذلك بقوله « أتعلق به » ويظهر منه واضحا أن حفظ صورته ومثاله صلى الله عليه وسلم فى الذهن مقصود ـ وهذا هو شغل البرزخ ا هـ .

قلت وهذا الحديث موجود مفصلا فى شمائل الترمذى وقد ترجمه بالاردية هذا المقصر وقلت هناك فى فوائد هذا الحديث الشريف : أحببت أن ينقل لى من هذه الأوصاف الجميلة حتى أجعل بيانه حجة وسندا فاجتهد فى ترسيخ هذه الأوصاف الجميلة فى ذهنى وفكرى والتحلى بها بقدر الامكان . ا هـ .

ويقول الشيخ المدنى فى مكتوب آخر رقم ٤/٨٤ « وحصول صورةما

ورسوخها فى الذهن يقال له لغة « التصور » سواء كانت هذه الصورة ذات روح أو غير ذات روح وسواء كانت لشخص عادى أو شخص مهم وسواء كانت لولى أو شيخ كبير أو لأب أو أم أو غيرهم ، وسواء كان يرجى من صاحبها النفع أو لا — ولكن فى العرف تصور الشيخ معناه أن يرسخ المرء فى تصوره صورة أو مثال مقدس أو ولى وخاصة تثبيت ورسوخ صورة أو مثال شيخه ومرشده فى تصوره يقال له « تصور الشيخ » — وتثبيت صورة المرشد أو تمثاله فى الفكر والتصور جائز أصلا بالاتفاق بل انه مفيد — وقد استحبه الصحابة رضى الله عنهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم — ان سيدنا الحسن رضى الله تعالى عنه سأل خاله هند بن ابى هالة مرارا عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهيئته وغيرها لكى يتعلق به بتصوره ويثبته فى ذهنه وفكره — وقد ذكر صلى الله عليه وسلم هيئات وصور الأنبياء ابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام لصحابته رضى الله عنهم وبين لهم صورهم ولباسهم وطريقة مشيهم يظهر منها واضحاأنه كان المقصود أن تثبت وترسخ صورهم وهيئاتهم فى أذهان المخاطبين بصورة جيدة ، ثم ذكر الشيخ المدنى عدة روايات حيث بين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم هيئات الأنبياء وألوانهم وصورهم وطريقة مشيهم وغير ذلك من الأمور فروى عن بيانه صلى الله عليه وسلم فى حق موسى عليه السلام : كأنى أنظر الى موسى فذكر من لونه وشعره شيئا واضعا أصبعيه فى أذنيه له جوار الى الله بالتلبية مارا بهذا الوادى ، الحديث رواه مسلم .

ويقول (فاذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود ورأيت ابراهيم عليه السلام فاذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم يعنى نفسه ..) الحديث رواه مسلم وذكر عدة روايات ثم قال ومثل هذه الروايات كثيرة فى كتب الصحاح لا يثبت منها جواز تصور الشيخ فقط بل يظهر منها استحبابه وأولويته أيضا ويترشح منها أنه ينتج عنه نوع من الفيض والنفع الروحانى والا لم يهتم به هكذا الشارع عليه

الصلاة والسلام بل لكان منع عن ذلك ـ ولهذه المنافع والوجوه قرر فى الزمن السابق أهل الفراسة من المتقين الصالحين العمل بتصور الشيخ وخططوا للإنتفاع من هذه الاداة ـ كتب قطب العالم مولانا الشيخ إمداد الله المكى قدس الله سره العزيز لخليفته الخاص الامام الشيخ الأجل محمد قاسم النانوتوى (فى رسالة أصلها بالفارسية ما ترجمته) اذا ما سنحت الفرصة فاجلسوا بعد صلاة الفجر أو المغرب أو العشاء بانفراد فى حجرة ونحوها وبعد تصفية القلب من جميع الخواطر توجهوا الى هذه الناحية وتصوروا بأنى جالس أمام شيخى والفيضان الالهى يرد من صدر الشيخ الى صدرى ـ فان استأنس القلب وكان الشوق والرغبة فحسن والا فانشغلوا فى ذكر النفى والاثبات بجهر متوسط واستمروا فى هذا الشغل مقدار ساعة أو ساعتين ، وفى رسالة أخرى للامام النانوتوى أيضا (وهذه أيضا بالفارسية ترجمتها) ان وجد فراغ بعد الفجر أو المغرب فراقبوا لحظة أو لحظتين وتصوروا انى جالس بين يدى مرشدى ويرد شيء من قلب المرشد الى قلبى ، ان شاء الله سيكون التوجه من هنا (الشيخ القطب امداد الله قدس روحه) الى جانبكم أيضا وان شمل الحال الفضل الالهى سيكون بذاك نفع واطمئنوا .

يقول الشيخ الامام الشاه ولي الله الدهلوى فى القول الجميل : قالوا « أى المشايخ » : والركن الأعظم ربط القلب بالشيخ على وصف المحبة والتعظيم وملاحظة صورته ، قلت : ان لله تعالى مظاهر كثيرة فما من عابد غبيا كان أو ذكيا الا وقد ظهر بحذائه صار معبودا له فى مرتبته ، ولهذا السر نزل الشرع باستقبال القبلة والاستواء على العرش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صلى أحدكم فلا يبصق قبل وجهه فان الله تعالى بينه وبين قبلته ، وسأل جارية سوداء فقال : أين الله ؟ فأشارت الى السماء ، فسألها من أنا ؟ فأشارت بأصبعها تعنى الله أرسلك ، فقال : هى مؤمنة » فلا عليك أن لا تتوجه الا الى الله ولا تربط قلبك الا به ولو بالتوجه الى العرش وتصور النور الذى وضعه عليه وهو أزهر اللون كمثل

لون القمر أو بالتوجه الى القبلة كما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم فيكون كالمراقبة بهذا الحديث . اهـ .

ثم بعد كلام طويل يقول الشيخ المدنى نور الله مرقده « هذه الطريقة (تصور الشيخ كانت دائمة باستمرار من عهد السلف الصالح مثمرة للنتائج القوية النافعة ولكن المتأخرين أفرطوا واغلوا فيه وأضافوا فيه أشياء كانت مضرة ومبعدة عن الصراط المستقيم ، ثم نقل الشيخ المدنى ثلاثة أو أربعة فتاوى من الفتاوى الرشيدية وعدة رسائل للشيخ النانوتوى وقال بعدها « الخلاصة : ان ابعاد الوساوس والخطرات وجمع الخواطر والأفكار وتقوية الهمة فى العبادات أمر بينت الشريعة أهميته ورغبت فيه بحيث لا يحتاج الى بيان وبما أن تأثير تصور الشيخ فى الحصول على هذا الأمر قوى ومفيد جدا لذا فان التجربة والنصوص حرضت أكابر الأمة من المشايخ لاجراء هذه الطريقة « تصور الشيخ » وتحصلت الأمة بذلك على فوائد جمة ولكن بما أن جهلة المتأخرين الخاطئين أضافوا اليها بعض المحظورات والممنوعات الشرعية مثل اعتقاد أن الشيخ « نعوذ بالله » يكون حاضرا وناظرا مع المريد فى كل مكان ، وكأن ينهمك فى تصوره والتوجه الى الشيخ الى درجة أن يغفل ويستغنى عن المقصود والمحبوب الحقيقى جل وعلا وكأن يجعل الشيخ « نعوذ بالله » مثل الكعبة فى كل صلاة يستقبله ويتوجه اليه وكأعتقاد أن الشيخ يتصرف فى باطن المريد وتعظيم الشيخ أو صورته هذه فوق الحدود وكعبادة هذه الصور على حقيقتها وظاهرها ، تروج عند بعض الحمقى والجهلة والزنادقة عافانا الله لذا وجب على العقلاء من أكابر المشايخ أن يفكروا فى هذا الأمر ويقلعوا ذريعة الكفر والشرك والضلال من أصلها فشددوا لذلك ومنعوا لهذه العلة .

وعلى كل حال فهذا الأمر « تصور الشيخ » ليس بممنوع مطلقا ولا واجب مطلقا ويجب التفكر والخوض فى العمق عند الافتاء بشأنه والعمل به والله أعلم » .

ننك اسلاف ــ حسين أحمد غفر له ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧ م .

وفى الأرواح الثلاثة ذكر بذيل أحوال السيد أحمد الرائى بريلوى الشهيد نور الله مرقده أنه عندما كان السيد الرائى بريلوى فى حضرة شيخه الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوى علمه الشيخ شغل الرابطة هذا فاعتذر الشيخ أحمد عن هذا الشغل فأنشد حينئذ الشيخ عبد العزيز شعرا بالفارسية مراده :

(لو أمر الشيخ الكامل مريده بالصلاة على سجادة مغموسة فى الخمر فعليه أن يتأمر لأمره فان السالك يجهل معالم الطريق واسرار السبيل الموصل للمقصود) فردعليه السيد أحمد : ياسيدى مرنى بأى معصيةأطيعك فيها وأما هذا فانه ليس معصية وانما هو شرك ولا أطيقه . وعندما سمع منه هذا الشيخ عبد العزيز الدهلوى أخذه وضمه الى صدره وقال : حسنا سنأخذك عن طريق النبوة فانه لا مناسبة لك بطريق الولاية .

وبمناسبة هذا الشعر المذكور بأعلاه ذكرت قصة فى « مذكراتى » قد سمعتها من أكابرى فان ترجمة الشعر هى : أصبغ السجادة بصباغة الخمر اذا أمرك المرشد الكامل بذاك فان السالك يكون جاهلا بمنازل الطريق .

ــ والقصة هى أن الشيخ عبد العزيز الدهلوى سأله أحد تلامذته عن المراد بهذا الشعر فقال له الشيخ : وأنت ما علاقتك بهذا الشعر انشغل فى علومك وتعلمك ــ ولكنه أصر ، فأعطاه الشيخ من عنده عشر روبيات وقال له اذهب الى المكان الفلانى « مكان توجد فيه النساء البغاة » واسأل الدلال ان كانت لديه أية فتاة وتمتع بها ــ فحار المسكين واستغرب وتفكر فى الأمر ولكن بما أنه كان قد استفسر بنفسه عن الشعر وأصر على فهم المراد لذا لم يجد بدا من الذهاب الى المكان المذكور وقصد المسئول هناك فأخبره أنه قد وردت حالا اليهم بنت جميلة وهى فى الغرفة الفلانية سأتفاهم معها وأرجع اليك ثم ذهب اليها وبعد موافقتها أتى وأخبره بأن يحضر بالليل فالبنت جاهزة ــ وعندما وصل هذا بالليل ودخل الغرفة

وجد بنتا مغطى عليها واضعة رأسها بين فخذيها وتبكى فاحتار واستغرب ما يفعل ثم توجه اليها وقال لها انه لم يجبرها ولم يستكرهها وانما اتى اليها بعد رضاها وموافقتها فلم تبكى ؟ ولكن زاد بكاؤها أكثر وصارت تجهض بالبكاء فتورط المسكين ولم يدر ما يفعل وبعد مدة من الزمن أخبرته المرأة الملفوفة فى نفسها وهى تبكى وقالت أنا مظلومة وبائسة ومنكوبة ـ اصابنى الجوع منذ أيام طويلة وأنا دائرة هائمة على وجهى هنا وهناك أبحث عن زوجى الضائع الذى تركنى وغادر البيت منذ شهور لا أدرى أين هو تقول هذا وهى تكاد تصرخ من البكاء المرير فسألها عن اسم زوجها وبلده وعندما بينت اتضح أن الزوج الضائع كان هو هذا التلميذ نفسه وعندئذ بكى هذا أيضا وقال لها ارفعى رأسك وأرنى وجهك فرفعت رأسها وعرف كل منهما الآخر ـ انه كان قد اشتاق للعلم وهرب من البيت فى حب العلم ، وأقام معها تلك الليلة فى ذاك المكان وفى الصباح حضر الى حضرة الشيخ وقال : سيدى ان الشعر صدق وحق .

وقد سمعت قصصا أخرى أيضا مثل هذه عن أكابرى ولكن الشرط الأول على كل حال أن يكون الآمر حقا « شيخا كاملا » ويكون جامعا بين الشريعة والطريقة وعالما برموز الأسرار الالهية متفانيا فى طاعة الله وطاعة رسوله ، وليس هو شأن كل من ادعى المشيخة .

وذات مرة كان الامام الشيخ الكنكوهى رحمه الله متحمسا وذكرت مسألة « تصور الشيخ » فقال : أأقول ؟ فقيل : نعم قل ، فقال : أأقول ؟ فقيل نعم قل ياسيدى ، فقال ثالثا أأقول ؟ فقيل نعم قل يا سيدى فقال : ثلاث سنوات كاملة كان وجه الشيخ امداد فى قلبى ولم أعمل أى شىء بدون أن أسأله ثم زاد حماسة وقال أأقول ؟ فقيل نعم يا سيدى قل : فقال كذا سنة (لم يذكر الناقل عدد السنوات التى ذكرها الشيخ خان الراوى للقصة) : كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى قلبى ولم أعمل شيئا فى هذه المدة بدون أن اسأله صلى الله عليه وسلم ، وبعد هذه المقولة زاد حماسه أكثر وقال : أأقول أيضا فقيل نعم ياسيدى قل ـ ولكنه سكت

فأصر الناس فقال لا اتركوه ، وفى اليوم الثانى وبعد اصرار كثير قال : يا اخوانى ثم كانت مرتبة الاحسان .

يقول حكيم الأمة الشيخ التهانوى رحمه الله فى حاشيته على هذه القصة :

معاودة الاستفسار بقوله : أأقول ربما كان لاشتياق المخاطب وأهليته لأن تحمل أمثال هذه الرموز لا يكون كل شخص أهلا له وفى المرة الثانية لم يعاود هذا السؤال الظاهر لأنه لم تبق حاجة اليه والسؤال مرة واحدة لأن الحصول بعد الطلب يكون أوقع فى النفس ـ وحضور الصورة واستشارتها غالبا يكون من قوة التخيل وأحيانا خرقا للعادة يكون تمثل الروح بشكل الجسد وظاهر أنه فى الحالتين ليس هناك سعة لاعتقاد أن يكون حاضرا وناظرا باللزوم والدوام وكذا اعتقاد الاستعانة والاستغاثة وقوله فى المرتبة التى بعدها « لا اتركوه » ثم فى اليوم الثانى بعد الاصرار ذكره أنه مرتبة الاحسان ـ فان كان ذاك تفسير لذاك المسكوت عنه فعدم اظهاره بها فى نفس ذاك اليوم لأن أهل الظاهر فى نظرهم هذه مرتبة أدنى وأقل من تلك المرتبتين المذكورتين فلو بينها فى نفس الوقت لما كان له وقع فى نفوسهم وبيانه بعد اصرارهم وفى اليوم الثانى فيه تعليم عملى بأن هذه المرتبة هى أعظم من تلكما المذكورتين لأن هذا مقصود ومقام وتلك المرتبتين غير مقصودة وحال وشتان ما بينهما وان كان هذا ليس هو تفسير لذاك المسكوت عنه فقد أخفى تلك المرتبة فيمكن لأن أفهام العامة لم تكن لتتحمل المعنى المقصود فربما كان تجليا من التجليات الربانية وبيان كيفيتها يورد اشكالات علمية كما يحدث عامة عند بيان الصوفية هذه الأسرار أن ترد لأهل الظاهر اشكالات علمية فيها ، والله أعلم ا هـ .

كشف الصدور وكشف القبور

ان مشايخ السلوك يكشف لهم كثيرا جدا وهذا يكون أحيانا متفرعا على المجاهدات وأحيانا يكون وهبيا .

وهذا الذى يكون موقوفا على المجاهدات فهذا ليس خاصة بالتصوف بل انه كل من اجتهد وارتاض حصل له هذا الكشف لذا لا أهمية البتة للكشف عند المشايخ عامة بل انه لايلتفت اليه بل وان المشايخ بعض الأحيان اذا حصل الكشف لبعض مريديهم منعوهم من المجاهدات والرياضات ـ أظن أننى ذكرت فى « مذكرات حياتى » أن صديقى المخلص الشيخ عبد الرحمن الكنكوهى وكان فى كنكوه من خاصة تلاميذ والدى رحمه الله وفى عام ١٣٢٨ عندما انتقل والدى بالكلية الى مظاهر العلوم بسهاربنور انتقل معه هؤلاء الطلبة المخصوصون أيضا ـ وقد درس كل كتب دورة الحديث الشريف فى مظاهر العلوم وفى السلوك بايع على يد مرشدى وسيدى الشيخ خليل أحمد ـ وكان يهتم جدا بوصاياه والوظائف السلوكية ـ واشتغل اماما فى مسجد قرية كسولى قريبا من شمله . وهناك كان يدرس الطلبة ـ وبما أنى كنت أكتب رسائل سيدى الشيخ فى ذلك العهد وتمر على جميع الرسائل الواردة كنت أقرأ فى رسائله أحواله وكيفياته العالية جدا وفى رسالة ذكر المرحوم مكاشفات وعجائب عديدة وكنت أظن أن سيدى الشيخ سيمنحه الاجازة بالبيعة والخلافة فى رده على هذه الرسالة ولكنه أملى فى رده عليها : اترك جميع الاذكار والأشغال ما عدا الفرائض والسنن المؤكدة .

كان أكابرى نور الله مرافدهم يرون أن المكاشفات وان كانت وهبية مانعة عن الطريق وكان سيدى الشيخ يقول : بأن هذه مثالها مثال الشخص الماشى يرى عن يمين الطريق وشماله الحدائق والبساتين والأزهار وغيرها فلو أن هذا الشخص أخذ يتمتع ويتلذذ بهذه الأشياء فان الطريق لن ينقطع

أى أنه يتأخر فى الوصول الى المقصود ـ لذا كان أكابرى بالعموم لا يحبون هذه الكشوف ـ وقد مر فى أكابرى أيضا النوعان فسيدى الشيخ كان لا يحصل له الكشف الا نادرا جداوأما سيدنا الشيخ عبد الرحيم الرائى بورى فكان يحصل له الكشف بكثرة جدا وكم سمعت من حكيم الأمة رحمه الله هذه المقولة : كان يقول نور الله مرقده (لو أجلس فى حضن شيخ الهند والشيخ خليل أحمد فانى لا أخشى شيئا ، وأما الشيخ عبد الرحيم فأخاف حتى من الجلوس فى مجلسه فلا أدرى ما يكشف له) .

وهكذا بلغنا عن خدام الامام القطب الكنكوهى قدس الله روحه أيضا بأن كان فيهم النوعان فكان سيدنا الشيخ صديق أحمد الانبهتوى يكشف له كثيرا جدا وسيدي الشيخ بخلاف ذاك كما يظهر ذلك من رسائلهم المتعددة وهى مذكورة بالتفصيل فى (المكاتيب الرشيدية) ولكن بما أنه غالبا تحصيل هذه الأشياء بواسطة المجاهدات مثل الخلوة المستمرة وحبس النفس وغيرها وعلى كل فعند أكابر السلوك ليس عليها مدار السلوك وكذلك ليست بمخالفة للشريعة المطهرة فسماعه صلى الله عليه وسلم للشخصين وهما يعذبان فى قبورهما لسبب البول والنميمة عند مروره صلى الله عليه وسلم بجانبهما معلوم عند أهل العلم وقد ورد الحديث عنه فى أكثر كتب الحديث وقد ورد أيضا عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه اذ حادت به فكادت تلقيه ، واذا أقبر ستة أو خمسة ، فقال : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال : فى الشرك فقال : ان هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » الحديث رواه مسلم كذا فى المشكاة . وفى قصة دفن سعد بن معاذ رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم (لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه) ، رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضرب بعض أصحاب النبى صلى

الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا فيه انسان يقرأ سورة تبارك الذى بيده الملك حتى ختمها فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هى المانعة هى المنجية ، تنجيه من عذاب الله . رواه الترمذى كذا فى المشكاة .

وفى « حياة الصحابة » ج ٣ ص ٥٩٤ (أخرج الحاكم عن يحيى بن أيوب الخزاعى قال : سمعت من يذكر أنه كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه شاب متعبد قد لزم المسجد وكان عمر به معجبا وكان له أب شيخ كبير ، فكان اذا صلى العتمة انصرف الى أبيه ، وكان طريقه على باب امرأة فافتتنت به ، فكانت تنصب نفسها له على طريقه ، فمر بها ذات ليلة فمازالت تغويه حتى تبعها ، فلما أتى الباب دخلت وذهب يدخل فذكر الله وجلى عنه ، ومثلت هذه الآية على لسانه « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » فخر الفتى مغشيا عليه ، فدعت المرأة جارية لها فتعاونتا عليه فحملتاه الى بابه وأجلس ، ودق على أبيه فخرج أبوه يطلبه فاذا به على الباب مغشيا عليه ، فدعا بعض أهله فحملوه فأدخلوه ، فما أفاق حتى ذهب من الليل ما شاء الله ، فقال له أبوه : يا بنى مالك ؟ قال : خير ، قال : فانى أسألك بالله ، فأخبره بالأمر ، قال : أى بنى وأى آية قرأت ؟ فقرأ الآية التى كان قرأ ، فخر مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت ، فغسلوه فأخرجوه ودفنوه ليلا ، فلما أصبحوا رفع ذلك الى عمر ، فجاء الى أبيه فعزاه به وقال : ألا آذنتنى ؟ قال : يا أمير المؤمنين كان ليلا ، قال عمر : فاذهبوا بنا على قبره ، فأتى عمر ومن معه القبر ، فقال عمر : يافلان ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فأجابه الفتى من داخل القبر : ياعمر قد أعطانيهما ربى فى الجنة ، مرتين ، وأخرجه ابن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع فى تاريخه فذكر نحوه كما فى التفسير لابن كثير ج ٢ ص ٢٧٩ وأخرجه البيهقى عن الحسن مختصرا .

وأخرج ابن أبى الدنيا وابن السمعانى عن محمد بن حمير أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر ببقيع الغرقد فقال : السلام عليكم يا أهل القبور ، أخبار ما عندنا أن نساءكم قد تزوجت ودوركم قد سكنت وأموالكم قد

فرقت فأجابه هاتف : أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه وما أنفقناه ربحناه وماخلفناه فقد خسرناه ، كذا فى الكنز جـ ٨ ص ١٢٣ .

والأحاديث والآثار فى سماعهم الأصوات من القبور كثيرة ومعلومة عند أهل العلم لذا فمن أنكر هذه المكاشفات والخوارق فهو جاهل بالحديث والأثر .

وقد ذكر الحافظ ابن القيم الجوزية فى كتاب الروح روايات وقصصا عن رؤيتهم وسماعهم لأهل القبور من جملتها :

عن أبى عثمان النهدى أن ابن ماس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف ، فانتهى الى قبره قال : فصليت ركعتين ، ثم اتكأت عليه ، فوالله ان قلبى ليقظان ، اذ سمعت صوتا من القبر : اليك عنى ، لا تؤذنى ، فانكم يوم تعملون ولا تعلمون ، ونحن يوم نعلم ولا نعمل ، ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب الى من كذا وكذا .. فهذا قد علم باتكاء الرجل على قبره .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى اسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم ، حدثنا أبو قلابة قال : أقبلت من الشام الى البصرة ، فنزلت منزلا ، فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ، ثم انتبهت ، فاذا صاحب القبر يشتكينى : قد آذيتنى منذ الليلة ، ثم قال : انكم تعلمون ولا تعملون ، ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال : الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال : جزى الله أهل الدنيا خيرا ، أقرئهم منا السلام ، فانه يدخل علينا من دعائهم نور مثل الجبال .

وذكر [ابن أبى الدنيا] من حديث أبى سفيان : حدثنا داود بن شابور عن أبى قزعة قال : مررنا فى بعض المياه التى بيننا وبين البصرة ، فسمعنا نهيق حمار ، فقلنا لهم : ما هذا النهيق ، قالوا : هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشىء فيقول لها : انهقى نهيقك فلما مات سمع منه هذا النهيق من قبره كل ليلة .

وذكر أيضا عن عمرو بن دينار قال : كان رجل من أهل المدينـــة ، وكانت له أخت فى ناحية المدينة ، فاشتكت ، وكان يأتيها ويعودها ثم ماتت فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسى شيئا فى القبر كان معه فاستعان برجل من أصحابه قال : فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع ، فقال للرجل : تنح حتى أنظر على أى حال أختى فرفع بعض ما على اللحد فاذا القبر مشتعل نارا فرده وسوى القبر ، فرجع الى أمه فقــال : ما كان حال أختى ؟ فقالت : ما تسأل عنها وقد هلكت فقال : لتخبرينى ، قالت : كانت تؤخر الصلاة ولا تصلى فيما أظن بوضوء وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهــم وتخرج حديثهم .

وذكر ابن أبى الدنيا أن رجلا سأل أبا اسحق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟فقال : نعم ان صحت نيته وعلم الله منه الصدق ، فقال له الرجل : كنت أنبش القبور ، وكنت أجد قوما وجوههم لغير القبــلة ، فلم يــكن عند الفزارى فى ذلك شيء ، فكتب الى الأوزاعى يخــبره بذلك ، فكتب اليه الأوزاعى : تقبل توبته اذا صحت نيته ، وعلم الله الصدق من قلبه ، وأما قوله له انه كان يجد قوما وجوههم لغير القبلة فاولئك قوم ماتوا على غير السنة) اهـ .

قلت : يعنى أهل البدع .

وبعد ذكر هذه الآثار والقصص يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله .

(وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانا ... وليس عند الملاحدة والزنا دقة الا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه) اهـ .

وما ذكر باعلاه كان عن كشف القبور وأما بالنسبة لكشف الصدور فيقول الحافظ ابن القيم فى كتاب الروح أيضا :

(وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى « ان فى ذلك لآيات للمتوسمين » قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره أى للمتفرسين

•• فالفراسة الصادقة بقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه •

وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله • الحديث •

وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله فان القلب اذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وادراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله يحسب قربه منه وأضاء له النور بقدر قربه فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : ما تقرب الى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى) •

فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له فاذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا تكاد تخطىء له فراسة ، فان العبد اذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه ، فاذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، واذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب الى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج الى المصلى فصلى

عليه ورأى عمر سارية بنهاوند من أرض فارس هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه يا سارية الجبل ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الاشتر النخعى فصعد فيه البصر وصوبه وقال : أيهم هذا ؟ قالوا : مالك ابن الحارث ، فقال ماله قاتله الله انى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا ..

وقيل أن الشافعى ومحمد بن الحسن جلسا فى المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعى : أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال : كنت حدادا وأنا اليوم أنجر .

وكان بين أبى زكريا النخشبى وبين امرأة سبب قبل توبته فكان يوما واقفا على رأس أبى عثمان الحيرى فتفكر فى شأنها ، فرفع أبو عثمان اليه رأسه وقال : ألا تستحى ؟ وكان شاه الكرمانى جيد الفراسة لا تخطىء فراسته وكان يقول : من عف بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال : لم تخطىء فراسته .

وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال : ايش هذا الذى ذكر لى عنك فقال له : اعتقد شيئا ، فقال له الجنيد : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال : اعتقدثانيا ، قال : اعتقدت ، فقال الشاب : اعتقدت كذاوكذا ، فقال الجنيد: لا ، قال : فاعتقد ثالثا ، قال : اعتقدت ، قال الشاب : هو كذاوكذا ،قال : لا ، فقال الشاب :هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى ، فقال الجنيد : صدقت فى الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فيدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئا فقلت فى نفسى مثل هذا كل على الناس ، فنظر الى وقال (اعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) قال : فاستغفرت فى سرى ، فنادانى وقال (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) .. وهذا عثمان ابن عفان رضى الله عنه دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها ، فقال له عثمان : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على

عينيه ، فقال : أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

فهذا شأن الفراسة وهى نور يقذفه الله فى القلب فيخطـر له الشيء فيكون كما خطر له فينفذ الى العين فيرى مالا يراه غيرها . اهـ .

هذا كله نقلناه من كتاب الروح لابن القيم وقد بسط فى كتابه هـذا فى الموضوع أكثر مما ذكر وانما أتينا بالمجمل النافع ان شاء الله هدانا الله جميعا للحق وسواء السبيل .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى فتاواه جـ ١١ ص ٢٠٤ فى تأييد المكاشفات (وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فانه تنجلى لهم أمور صادقة ــ وهذه الأمور الصـادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه انها تتجلى للمطيعين هى الأمور التى يكشـفها الله عز وجـل لهم ، فقـد ثبت أن لأوليـاء الله مخاطبات ومكاشفات) اهـ .

ومعلوم أن الامام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله له قولان فى الماء المستعمل فى الوضوء فكان أولا يقول بنجاسته عندما كان يرى سواد الماء لغسـله الذنوب فدعا الله سبحانه وتعالى أن يزيل عنه هذه الحالة وأنه لا يرغب فى الاطلاع على عيوب الناس فتقبل الله دعاءه ورفع عنه ذاك الحال وزال الكشف فرجع من القول بنجاسته الى القول بطهارته .

الشـــطحيات

تصدر من بعض أصحاب الحال أثناء غلبة الحال عليهم كلمات لا تنطبق على الشريعـــة (التكشـف ٥١٩) التفـوه بـكلام يـكون مخالفا للقواعد الشرعية الظاهرة فى حالة عدم الصحو بسبب غلبة الوارد يـكون شطحا وهذا الشخص لا اثم عليه ولا يجوز تقليده البتة (تعليم الدين) •

يكون فى كلام الأكابر عبارات يفتى فيها أهل الظاهر أحيانا حتى بالكفر مثل هذه العبارات والألفاظ اذا نطق بها فى حال غلبة الشوق أو السكر فلا تكون سببا للتكفير ولا يجوز تقليدهم فيها أبدا وقد ورد فى الحديث الشريف : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح) رواه مسلم •

وقد وردت هذه الرواية فى صحيح البخارى ومسلم عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما بألفاظ مختلفة ـ يقول العارف التهانوى فى التشرف ص ١٠٨ بذيله : وتبين من هذا الحديث أن خطأ المغلوب معفو عنه لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ينكر على خطأ الشخص بعد نقله مع أنه كان بسبب شدة الفرح وهى حالة ناشئة عن الدنيا ـ اذن فما بالك بالذى يكون مغلوبا بمحبة الله عز وجل والشوق اليه سبحانه فهى من الكيفيات الناشئة عن الدين ـ انتهى قوله ـ

ثم فى قصة السيدة عائشة رضى الله عنها حينما أتهمت ثم نزلت براءتها فى القرآن من عند الله عز وجل فأمرتها والدتها أن تقوم الى رسول الله

صلى الله عليه وسلم (وكانت رضى الله عنها فى حالة تحمس) فقالت كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما : والله لا أقوم اليه ، فانى لا أحمد الا الله عز وجل .. الحديث .

يقول العارف التهانوى رحمه الله : لقد نقل عن بعض الصالحين نظما أو نثرا كلمات يوهم ظاهرها الى اساءة الأدب فان كانت هذه فى حالة غلبة الحال فيقال لها « الشطح » أو « الادلال » وقول الصديقة رضى الله عنها هذا أيضا من هذا القبيل ومنشأ شدة الهم لسبب خاص وهو أنه صلى الله عليه وسلم نفسه باقتضاء بشريته وعدم علمه للغيب كان مشوشا ومترددا فى أمرها وكانت الصديقة رضى الله عنها قد اطلعت على هذا التردد فكانت قلقة وحزينة بأن واأسفاه حتى الرسول صلى الله عليه وسلم قد اشتبه فى أمرها فعند نزول الوحى الالهى ببراءتها تحمست وصدر منها هذا الجواب وبما أنه صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليها فثبت من الحديث الشريف كون أهل الشطح والادلال معذورين (التكشف ص ٥٠٦) وورد أيضا عن السيدة عائشة الصديقة رضى الله عنها بأن قال لها الرسول صلى الله عليه وسلم : (انى لأعلم اذا كنت عنى راضية واذا كنت على غضبى قالت : فقلت : وكيف ذلك فقال : أما اذا كنت عنى راضية فانك تقولين : لا ورب محمد واذا كنت غضبى قلت لا ورب ابراهيم قالت : قلت : أجل والله ما أهجر الا اسمك) .

هذه قصص الحب والدلال يعلمها أهل المحبة والوداد فالرسول صلى الله عليه وسلم أحس وشعر بأسلوب قسمها وبما أن ذلك أيضا كان من دلال الحبيبة رضى الله عنها لذا لم ينكر عليها .

وقد مرت قصة الشيخ الخواجة أحمد جام وقوله : « ما مى كنيم » أى (نحن نفعل) بأنه بسبب مسحه على عين الأعمى زال عنه العمى وصار يقول « ما مى كنيم — ما مى كنيم » . أى نحن نشقى « نحن نفعل » وكان ذلك بسبب تلذذه بالعبارة الالهامية كما امر وذكر فى كتاب الأرواح الثلاثة ص ٣٤٩ أن الشيخ محمد يعقوب النانوتوى كان جالسا فى فصله حزينا كئيبا فأتى اليه حينئذ الشيخ أمير

شاه خان ورجال آخرون غيره فقال الشيخ لقد أخطأت فاحشا ــ لقد قلت لله عز وجل قولا فرد على فقلت له ثانيا (وكان ظاهره ســوء أدب) فقيل لى فى جوابه : بس اسكت ولا تتسفه (هكذا) فسكت بعدها واستغفرت واعتذرت كثيرا فعفى عنى ــ وعندما بلغت هذه القصة الشيخ الامام محمد قاسم النانوتوى اضطرب وقام من مجلسه وقال : أف أهكذا قال الشيخ يعقوب استغفر الله استغفر الله يا أخى هــذه معاملته هو لأنه مجذوب ــ نحن لو صدرت منا مثل هذه الاساءة لدكت رقابنا ــ وقال العارف التهانوى فى حاشيته : فى بعض مراتب المجذوبية يعفى عن مثل هذه الأقوال بدخولها فى الادلال وهناك بعض المجاذيب يكون عليهم أثر الجذب بعض الأحيان فقط .

ان درج الجامع الكبير بدلهى ما زالت منذ البــداية مستقرا لمجذوب ما وقد اشتهرت قصص كثير من أولئك المجاذيب لا نعلم منذ متى هــذه الدرج كانت مستقرا لهم ــ ذكر عن الشيخ العارف مرزا مظهرجان جانان رحمة الله عليه أنه عندما كان يذهب لصلاة الجمعة فى الجامع الكبير يدخل من البوابة الجنوبية وعند فراغه من الصلاة يخرج من البوابة الشرقية وكان يجلس رجل صالح فى الدكة الشمالية الموجودة فى البوابة الشرقية بعــد الجمعة على سجادة يفرشها هناك ويضع أمامه ابريقا من الطين وعليه طوبة عادية قديمة وكان الشيخ مرزا عندما يأتى بعــد الجمعة يقدم الى هــذا الرجل الصالح ويرفســه بأقدامه ويسبه ويشتمه ثم يسحب السجادة من تحته ويقذفها بعيدا ويأخذ الابريق ويكسره والطوبة يرميها بعيدا يفعل كل ذلك ثم ينصرف والناس يرون هذه الأفعال وهى لا تليق وشأن الشيخ الجليل بأى حال فيتعجبون ولكن لا يجرؤ أحد على الاستعلام عن هذا الشخص ومعاملته الغريبة معه وذات مرة تجرأ أحد المقربين وسأله : فقــال الشيخ مرزا مظهر رحمه الله : قصة هذا الشخص أننى عندما كنت صبيا كان هذا من المحبين لى وكنت حينئذ أعمل معه مثل هذه المعاملة ثم كبرت وهدانى الله سبحانه وتعالى فتوجهت الى السلوك وبفضله سبحانه تشرفت بالاجازة ففكرت يوما أن هذا الشخص من المحبين المخلصين يجب أن أتوجه اليه وعنــدما توجهت اليه انكبست فى عكســه وظهر لى أنه أعلى منى بكثير

فاضطربت لذلك فعاملته بالاكرام وتركت له مقامي وقلت له انى لست أهلا لهذا المقام وتفضل أنت فانك أهله فلم يرض فألححت عليه فلم يرض أيضا بل قال بأنه يجب عليك أن تعاملنى بنفس المعاملة التى كنت تعاملنى بها فى السابق وهذا لم أرض به أنا ـ وحينئذ سلب منى جميع الكيفيات وأصبحت فارغا ـ فحزنت لذلك وقلت له أعد الى كيفياتى • فقال لى : نعم أعيدها بشرط أن تعاهدنى أن تعاملنى بنفس المعاملة التى كنت تعاملنى بها دائما فى السابق ـ وليس هنا بل فى الجامع الكبير أمام كل الناس فوافقت مضطرا وبسبب ذاك ترون كل هذا •

يقول العارف التهانوى فى حاشيته : قوله : سلب الكيفيات : أقول : حقيقة هذا السلب كما سمعته من مولانا الشيخ الكنكوهى قدس روحه هى التصرف فى قوى المعمول الادراكية والعملية بحيث تأتى فيها الغباوة وأما الكمال والقرب فلا يمكن أن يزيله أحد ، يقول الأحقر (العارف التهانوى نفسه) مثل هذه الغباوة يمكن أن توجد بسبب غلبة مرض أو دواء ونحوهما وليس هناك بسببه أي ضرر فى ذاته الا أن يحدث حزن بسبب النقص فى اللذة ـ وانما بالواسطة أحيانا يكون مضرا وذلك أنه يكون سببا للنقص فى النشاط ويفضى ذلك الى التقليل فى الأعمال • لذلك فحيث احتمل ذلك يكون هناك هذا التصرف حراما ، وحيثما كانت غلبة الكيفيات النفسانية مخلة للضروريات الواجبة الدنيوية أو الدينية كان هناك هذا التصرف طاعة وحيثما كانت المصلحة مباحة محضا يكون مباحا كما حدث فى هذه القصة (الأرواح الثلاثة ص ٢١) •

ان هذا المقصر استمر لعدة سنوات فى السابق عضوا لمجلس الشورى لدار العلوم « بديوبند » وكانت معاملة سيدنا شيخ الاسلام حسين أحمد المدنى نور الله مرقده مع الحكيم اسحاق الكتهورى أشد من هذا بكثير وكنت فى البداية أتعجب لذاك وأتحير وأخيرا فهمت •

يخرج من الكلام كلام ، والقصة التى كنت أريد أن أمليها هى أنه كان يوجد على درج الجامع الكبير (هذه التى مر ذكرها) مجذوبا

وكان صالحا ومتمسكا بالشرع وفى يوم من الأيام أخـذ يقول : « لست عبدك ولست ربى » وصار يكرر هذه الجملة ويصيح بها فمسك به الناس وأخذوه الى القاضى والقاضى كان رجلا صالحا توجه للمجذوب وسأله عما يقول فأجاب : ان الشيطان متسلط على منذ ساعتين ويصر على أن أقول له « اللعين » « أنك ربى وأنا عبدك » وأنا أسخط عليه وأصيح فى وجهه بأنى « لست عبدك ولست ربى » والمقصود من هـذه القصص هو أنه لا ينكر على الشطحيات بدون فهمها ـ أما تقليد أصحابها واتباعهم فلا يجوز مطلقا أبدا والله المستعان .

السكر والغشى

السكر والغشى يكونان أحيانا سببا للشطحيات ـ وقد حملت كثير من أقوال وأحوال مشايخ السلوك على حالة السكر ـ والسكر ان كان من شيء حرام فبطلانه وحرمته ظاهرة ولكن أحيانا يكون ذلك بسبب وارد قوى لا يتحمله القلب ـ وهذا لا يكون دائما أثرا لضعف القلب بل ان قوى القلب جدا أحيانا عندما يكون الوارد أقوى منه يغشى عليه بسبب قوته ـ فان سيدنا موسى عليه السلام مع أنه كان من أولى العزم من الرسل وقد طلب بنفسه من البارى عز وجل رؤيته سبحانه ولكن عندما تجلى سبحانه خر عليه السلام مغشيا ـ والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بما أن قوة تحمله كانت أعظم من موسى عليه السلام فانه حصلت له النسبة الاتحادية مع سيدنا جبريل عليه السلام عند نزول الوحى الأول فى الغار وبعدها فى الثلاثة عشر سنة ترقى الى تلك المقامات والدرجات العلية التى لا تتصور فعندما عرج به تأخر جبريل عليه السلام قائلا :

أى بأنى لو طلعت الى فوق مقدار شعرة فان نور التجلى سيحرق جناحى .

والنبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج هذه لم يطرأ على جسده الأطهر أى تغير أو انكسار أو اضمحلال مما رأى فى السماوات من العجائب والغرائب ورجع على نفس حاله التى كان قد ذهب عليها قال العارف التهانوى نور الله مرقده فى « التكشف » ص ٥٣٠ « كما يصبح العقل مغلوبا بسبب الأحوال الجسمانية هكذا يكون أحيانا مغلوبا بسبب الأحوال النفسية أيضا وهذا ثابت ومسلم عند الأطباء أيضا . ومن جملة الأحوال النفسية تلك الأحوال أيضا التى يحصل بها غلبة السكر ويصبح العقل مغلوبا فكما أن المجنون والمعتوه معذوران شرعا كذلك صاحب السكر ومغلوب الحال أيضا فى أقواله الشطحية وأفعاله « كترك الواجبات

أحيانا كما أن الجنون والعته لا يمس به أحيانا أيضا فيسبب الاشتباه • وارتكاب المحرمات » معذور أيضا — وهذا السكر لا يحس به الآخرون

فالسادة الذين يتأول فى كلامهم بالعذر تكون فيهم قرينة نقل السكر عنهم وقرينة أقوى هى نقل فضائلهم وكمالاتهم وأتباعهم للسنة فى غالب الأحوال وهذا يجبرنا على التأويل — والا فالذى يكون غالب أحواله الفسق والمعصية واتباع الباطل فهناك لا حاجة الى أى تأويل • لأن الاحتمال الغير ناشىء عن دليل لا يعتبر به ، والا سد باب الانكار والاحتساب والسياسة وهو باطل » •

وفى التكشف أيضا ص ٥٠٠ « فى صلاته صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبى وانكار عمر رضى الله عنه والاصرار عليه قال فيه : ان رفع الامتياز فى الأحكام الظاهرة والباطنة للوارد الغيبى هو السكر — وعود هذا الامتياز هو الصحو — لقد كان ورود البعض فى الله على قلب سيدنا عمر رضى الله عنه بقوة لدرجة أنه لم يلتفت الى أنه كيف يعامله صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا — وهى صورة مستبعد عن التأدب — ففى هذه الحال قد أعذره الشارع عليه الصلاة والسلام — ثم عندما رجع الى حالة الصحو فورد فى الحديث أنه تعجب على جرأته وندم •

وفى أكابر الصوفية أيضا يكون ظهور الواردات بكثرة جدا — فان كان الوارد ضعيفا والقلب قويا فلا يتبين أثره ، وان كان الوارد قويا والقلب ضعيفا فيظهر أثره — أذكر جيدا وبتفصيل قصة العارف الكبير مولانا الشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادى ولكنى لا أذكر الآن مرجعه — انما ذكر فى تذكرة الرشيد الجزء الثانى ص ٣٢١ أنه ذكر المشايخ فى مجلسه نور الله مرقده فسأل بعضهم عن حالة الامام الشيخ الكنكوهى نور الله مرقده فقال الشيخ نور الله مرقده ما لفظه : وما تسألون عن حال مولانا رشيد أحمد انه قد شرب البحر ولا يتكرع ، ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى فتاواه ص ٣٩٦ جـ ٢ « وقد يقع بعض من غلب عليه الحال فى نوع من الحلول أو الاتحاد ، فان الاتحاد فيه حق وباطل ، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوى محبوبه ، ولم يكن ذلك بذنب منه كان

معذورا غير معاقب عليه مادام غير عاقل ، فان القلم رفع عن المجنون حتى يفيق ، وان كان مخطئا فى ذلك كان داخلا فى قوله (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) وقال (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به) وهذا كما يحكى أن رجلين كان أحدهما يحب الآخر فوقع المحبوب فى اليم فألقى الآخر نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فما الذى أوقعك ؟ فقال : غبت بك عنى فظننت أنك أنى .

فهذه الحال تعترى كثيرا من أهل المحبة والارادة فى جانب الحق وفى غير جانبه ، وان كان فيها نقص وخطأ فانه يغيب بمحبوبه عن حبه وعن نفسه ، وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن عرفانه ، وبمشهوده عن مشهوده ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتمييز ولا بوجوده ، فقد يقول فى هذه الحال : أنا الحق أو سبحانى أو ما فى الجبة الا الله ونحو ذلك ، وهو سكران بوجد المحبة الذى هو لذة وسرور بلا تمييز .

وذلك السكران يطوى ولا يروى اذا لم يكن سكره بسبب محظور » اهـ .

محمل كلام الصوفية بخلاف الظاهر

ان السادة الصوفية يكون فى كلامهم كثيرا جدا معانى بخلاف الظاهر ـ وبعض الحمقى الجهلاء عن رموز الفن يعترضون عليهم أيضا ـ وقد أخرج الترمذى فى شمائله رواية أنس رضى الله عنه أن رجلا استحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : انى حاملك على ولد ناقة ، فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال : وهل تلد الابل الا النوق » وفى الشمائل أيضا رواية أخرى عن الحسن قال أتت عجوز النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله أدع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أم فلان ان الجنة لا يدخلها عجوز ، قال : فولت تبكى ، فقال أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ان الله تعالى يقول (انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا) •

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مامعناه « أنه خرج الى السوق فقال أراكم هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد فذهبوا الى المسجد ورجعوا فقالوا لم نجد شيئا فسألهم فما وجدتم ؟ فقالوا : وجدنا قوما يقرأون القرآن فقال رضى الله عنه ذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم » •

يقول العارف الشيخ التهانوى فى التكشف ص ٤٧٦ « يوجد فى مقالات أكثر المشايخ وكتاباتهم بعض الكلام بخلاف الظاهر ـ الذى يثبت بعد الاستماع الى توجيهه ومراده أنه صحيح ومطابق للواقع ـ هذا أحيانا يكون سببه غلبة الحال وأحيانا بغرض الاخفاء عن العامة وأحيانا لتشويق الطالب وترغيبه فبالابهام يتولد الشوق للتعيين والتعيين الذى يكون بعد الشوق يكون أوقع فى النفس » ففى هذا الحديث اثبات هذه العادة فان سيدنا أبا هريرة رضى الله عنه أبهم أولا لمصلحة التشويق فأوهم ذالك الى معنى غير مقصود لديه ـ حتى أن الناس بعد الرجوع كذبوه أيضا ـ ولكن بعد التفسير علم أن الكلام صدق وحق • لذا لا يجرح

ولا يقدح فى من بلغ الكمال أو صاحب حال عند سماع العبارات الموهمة منه • فانه يثمر الحرمان •

ثم قد روى عن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه قال كان رجل من الأنصار لا تكاد تخطئه صلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا نشفق عليه فقيل له لو اشتريت حمارا تركبه فى الظلماء وفى الرمضاء فقال والله ما أود أن بيتى الى جنب المسجد قال أبى فعظم ذلك على فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما كان فطلبه الرسول صلى الله عليه وسلم وسأله فقال انى لاحتسب ذلك عند الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله لك ذلك كله » رواه غير واحد بألفاظ مختلفة •

يقول العارف التهانوى « وهذا مثل السابق فيه نفس التقرير الذى ذكر فى الحديث الذى قبله ــ انظر الى الصحابى الأنصارى قال مقولته بأسلوب وألفاظ كانت قاسية وموحشة جدا ولذا ثقلت على سيدنا أبى ــ ولا عجب أنه اخفاء لاخلاصه اختار هذا النوع من الأسلوب أو لمصلحة أخرى مثلها وأخيرا بعد عرضه على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم اتضح المقصود الأصلى فانه لم تكن حاجة الى الاخفاء عنه صلى الله عليه وسلم •

وفى حديث قدسى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه « قال قال الرسول صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ؟ قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول الله عز وجل : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده أما لو عدته انك لوجدتنى عنده » وهكذا فيه عن انى استطعمتك واستسقيتك الخ الحديث •

ان هذا الحديث الشريف يشير الى أن مثل هذه التعبيرات تكون مجازا ــ ولا تحمل على حقيقتها فتفسد العقائد ــ وقد وردت فى القرآن آيات كثيرة من هذا النوع « أيتها العير انكم لسارقون » « وكان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » « وقد مكروا ومكر الله » وغيرها ما هو معلوم ــ والله أعلم •

أم الأمراض : الكبر

ان هذا العاجز كان يريد أن يكتب كثيرا وكان فى الخاطر أشياء كثيرة جدا ولكن هذه المرة من بعد الوصول الى المدينة المنورة توالت الأمراض على بصورة مستمرة بل ساءت الحال فى الهند أيضا وساءت كثيرا فاستولى المرض كليا وكنت أرجو تحسن الحال والشفاء بعد الوصول الى المدينة المنورة حسب العادة دائما ولكن هذه السنة حتى بعد الوصول الى المدينة المنورة والمرض على حاله لذلك أردت عدة مرات أن أترك تكملة هذه الرسالة بعد الشروع فيها ولكن بسبب اصرار الأحباب لم يحصل ذاك وانما أوقف العمل فيه عدة مرات لعدة أيام بل لأسابيع أيضا أحيانا والآن وقد ساءت الحالة الصحية جدا ومستمرة فى ذلك لذا عزمت على أن أذكر موضوعين وأنهى الرسالة ــ وهذان الموضوعان كانا من البداية فى البال أن أختم بهما الرسالة ان شاء الله أحدهما : أم الأمراض « الكبر » والثانى « اساءة الأدب مع الأكابر » فان هذين الموضوعين متعلقان بالشريعة والطريقة كلتيهما .

وقد أخذت اسم العنوان « أم الأمراض » من رسالة أحد أحبابى المخلصين وهو الصوفى محمد اقبال الذى ألف رسالة مستقلة مفيدة وسماها « أم الأمراض » (بالاردو) وقد طبعت الطبعة الأولى منها وانتهت وتعد الآن لطبعتها الثانية ــ وبعد ما رأيت هذه الرسالة أردت أن أترك هذا الموضوع فانه قد كفى ولكن الأحباب أصروا على أن لكل مؤلف أسلوبه الخاص لذا يجب أن تأتى بهذا الموضوع فى رسالتك .

لقد كتبت منذ مدة فى بعض مؤلفاتى « الاردوية » بحثا مفصلا فى أن المعاصى لها نوعان : حيوانية وشيطانية وقد بسطت فيه أن المعاصى الحيوانية تغفر بسرعة عند الله سبحانه وتعالى برحمته وكرمه ففى الحديث المعروف للجميع « من قال لا اله الا الله دخل الجنة قال : وان زنى وان

سرق قال وان زنى وان سرق » أو كما قال • وقد بينت ذلك بالحجج والدلائل من القرآن والسنة ـ ولكن بما أن عادتى دائما كانت بأن أعرض تأليفاتى كلها قبل نشرها على أحبابى خاصة مولانا الشيخ عبد الرحمن الكاملبورى والشيخ المفتى القارى سعيد أحمد رحمهما الله ليراجعوا كل حرف منها فما شطبوه منها وان كان ذلك خلافا لرأيى لم أنشره ولو كنت أناقشهم وأخاصمهم شفهيا وانما لم يقدم للنشر الا ما وافقوا عليه ـ والآن لا أذكر أن هذا البحث المذكور كان فى أية مسودة ، وعلى كل فان هذين الحبيبين رأوا أن هذا الموضوع لن ينتج منه الاهتمام العظيم بالمعاصى الشيطانية وانما سيزول الاهتمام الموجود بالمعاصى الحيوانية حتما •

لذلك لم ينشر حينئذ ـ ولكن بمناسبة هذه الرسالة من الضرورى جدا بيان الكبر اذ أنه من ضمن جميع المعاصى ليس عندى فقط بل فى ضوء القرآن والحديث من أشد الأمراض وأخطرها وأما فى الطريقة فمهلك ومميت •

وقد ذكره حجة الاسلام الامام الغزالى قدس الله روحه فى احياء العلوم بأهمية بالغة فجعل له كتابا مستقلا يقول فيه :

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) وقال عز وجل (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) وقال تعالى : (انه لا يحب المستكبرين) وقال تعالى : (ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وذم الكبر فى القرآن كثير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » الحديث • وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم من

العذاب » وقال صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النـار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق : يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر ، وبالمصورين » وقال صلى الله عليـه وسلم : تحاجت الجنة والنار فقالت النـار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم وقال صلى الله عليه وسلم : يحشر المنكرون يوم القيامة فى مثل صور الذر ، تطؤهم الناس وذكر الامام الغزالى فى الاحياء آثارا كثيرة فى ذم الكبر أيضا لا يمكن أن نحصيها فى هذه الرسالة وانما نكتفى بذكر بعضها قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فان صـغير المسلمين عند الله كبير » .

وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن نظر اليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا » وقال صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يتبختر فى بردته اذ أعجبته نفسه فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيـامة » ويروى ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز . فقال : يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال : بلى أعرفك : أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة » فمضى المهلب وترك مشيته تلك .

وقال عمر رضى الله عنه : ان العبد اذا تواضـع لله رفع الله حكمته ، وقال : انتعش رفعك الله واذا تكبر وعـدا طوره رهصـه الله فى الأرض وقال : أخسأ خسأك الله ، فهو فى نفسه كبير وفى أعين الناس حقير . حتى انه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال مالك بن دينار : لو أن مناديا ينادى بباب المسجد : ليخرج شركم رجلا ، والله ما كان أحد يسبقنى الى البـاب الا رجل بفضل قوة أو سعى قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله ، قال : بهذا صار مالك مالكا . اهـ .

وقد ذكر العزيز محمد اقبـال فى رسالته « سلوك الأكابر » ص ٤٠

مقولة للامام الكبير الشيخ الكنكوهى نور الله مرقده وهى : ان المشايخ الأولين كانوا يأمرون بالمجاهدات الشديدة لازالة الأخلاق السيئة حتى تسهل هذه العملية ولكن المتأخرين وخاصة مشايخ سندنا وسلسلتنا استحسنوا هذا الطريق أى أن يكثر من الذكر لدرجة أن تنكبس هذه الأخلاق تحت الذكر ويتغلب الذكر على كل هذه الأشياء . الأخلاق السيئة كثيرة ولكن الأكثر حصروها فى عشرة ثم ذكروا أن خلاصة هذه العشرة : الكبر — فلو زال هذا زالت العشرة بنفسها . « مكث رجل عند الجنيد رحمه الله عشرين سنة قال يوما لقد مضت على هذه المدة ولم أتحصل منكم على شيء — وكان سيدا لقومه عظيما عندهم — فعلم أن فى قلبه كبر — فقال له خذ قفة واملأها من الجوز ثم اجلس على باب الرباط وأعلن فى الناس : أنه من يضربنى بنعاله مرة أعطيته جوزة ومن ضرب ضربتين فله جوزان وهكذا فاذا فعلت ذلك وانتهى الجوز كله ارجع الى فقال الرجل : لا اله الا الله محمد رسول الله يا سيدى ان هذا لا أقدر عليه . فقال له الجنيد رحمه الله ان هذه الكلمة المباركة لو قالها كافر بلغ السبعين من قلبه صدقا لأصبح والله مؤمنا . ولكنك بقولك اياها الآن أصبحت كافرا بالطريقة — اخرج عنى فانك لن تحصل منى على شيء » انتهى .

ثم ذكر شيخا آخر وقال مكث عنده رجل مدة طويلة ثم اشتكى انه لم تحسن حالة القلب فقال الشيخ : وما تقصد من الحسن . فقال الرجل : يا سيدى النعمة التى أتحصل عليها منكم سأبلغها الى الآخرين . فقال الشيخ : ان الفساد كله من هذه النية الفاسدة فقد نويت من البداية أن تكون شيخا تأمر وتطاع — أخرج هذه الفكرة الفاسدة من بالك وتذكر أن ما أنعم الله به علينا من النعم المتنوعة العظيمة واجب علينا شكره سبحانه وتعالى وعبادته عليها فالذين يشتغلون بالعبادة والذكر بنية أن يحصلوا عليها نفعا ونحوه حمقى وفى نيتهم فساد وبطلان أى نفع وأى أجر — هذا الوجود وهذا الجسم هذه العينان وهذا الأنف وهذان الأذنان وهذا اللسان وهذه الحواس كلها هذه رزقنا اياها الله سبحانه وتعالى فأولا نتخلص من شكره سبحانه وتعالى عليها ثم بعد ذلك نرجو ونتمنى الأجر والنفع (تذكرة الرشيد) .

وبما أن هذا (السلوك والمعرفة) طريق السعادة الحقيقية والفوز العظيم لذا يحرص الشيطان أيضا ويبذل جهده لافساد سعى السالكين بشتى الوسائل فيتركهم على الأعمال الظاهرة من الورع والتقوى والعبادة والاكثار منها ومن الداخل يجتهد فيهم على ايجاد الكبر وتثبيته فى النفس فحينئذ تضيع كل تلك الأعمال والعبادات » (سلوك الأكابر) .

وذكر فى اكمال الشيم ص ٩٥ « من أثبت لنفسه التواضع فانه متكبر بدون ريب لأن دعوى التواضع تكون بعد مشاهدة رفعة قدر نفسه فعندما ادعى التواضع فكأنه رأى حينئذ علو مرتبة نفسه فأصبحت بذلك متكبرا » اهـ فالخلاصة أن حقيقة التواضع هى أن تكون ذلته وحقارته فى نظره لدرجة أن لا ترد حتى الوسوسة برفعة الشأن أو الاستحقاق لأى منصب أو جاه لنفسه — فيرى نفسه من الرأس الى القدم ذليلا حقيرا — ومن كان هذا حاله لا يدعى أبدا أى شىء لا التواضع ولا أية صفة حميدة لأن الدعوى عندما تكون تكون بمشاهدة رفعة النفس » .

فى الحقيقة ليس المتواضع من اذا عمل شيئا من التواضع رأى نفسه أعظم من ذلك وأرفع بل ان المتواضع من اذا أتى بشىء منه ظن أنه أدنى من هذا وأحقر . ان عامة الناس يظنون أن من أظهر العجز والانكسار والتواضع فى أعماله وحركاته فانه متواضع — كرجل غنى خدم فقيرا بنفسه فيقولون عنه انه متواضع — مع أنه أحيانا لا يكون فى مثل هذا الشخص مثقال ذرة من تواضع — لذلك يبين الشيخ رحمه الله حقيقة المتواضع وغير المتواضع ، ففى الحقيقة ليس المتواضع من اذا عمل شيئا من أعمال التواضع ظن أنه أعلى من هذا العمل وأرفع . فمثلا أنه ترك الكرسى وجلس على الأرض المفروشة فيرى أن الجلوس على الأرض المفروشة أدنى من منزلته ويرى أن مقامه أعلى من هذا ويتخيل أنى كنت أهلا لأن أجلس على الكرسى ولكنى تواضعت وعملت حسنا فهذا الشخص متكبر فانه يرى لنفسه فى قلبه مقاما ومنزلة — وأما المتواضع حقيقة فانه الذى يعمل بعمل التواضع ويرى نفسه أحقر وأذل من ذلك أيضا فمثلا جلس على الأرض المفروشة فيتخيل بأنى ذليل وحقير لدرجة أنى لا أستحق

الجلوس على هذه الأرض أيضا وانما كنت أستحق أن أجلس على الأرض غير المفروشة بل وأدنى من ذلك أيضا • أو مثلا خدم رجلا فقيرا فتكون حينئذ كيفية القلب بأن يرى أن هذا الفقير قد شرفه عندما تقبل منه هذه الخدمة فيفرح بذلك ولا يرى نفسه أهلا لذلك أيضا • » وفيه كلام مبسوط قد اختصرته • وعلى كل حال فقد كنت أود أن أكتب فى هذا الآن بتفصيل ولكن لمرضى أختم هنا • ان أمر الكبر فى الشريعة شديد جدا وفى الطريقة أشد منها •

لقد رأيت دأب الأكابر دائما وقد رأيت كثيرا : أن من أتى فى باله أمر الخلافة والاجازة « أثناء السلوك وجدتهم يتمهلون ويحتاطون جدا فى منحه الاجازة حتى بعد حصوله على النسبة وبعد منحه أيضا يشددون فى التنبيه عليه عن الكبر فان كان فنعم والا نسخوا الاجازة •

وقد رأيت بعض خلفاء الأكابر وقد كانوا يجتهدون جدا فى الذكر والشغل يسقطون من الأعالى بسبب هذا الكبر • وبعد الاجازة يجب الاحتراز منه أكثر — فان لم تنسخ الاجازة من قبل الشيخ فلا يتعدى عنه نفع السلسلة ولا يفوز مريدوه الا قليلا — نجانى الله من هذا المرض المهلك وحفظ منه أحبابى خاصة وجملة السالكين بمحض لطفه وكرمه وفضله فالأمر خطير جدا •

ان أمر الكبر عظيم جدا وهناك العجب وهو أدنى مرتبة من الكبر وهو خطير أيضا ويجب الاحتراز منه فان نتائجه أيضا تكون أحيانا فوق الاحتمال فبسبب هذا العجب أصاب ما أصاب من الهم والاضطراب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وجوده معهم فى غزوة حنين ففى سورة التوبة ذكرت هذه القصة حيث يقول الله عز وجل (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين • ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا

وذلك جزاء الكافرين • ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم) •

وفى حروب المرتدين معلوم قول خالد بن الوليد رضى الله عنه « ان البلاء موكل بالمنطق » اذ كان القتال أولا مع طليحة الكذاب هزم فيه الكفار وقد هرب منهم كثيرون وقتل آخرون حتى طليحة هرب فعلت بذلك همم المسلمين ثم كان قتال مسيلمة الكذاب وجماعته وقد وقفوا لهم وتقاتلوا قتالا مريرا وقتل منهم رجال كثيرون واستشهد من المسلمين أيضا جماعة كبيرة وكان سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد هذه المعارك يقول رضى الله عنه : « عندما انتهينا من طليحة الكذاب ولم يكن قويا فى قتاله فقلت كلمة « ان البلاء موكل بالمنطق » فقلت وما بنو حنيفة وهل هم الا كالذين انتهينا منهم (يعنى طليحة وجماعته) ولكننا عندما تقابلنا رأينا أنهم لم يشبهوا أحدا ـ وقفوا لنا من طلوع الشمس الى العصر » فهذا سيدنا خالد رضى الله عنه يعترف بنفسه أنه قد نطق بكلمة سببت كل هذا القتال ـ لذلك كان السادة الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم اذا هنأوا جيشا ونحوه بالفتح كانوا يحرصون أن لا ينتج منه عجب ونحوه وقد ذكر التفصيل فى مقامه •

وبمقابل ذلك فان العجز والتواضع يحبه الله سبحانه جدا وهو شعار الأنبياء والصالحين دائما ـ فى فتح مكة عندما دخل سيد الكونين صلى الله عليه وسلم كان خافضا رأسه وكله تواضع تذلل لله عز وجل يظهر التواضع والعفو من كل حركة مع أنه كان أعظم فتح وأعظم غلبة على أعظم عدو كان من ثمرة هذا التواضع أن لانت قلوب الأعداء المعاندين والمتعصبين فانقادوا له صلى الله عليه وسلم وأطاعوه وتيقنوا أنه صلى الله عليه وسلم كله رحمة وشفقة ويمنحنا ثروة ونعمة عظيمة غالية وهى الايمان • وأن القتال لم يكن للمال أو البلاد •

ذكر فى (أسير مالطا) ص ١٥٩ (ان حضرة شيخ الهند كان ذوقه الطبعى أن يكون مع الفقراء وعامة الناس وكان يحب أن يكون حاله

ولباسه وهيئته ومعاملاته كلها على منوالهم وكان يستوحش من أهل الدنيا والأغنياء وأصحاب الهيئات ، يستأنس بطلبة علم الدين كان يحب أن يسافر فى القطار بالدرجة الثالثة كل هذا مع أنه كان طبعا يحب النظافة جدا وكان ذكى الحس لطيف الذوق كان يحمل عادة فى السفر الكافور معه لأنه كان يتأذى من ألبسة الناس الوسخة يرغب الطيب ولاسيما طيب الورد ويحب جدا البساطة ومجالسة البسطاء ومخالطتهم — يبغض طبعا التراثى فى الهيئة والملبس وأصحابها . وينقل كثيرا جدا مقولة الامام الكبير الشيخ قاسم النانوتوى : ان مرحاض عامة الناس أيضا فيه بركة » أى أن تلك المراحيض التى تصنع للأغنياء والأمراء يهتم فيها بالنظافة والذوق ولكن فيها نحوسة وفساد خلقى بخلاف مراحيض العامة — وحقيقة ذلك أن النفس ترغب التعلى فهى تشتاق الى رفعة نفسها وعظمتها وهذا أصل المعاصى كلها وخسارة الدنيا والآخرة لذا فان أهل الله والسادة الكاملين عندما يرون فى شيء ما ولو مقدارا بسيطا جدا من أمور التعلى أو الرفعة للنفس فانهم ينظرون اليه نظرة سخط وبغض والذى فيه تذليل للنفس وتحقير ظاهرى لها يحبونه — فان الكثافة المادية والروائح الكريهة الظاهرية لا تعادل شيئا مقابل الروائح الكريهة المعنوية والكثافة الروحانية — فمراحيض الأغنياء تولد فى النفس العجب والرعونة ومراحيض العامة لا تولد هذه الأشياء بل انه بخلافه يرى حقارة النفس ودناءتها ويذكر الناس بنجاستهم وحالتهم الحقيقية ، فاذا كان هذا حال المرحاض فما بالك ببقية الأوضاع والأطوار والمساكن والملابس وغيرها فقسها عليه — كان يقول أيضا : ان الفقهاء ذكروا أن التوضؤ من الحوض أفضل ويقول الشراح سببه العمل بخلاف المعتزلة — ففيه انكار ورد عليهم ، ولكن لم ينقل عن المعتزلة فى أى مكان أنهم أنكروا على التوضيء من الأحواض والذى أراه أن فى هذا العمل اصلاح عظيم للنفس فانه يصعب عليها جدا فشخص يغسل رجليه فى نفس الحوض وآخر يغسل يديه منه والثالث يغسل وجهه منه أيضا وآخر يستنشق ويتمضمض منه وهكذا ، لذا فان أصحاب النفس الأمارة وأصحاب الأموال من أهل الدنيا يرون فيه تذليلا وتحقيرا لهم فالغالب أن تكون أفضلية الوضوء من الحوض بسبب ذلك .

وفى الواقع ان هذان « الأستاذ وتلميذه » أعنى حجة الاسلام الامام الشيخ محمد قاسم النانوتوى وشيخ الهند الشيخ محمود الحسن رحمهما الله تعالى كانا دائما يبحثان عن كل ما يؤدى الى الخمول والتواضع وتحقير النفس وتذليلها فيختارونه ويتمسكون به وما رأوه يؤدى الى الكبر وحب الجاه والشهرة بين الناس والتعاظم والتعلى ابتعدوا عنه وهربوا منه — ثم لم يكونوا على الطريقة الشائعة يجتهدون فى أساليب التواضع الظاهرة باللسان والقلم فقط فان أكثرنا يكتب ويقول عن نفسه أنه أفقر الخلق وأحقر العباد وأدنى الخلائق وأنه لا يساوى شيئا وأنه كذا وكذا ولكن كل هذه عامة تكون رياء ونفاقا فالقلب يكون بريئا من كل هذه الأقاويل وبعيدا عن هذه الأحاسيس انما تفكر فى قلوبنا بأننا : نحن ما نحن — لذلك تكون الغيبة واتهام الآخرين وتنقيصهم وهتك أعراضهم ولا يكتفى فى ذلك بالمعاصرين وانما لو بلغنا عن السابقين محاسنهم ومعاليهم فان ذلك أيضا يوقد نيران الحسد فى قلوبنا ثم نجتهد فى كل من تكون له منزلة بين الناس أن نذله ونخطط ونجتهد للاحباط به وان وصفنا أحد بالجهل أو الحمق أو سبنا بأسماء أحد الحيوانات كحمار أو كلب أو نحوه فلاتسأل عن غضبنا ومن يملك زمامنا حينذاك مع أننا أدنى الخلائق فان كنا صادقين فى القول فلماذا الغضب على تسميتنا بالحمار أو الكلب فانها أيضا من الخلائق التى نحن أدناها وأصغرها ، فقط .

أما أنا فقد جربت هذا مئات المرات بأنه ما من مرة يخطر بالبال فقط (وليس على اللسان) شىء فيه كبر أو عجب الا وظهرت نتيجته السيئة .

ان اضراب عام ١٣٨٢ هـ بمظاهر العلوم جعل هذا الحقير غير راغب الى التعلم والتدريس بل وكأنى تركت التدريس بعده . فى هذا الاضراب واجهنا من قبل المفسدين وأهل الفتنة الكذب والغدر والحلف الكاذب وأشياء كثيرة جدا ولكن حسب عادتى الدائمة ما زلت أفكر بمقتضى قوله تعالى « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » وأتمحض الأحوال — ومهما كانت الأسباب الظاهرة لهذا الاضراب ولكن على قول سيدنا خالد ابن الوليد رضى الله عنه « ان البلاء موكل بالمنطق » ظهرت عدة أشياء بعد الملاحظة : —

١ ــ قبل أسبوع تقريبا من بداية الاضراب ذكر فى درس أحد مدرسينا اضراب بعض المدارس الأخرى فتحمس هــذا المدرس وقال مفتخرا « ان مظاهر العلوم لا تكون فيها اضرابات » .

٢ ــ بداية هذا الحادث كان من العمارة الفرعية حيث أن أحد الكفار أشار على طالب مبعد من المدرســة : أنكم لو تعاونتم واتفقتم على أمر فلا يمكن لادارة المدرسة أن تعمل أى شيء ضدكم ــ فجاء هــذا الطالب ليلا بعد قفل البوابة وجمع الطلبة وخطب فيهم وأظهر لهم مظلوميته وعجزه ــ وفى الصباح بلغنى خبره فطلبت المسئول بالعمارة الفرعية وأخبرته بما حصل فقال هذا المسئول : يا سيدى لا تخشى شيئا انه لا يستطيع عمل أى شيء . وأنا الآن أذهب وأدبر حاله ــ وقد أردت أن أفهمه وأؤكد عليه ولكنه كان متحمسا جدا لرأيه ومطمئنا .

٣ ــ عندما استمر هذا الحادث وطالت مدته وانتقلت عدواه الى مظاهر العلوم « الأم » وجلس أهل الشورى للتشاور عندئذ قال هذا العاجز لهم بقوة : لم يشترك فى هذا الاضراب أحــد من طلبــة الدورة أى « دورة الحديث الشريف » ــ فقال نائب مدير التعليم بالمدرسة المرحوم الشيــخ عبد المجيد بصوت خفى : بلى يا سيدى يوجد بعض الطلبة من الدورة أيضا ــ فرد عليه هذا الأحمق بشدة : ــ انه لا يمكن أبدا أن يكون أحد من أهل الدورة اشترك معهم .

ولكن ثبت بعد التحقيق أنه لم يبق من أهل الدورة أحد الا نادرا ــ ومما زاد الحيرة والأسف أن أحد المخلصين الى وكان يظهر مودته واخلاصه لى دائما وكان من أخلص خدام سماحة الناظم فى المظاهر كان معنا فى كل شيء وفى الخفاء كان مع المفسدين وكان سبب قولى بقوة أن أهل الدورة لم يشتركوا هو أنى كنت دائما أذكر أهل الدورة فى أثناء درس الحديث الشريف عن مقامهم العالى وأنهم نواب رسول الله صلى الله عليــه وسلم وسيكونون فى المستقبل أسوة للقوم وفى هذه السنة بالذات كنت أزيد لهم من هذه المواعظ والنصائح فكنت أظن لحمقى أن هذه الكلمات تكون قد

أثرت فيهم فلا يمكن أن يشتركوا فى مثل هذا الفساد ولكن عندما رأيت ما ذهبوا اليه أخذت أردد قول الشاعر : بالأردو ، ما ترجمته : ـــ

« لماذا لا يبكى ذاك المحروم ويرفع طرفه الى السماء الذى يرى فى كل مقام أن جهده قد ضاع هباء منثورا » •

حتى الآن عندما أتصور ذاك المنظر يتضح لى عجزى وقصورى فاننى لو كنت متزينا بالاخلاص لأثر فيهم كلامى •

قبل هذا الحادث « الاضراب » كنت عندما أسمع عن اضرابات بعض المدارس الأخرى وتبلغنى من أفواه الطلبة مظالم الادارة عليهم كنت دائما فى جهة الطلبة ولكن المناظر التى رأيتها بأم عينى فى هـــذه السنة جعلتنى بعدها كلما بلغنى عن اضراب مدرسة ما تكون عواطفى مع أهل المدرسة وأرى أن الظلم أصلا من الطلبة ـــ فالى الله المشتكى وهو المستعان •

وثبت هذا المنظر فى جذر القلب نجانى الله والجميع منه أن الكبر أم الأمراض ويسقط الكبراء من العلو وقد رأينا كثيرا من مشـــايخ السلوك يسقطون بسبب هذا المرض •

وقصة الشيخ أبى عبد الله الأندلسى من القصص التى رسخت فى قلبى وثبتت بحيث أنها تأتى دائما على رأس القلم بدون قصد منى وأود لو أنها هكذا تكون راسخة فى قلب كل من له أدنى علاقة بالسلوك والتصـــوف والقصة ملخصها أن أحد المشايخ الكبار فى عهد الشبلى رحمه الله خرج فى مريديه وتحيط بهم الخيرات والرحمات ومروا فى أثناء رحلتهم على قرية يسكنها النصارى وحان وقت الصلاة ولم يجدوا فى القرية ماء حتى وصلوا الى مشارف القرية ورأوا هناك بئرا وقفت عليه بعض الفتيات ووقع بصر الشيخ أبو عبد الله على احدى الفتيات وبدأ وجهه يتغير ثم جلس فى مكانه وجلس المريدون كلهم من حوله ومكثوا كذلك ثلاثة أيام والشيخ لا يذوق طعاما ولا شرابا ولا يكلم أحدا وفى اليوم الثالث سأله الشبلى عن حاله فأجاب الشـــيخ وكله حسرة وألم : يا أعزائى الى متى أخفى عليكم أمرى ـــ ان الفتاة التى رأيتها قبل ثلاثة أيام قد تسلط على حبها حتى أنى لا أستطيع

الحراك من مقامى هذا فاذهبوا أنتم واتركونى هنا ـ قال الشبلى فحاولنا أن نأخذه معنا ولكنه أبى ـ وبكى مريدوه ورجعنا جميعا الى بغداد وحينما وصلنا اليها وأخبرنا الناس بحكاية الشيخ لم يكد يصدقنا أحد ـ يقول الشبلى وبعد سنة كاملة خرجت مع بعض رفاقى الى تلك القرية لنستعلم أحوال الشيخ وسألنا أهل القرية وأخبرونا أنه هناك فى البرية يرعى الخنازير ، فصعقنا له . وسألنا عن السبب ؟ فقالوا : انه خطب ابنة سيد القرية فاشترط أن يرعى الخنازير فقبل الشيخ الشرط .. فذهبنا الى حيث كان الشيخ ووجدناه وعلى رأسه قلنسوة النصارى وعليه الزنار متكئا على عصاه التى كان يتكىء عليها عند الخطبة وأمامه الخنازير ، وعندما انتبه لنا أرخى بصره ـ وعندما اقتربنا منه سلمنا عليه فقال بصوت منخفض : وعليكم السلام . فقلت له : أيها الشيخ الكريم ما هذا الذى نراه مع العلم والفضل ومعارف التفسير والحديث التى تتحلى بها ؟ فأجاب : يا اخوانى فعل الله بى ما أراد يبعد من يشاء ويقرب من رحمته من يشاء فلا راد لقضائه ـ يا أحبابى اتقوا الله من غضبه وعذابه ولا تغتروا بعلومكم ومعارفكم فان الأمر بيده وحده . ثم رفع بصره الى السماء وقال : يا مولاى لم أكن أظن بك أن تذلنى وتبعدنى هكذا عن بابك . ثم صار يستغيث بالله ويدعوه ويبكى بحرارة . ثم قال : يا شبلى اعتبر بغيرك . فبكيت وقلت اللهم انا نستغيث بك ونستعينك ونتوكل عليك نسألك أن تذهب عنا هذه المصيبة ـ قال ثم تركنا الشيخ مكانه وأخذنا فى الرجوع الى بغداد .. وفى الطريق فى مقام وجدنا الشيخ أمامنا يخرج من عين ماء جارية مغتسلا ورافعا صوته بالشهادتين يقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ـ فلا يقدر فرحنا من لم يعلم بمصابنا . ثم سألنا الشيخ عما حدث فقال : اننا عندما مررنا بتلك القرية ووجدنا كنائس النصارى ومعابدهم كبرت نفسى وقلت : انى مؤمن وموحد ، وأما هؤلاء فانهم حمقى لا يعرفون الله عز وجل ولا دينه الحق ، فسمعت حينئذ هاتفا غيبيا يقول : ان هذا الايمان ليس منك انما هو بفضلنا وارادتنا وتوفيقنا وان أردت فسنريك قدرك » اهـ مختصرا .

وكان مقصودى من القصة هذا الجزء الأخير والا فالقصة بتفاصيلها قد ذكرتها فى (مذكراتى الشخصية) ونقل عنها العزيز محمد اقبال فى رسالته (سلوك الأكابر) وكان الحكيم محمد الياس السهارنبورى قد أفردها بالطبع فى رسالة مستقلة .

فهذا الكبر ما أدهاه وما أخطره من أين رفع شيخ المشايخ وأين أوصله ، فما نحن ؟ أعاذنى الله والجميع بمحض فضله وكرمه من هذا المرض الخبيث والداء المميت والله سبحانه المستعان وعليه التكلان وحده .

اساءة الأدب مع الأكابر

الموضوع الأخير وهو أهم الأمور وأخطرها وأفظعها ألا وهو « اساءة الأدب مع الأكابر » سواء كانوا من السادة العلماء أو المحدثين الأفاضل أو الفقهاء الكرام أو الصوفية العظام — وقد قال الله تعالى جل شأنه « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا — ذلك الفوز العظيم » •

ونقل صاحب الدر المنثور عدة روايات وآثار فى تفسير هذه الآية وفيها أيضا عن الامام الأوزاعى أنه أخبره يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبى لبابة وحسان بن عطية أنهم سمعوا جماعة كبيرة من الصحابة رضى الله عنهم قالوا لما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : انها لأمتى •

فهذه الآية تشمل السادة الصوفية أيضا الذين هم مصداق الاحسان فى الحديث كما سبق » وقد مر الكلام على هذا بالتفصيل فى رسالتى « الاعتدال » ومنه أنقل هنا مختصرا — « ان هؤلاء الحمقى الذين جعلوا نصب أعينهم احتقار العلماء وتذليلهم ويفتخرون بايذائهم والنيل منهم هؤلاء يجب عليهم أن يعلموا أنهم وعلى كل حال سيخسرون فى هذه الصفقة أكثر من العلماء — اذ أن أكثر ما سيضروا العلماء به هو أن ينقصوا شيئا من دنياهم أو يقللوا من عزتهم وجاههم الزائل وهذا أيضا بشرط أن يكون فى يدهم من تغيير القدر شيئا » ولكنهم المساكين يهلكون أنفسهم ويتضررون بسبب عملهم من حيث الدنيا والآخرة كليهما •

« يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا ولم يعرف لعالمنا » وبعد هذا القرار النبوى ان ادعى الذين يسبون العلماء على العموم أنهم من الأمة المحمدية فليدعوا ولكن صاحب الأمة يرفضهم ولا يرضى بشمولهم •

« ويقول صلى الله عليه وسلم حملة القرآن أولياء الله من عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله » .

وقد بسط الامام النووى فى شرح المهذب فى هذا البحث ونقل عنه صلى الله عليه وسلم قوله ، كما رواه البخارى : يقول الله عز وجل من آذى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وذكر أن الخطيب البغدادى نقل عن الامام أبى حنيفة والامام الشافعى رضى الله عنهما أنه ان لم يكن الفقهاء (العلماء) من أولياء الله فليس هناك ولى لله — ويقول حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : من آذى فقيها (عالما) فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله .

يقول الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله : يا أخى اعلم وفقنى الله واياك لأسباب مرضاته وجعلنا ممن يخافه ويتقيه كما ينبغى ان لحوم العلماء مسمومة وسنة الله معلومة فى هتك أعراض من أساء اليهم ومن أهانهم أذله الله ومن أعابهم أمات الله قلبه .

ويقول الشيخ عبد الحى اللكنوى فى فتاواه : اذا كان المقصود سبهم وتنقيصهم للعلم والعلماء بسبب العلم فان الفقهاء يفتون بكفرهم ، وان كان بسبب آخر فأيضا لا أقل من الفسق والفجور ولا شك فى غضب الله عليهم واستحقاقهم العذاب فى الآخرة) .

وقد بسطت فى الاعتدال الكلام على هذا وأيدته بكلام السادة العلماء بعد تأييده بالآيات القرآنية والروايات الحديثية فمن وجد فراغا من الشواغل الدنياوية ولم يظن أن هذه الأشياء عبث فأرجو أن يلاحظها بأمعان

كان أحد خدام الامام الكبير الشيخ الكنكوهى قدس سره يحصل له كشف القبور كثيرا . عندما توفى والدى أتانى لتعزيتى وذهب الى المقبرة وجلس هناك مدة طويلة ثم أتانى وبلغنى عن والدى ثلاثة رسائل : —

١ — لم أطالب من ناحية الدين بشىء فلا تهتم . وذلك ان والدى رحمه الله عندما توفى كان مدينا عليه بحوالى ثمانية آلاف روبية وكنت مهسوما

جدا لذلك فكتبت الى جميع الدائنين فى اليوم الثانى من الوفاة بعد الاستشارة مع عمى الشيخ محمد الياس رسائل الى جميع الدائنين بأن والدى قد توفى فما كان لكم من دين عليه حولوه على فانى أصبحت من الآن مدين لكم به •

وكان سيدى الشيخ خليل أحمد حينئذ عند رجوعه من الحجاز فى سجن الانجليز لأن سفرته هذه كانت مع شيخ الهند مولانا محمود الحسن وقد أقاما سويا بالحجاز لمدة سنة ــ فعندما خرج من السجن لم يستحسن هذا الرأى وقال : بل كان المفروض أن تكتب اليهم « انه ترك هذه الكتب » فى المكتبة فتعالوا وخذوا منها مقدار قرضكم » •

٢ ــ بلغنى أن لا تهتم من ناحية •• فلان •• فان ما عمله لم يؤثر على وانما أساء هو الى نفسه ــ وهذا الشخص كان يبغض والدى ويعانده وينتقده فى كل شيء ــ وأنا بعد وفاة والدى كنت أهتم كثيرا بشكاويه وعداوته لى أيضا ــ وقد رأيت أثر هذه الرسالة الثانية بنفسى أن هذا الشخص عوتب من قبل شيخنا وأبعد عن المدرسة •

٣ ــ والرسالة الثالثة كانت انه يجب أن تخشى دائما أهل الله وتخافهم ــ فان هؤلاء حتى عوجهم يكون عدلا • وكنت حينئذ صغير السن وأطلب العلم فلم أستطع فهم هذه العبارة ولم تقبله فطرتى فان المعوج على كل حال معوج سواء كان من قبل رجل من أهل الله أو رجل من أهل الدنيا ــ وقد تفكرت كثيرا لأفهم المراد من هذه الرسالة فلم أستطع وبعد عشر سنوات عام ١٣٤٥ هـ كانت اقامتى بالمدينة المنورة بسبب بذل المجهود فى رحاب شيخنا ــ وكان بعضهم يكتب الى سيدى شكاوى منها صادقة ومنها كاذبة عن ناظم المدرسة وبما أنى كنت أعرف هذا الرجل شخصيا لذلك كان يراسلنى مباشرة أيضا وكنت عند الكتابة لسيدى أرد على شكاوى هذا الشخص وأدافع عن الشيخ الناظم وأحيانا أتجرأ أكثر فأرد عليه بشدة ــ وعندما كان الرجوع فى ذى القعدة عام ١٣٤٥ هـ من الحجاز وكان معى الشيخ عبد القادر الرائيبورى أيضا فى هذا الرجوع فأرسل سيدى رسالة شفوية الى الشيخ الناظم بواسطة مولانا الشيخ عبد القادر بأن يبلغه : ان معاملتك مع فلان ليست بحسنة فعامله بأسلوب حسن •

ومولانا الشيخ عبد القادر بلغ هذه الرسالة أمامى الى الشيخ الناظم عند وصولنا لسهارنبور فقال الشيخ الناظم انه يكتب الى سيدنا الشيخ أنباء كاذبة وقال أيضا فيه أشياء بدون مبالاة فرأيت أن وجه الشيخ عبد القادر قد تغير لذلك ـ ثم سألت الشيخ الجليل فى انفراد بأنه قبل احدى عشر سنة بلغتنى رسالة والدى فمكثت أتفكر فيها والآن عندما رأيت تغير وجهك تذكرت نفس الأمر اذ أن الشيخ الناظم قد صدق فى قوله ان ذاك الشخص يتقول الأكاذيب ولكن تأثرك ذكرنى بتلك القضية القديمة فقال الشيخ الكريم مولانا عبد القادر الرائبورى « ان اشكالك صحيح فالباطل باطل على كل حال ولكن أولياء الله هؤلاء ان تكدرت قلوبهم ولو بسبب الشكاوى الكاذبة فان هذا التكدر لابد وأن يأتى بنتيجة » وبعدها كم مرت على تجارب من ذاك النوع فحقا ان تأثر هؤلاء الأولياء المتقين وتكدر قلوبهم نحو شخص ـ يوقعه فى مصايب ودواهى عظيمة ـ فصرت أخاف فى الأمر وأنصح أحبابى بأن لا تغتروا أنكم على الحق وانما مع ذلك احرصوا على ارضاء هؤلاء المتفانين فى رضاء الله ومحبته أيضا فحاولوا بقدر الاستطاعة دائما أن تكون قلوبهم صافية نقية من قبلكم .

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية حديث : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وقال انه أحسن حديث فى الباب وذكر روايات أخرى أيضا فى نفس المعنى ثم قال وذلك لأن هؤلاء الأولياء آمنوا بالله ووالوه . ويحبون ما أحبه الله ويبغون ما أبغضه الله ورضوا عمن رضى الله عنه وسخطوا على من سخط الله عليهوأمروا بما أمر الله به ونهوا عما نهى عنه » .

ويقول الامام الكنكوهى نور الله مرقده : ان الذين يهينون العلماء ويطعنون فيهم ويسيئون اليهم هؤلاء تحول وجوههم عن القبلة فى القبور ومن شاء فليتحقق « الأرواح الثلاثة » ص ٣٦٠ .

وقد بسطت الكلام فى الاعتدال فى هذا المقام أيضا وفيه ان قوله تعالى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » قد ذكره البخارى فى صحيحه

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه مرفوعا ثم قد روى أيضا عن عائشة وميمونة ومعاذ وأنس وأبى أمامة رضى الله عنهم بألفاظ مختلفة •

وروى عن وهب بن منبه أنه رأى فى زبور داود عليه السلام يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » كذا فى الدر المنثور •

وهناك روايات كثيرة صرح فيها أن من آذى أو عادى أو أهان أحدا من أولياء الله فانه قد بارز الله بالمحاربة وأن الله يغضب لهم وينتقم من أصحابها • فانظر يا أخى هدانى الله واياك كم هى خطيرة هذه القضية فأى أرض تقله من يبارز الله رب العالمين ــ ثم وفى جزاء ذلك لو كسرت يد أو رجل أو ذهب سمع وبصر ونحوه من المصائب الدنياوية لكان هينا وسهلا لأن الدنيا على كل حال فانية ويمكن أن يوفق للتوبة ولكن اذا ابتلى بسبب ذلك فى مصيبة دينية عقائدية لا قدر الله فهى الطامة الكبرى •

قالت الأئمة الاعلام : ليس هناك ذنب عبر عنه المولى سبحانه بالمحاربة الا هذا الذنب وأكل الربا •

فعلم أن اثمهما عظيم جدا ويخشى على أصحابها من سوء الختام نسأل الله سبحانه العافية والسلامة من سخطه وعذابه وقد نقل العلامة على القارى فى المرقاة نحو ذلك عن العلماء •

وقد ذكر صاحب مظاهر الحق أيضا أن محاربة الله تعالى لعبده تدل على سوء خاتمته ــ ان حسن الختام بالنسبة للمؤمن أمر عظيم ونعمة لا تضاهى فالشىء الذى يخشى منه أن يؤثر فى سوء الختام فما أكبر خطره وما أعظم شأنه وما أحرانا أن نتحاشاه ونجتنب عنه ؟ •

وقال الشيخ أحمد فى جامع الأصول « ان الانكار على السادة الصوفية الذين يتبعون السنة ويقمعون البدعة وخصوصا المتحلين منهم بالعلم النافع والعمل الصالح والحاملين للمعارف والأسرار الربانية الانكار عليهم سم قاتل ومهلكة ورد الوعيد الشديد فى النهى عنه وهو أمر خطير

دليـــل على أن فى القــلب أعراض عــن ذات الله عز وجــل وأنه ملىء بالأمراض يخشى عليه من سوء الختام ، والعياذ بالله .

وذكر العلامة الشعرانى فى الطبقــات الكبرى عن الامام أبى تراب النخشبى وهو من كبار مشايخ الصوفية وغيره : اذا استأنس قلب المرء بالاعراض عن الله ابتلى بالاعتراض على أهل الله ــ وقد بسط فيه المشايخ فى مقامه ــ ومحبة أهل الله وخاصته هو الأكسير الأعظم وعداوتهم سم قاتل وفقنى الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه وجميع المسلمين لما يحبه ويرضاه ورزقنا حبه وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وحب من يحبه . آمين .

وقد بسطت الكلام فى (الاعتدال) فارجع اليه فانه مهم ومفيد جدا ــ ولى نصيحة أنصح بها أحبابى جميعا وأحاول العمل بمقتضاها دائما وهى أن شعب الدين كثيرة ويصعب على كل أحد العمل بها جميعها فمثلا يكون محدثا وفقيها ومجاهدا وصــاحب تقوى وورع وصــاحب عبــادة كثيرة وصاحب صيام وصــدقة ونسك الخ الخ . ومن الصعب جدا أن يتمكن شخص من كل تلك الشعب حق التمكن ولكن لو بحث المرء عن الكاملين والمتمكنين فى كل شعبة من هذه الشعب وأحبهم محبة خاصة فعلى قاعدة « المرء مع من أحب » يرجى ان شاء الله أن يحصل له حظ وافر من شعبهم كلها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصــلاة والسلام على ســيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وعلى آله وأصحابه وأتبــاعه أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين .

قبيل المغرب يوم الجمعة احدى عشر جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ هـ فى مسجد النبى الكريم صلى الله تعالى على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم .

محمد زكريا (عفى عنه)